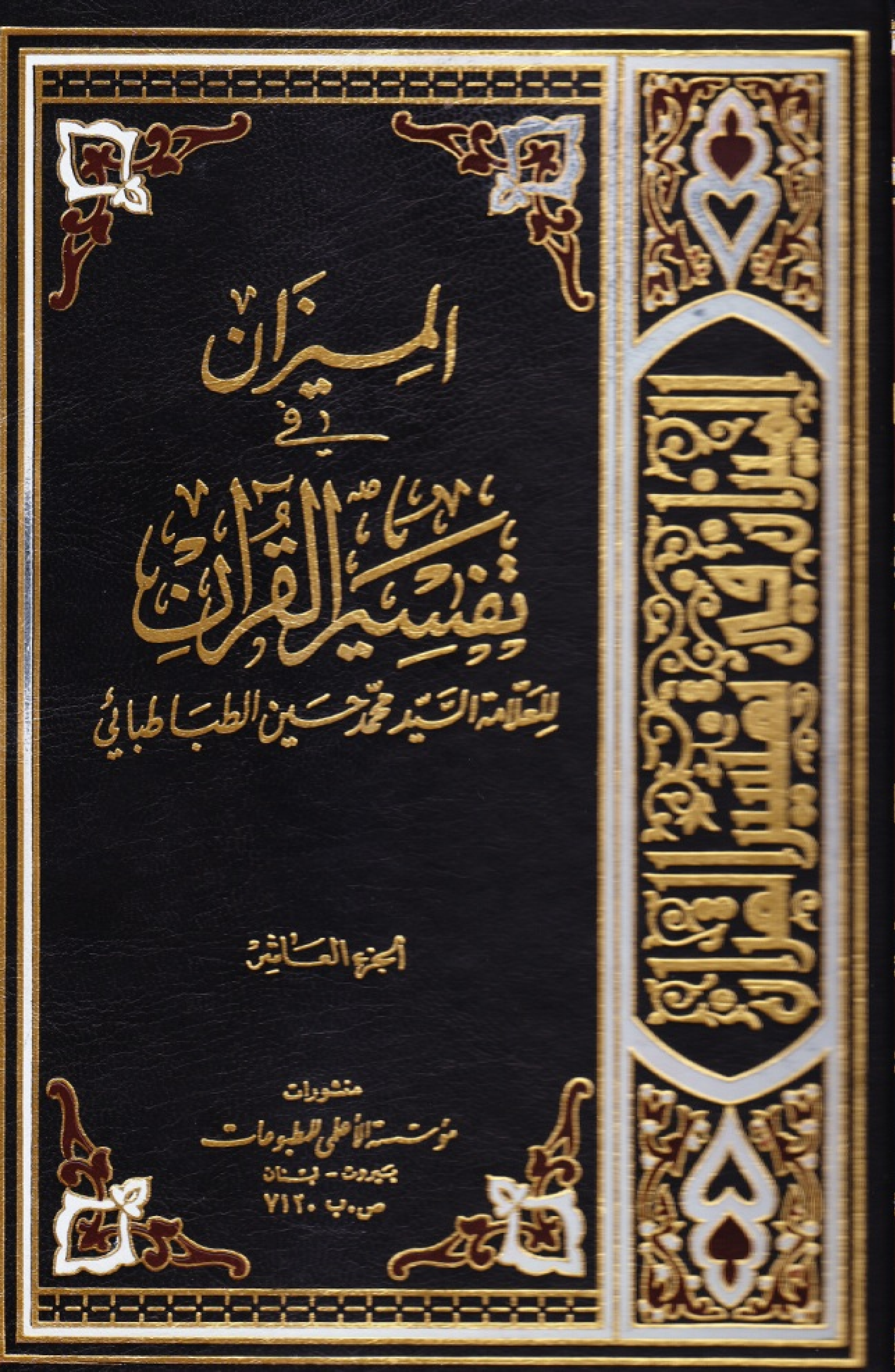
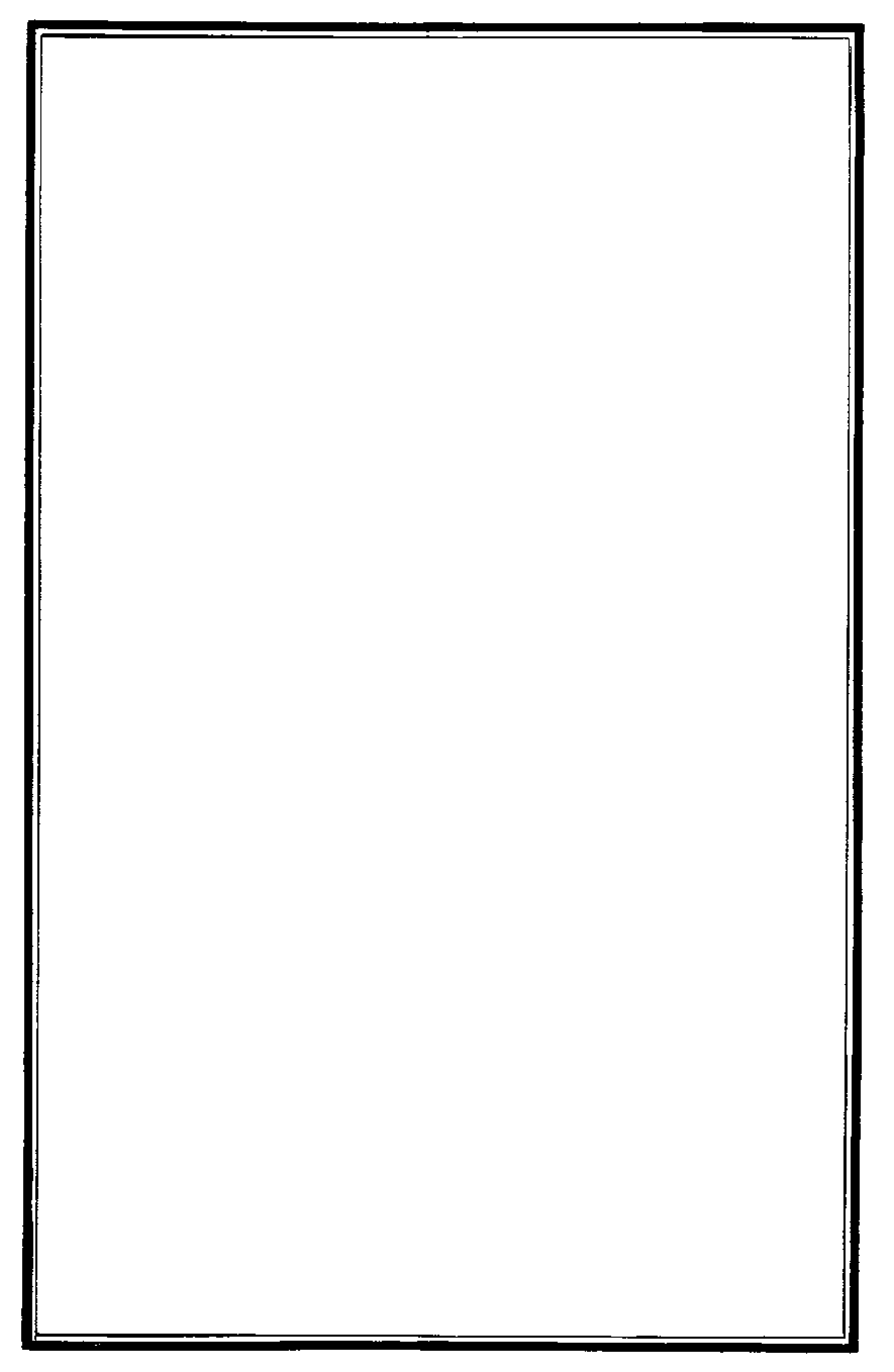

الميزان
في
تفسير القرآن
للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
الجزء العاشر
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠
العلامة الطباطبائي
١٠
هود



الميزان
في
تفسير القرآن

١٠



الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي فني، فلسفي،
أدبي، تاريخي، روائي،
اجتماعي، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف:

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء العاشر

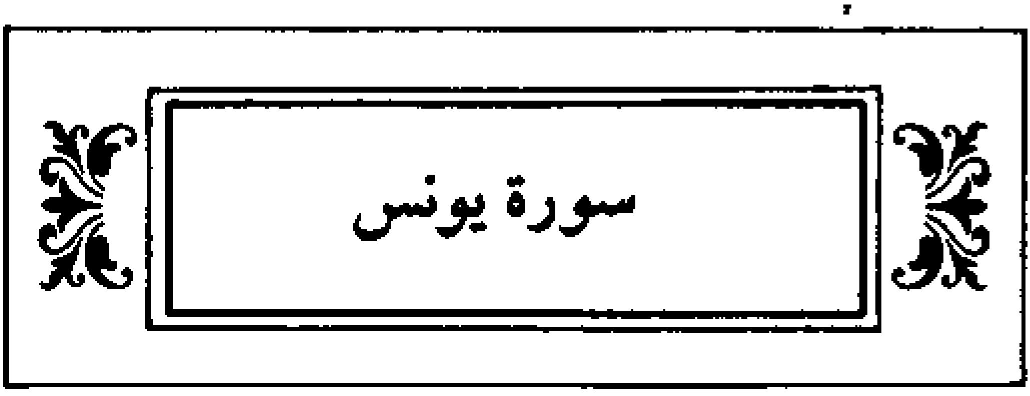
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص ب: ٧١٢٠

الطبعة الأولى المحققة

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف والناشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب. ٧١٢٠
الهاتف: ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس: ٨٣٣٤٤٧.



سورة يونس

وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيٰوةِ

آلـدُّنْيَا وَاطْمَـأَنّوا بِهَـا وَآلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَـاتِنَا غَـافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَـأْوِيهُمُ آلنَّارُ بِمَـا كَـانُـوا يَكْسِبُـونَ (٨) إِنَّ آلَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا آلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّـاتِ آلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَيهُمْ فِيهَـا سُبْحَانَـكَ آللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَـا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) .

(بيـــان)

السورة ـ كما يلوح من آياتها ـ مكية من السور النازلة في أوائل البعثة وقد نزلت دفعة للاتصال الظاهر بين كرائم آياتها ، وقد استثنى بعضهم قوله تعالى : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرئون الكتاب من قبلك﴾ إلى تمام ثلاث آيات فذكر أنها مدنية ، وبعضهم قوله تعالى : ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ فذكر أنها نزلت في اليهود بالمدينة ، ولا دليل من جهة اللفظ على شيء من القولين .

وغرض السورة وهو الذي أُنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول في التوحيد من طريق الإنذار والتبشير كأنها أنزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسميتهم القرآن بالسحر فردّ الله سبحانه ذلك عليهم ببيان أن القرآن كتاب سماوي نازل بعلمه تعالى ، وأن الذي يتضمنه من معارف التوحيد كوحدانيته تعالى وعلمه وقدرته وانتهاء الخلقة إليه وعجائب سننه في خلقه ورجوعهم جميعاً إليه بأعمالهم التي سيجزون بها خيراً أو شراً كل ذلك مما تدل عليه آيات السماء والأرض ويهتدي إليه العقل السليم فهي معان حقة ولا يدل على مثلها إلا كلام حكيم لا سحر مزوّق باطل .

والدليل على ما ذكرنا افتتاح السورة بالكلام على تكذيبهم القرآن : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا﴾ إلى قوله ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ واختتامها بمثل قوله : ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ الآية، ثم عوده تعالى إلى مسألة الإيحاء بالقرآن وتكذيبهم له في تضاعيف الآيات مرة بعد مرة كقوله : ﴿وإذا تتلى

عليهم آياتنا﴾ الآية ، وقوله : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ الآية ، وقوله : ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة﴾ الآية ، وقوله : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ الآية .

فتكرر هذه الآيات والافتتاح والاختتام بها يدل على أن الكلام مبني على تعقيب إنكارهم لكلام الله وتكذيبهم الوحي ولذلك كان من عمدة الكلام في هذه السورة الوعيد على مكذبي آيات الله من هذه الأمة بعذاب يقضي بين النبي ﷺ وبينهم وأن ذلك من سنّة الله في خلقه ، وعلى تعقيبه تختتم السورة حتى كاد يكون بيان هذه الحقيقة من مختصات هذه السورة فمن الحري أن تعرّف السورة بأنها سورة الإنذار بالقضاء العدل بين النبي ﷺ وبين أمته وقد اختتمت بقوله : ﴿واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

قوله تعالى : **﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** الإشارة باللفظ الدال على البعد للدلالة على ارتفاع مكانة القرآن وعلو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش .

والآية ـ ومعناها العلامة ـ وإن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعاني أو الأعيان الخارجية كما في قوله : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾[1] وفي قوله : ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾[2] وكذا ما هو من قبيل القول كما في قوله ظاهراً : ﴿وإذا بدّلنا آية مكان آية﴾[3] ونحو ذلك لكن المراد بالآيات ههنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإن الكلام في الوحي النازل على النبي ﷺ وهو كلام متلو مقرو بأي معنى من المعاني صورنا نزول الوحي .

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي ، وتتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانة ما من ذوق التفاهم ، ولذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين والبصريين وغيرهم .

والمراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة ، وربما قيل : إن الحكيم من الفعيل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل

---

(١) الشعراء : ١٩٧ .　　(٢) الأنبياء : ٩١　　(٣) النحل : ١٠١ .

للانثلام والفساد ، والكتاب الذي هذا شأنه ـ وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي ـ هو القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وربما قيل : إن الكتاب الحكيم هو اللوح المحفوظ ، وكون الآيات آياته هو أنها نزلت منه وهي محفوظة فيه ، وهو وإن لم يخل عن وجه بالنظر إلى أمثال قوله تعالى : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾[1] وقوله : ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾[2] لكن الأظهر من الآية التي نحن فيها وسائر ما في سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتتحة بالحروف ﴿الر﴾ وسائر الآيات المشابهة لها أو الناظرة إلى وصف القرآن أن المراد بالكتاب وبآياته هو هذا القرآن المتلو المقرو وآياته المتلوّة المقروّة بما أنه من اللوح المحفوظ من التغيير والبطلان كالكتاب المأخوذ بوجه من الكتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى : ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾[3] ، وقوله : ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[4] وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ إلى آخر الآية الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إيحاء الله إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنية .

وقوله : ﴿أن أنذر الناس﴾ الخ تفسير لما أوحاه إليه ، ويتبين به أن الذي ألقاه إليه من الوحي هو بالنسبة إلى عامة الناس إنذار وبالنسبة إلى الذين آمنوا منهم خاصة تبشير فهو لا محالة يضر الناس على بعض التقادير وهو تقدير الكفر والعصيان وينفعهم على تقدير الإيمان والطاعة .

وقد فسّر البشرى الذي أمره أن يبشر به المؤمنين بقوله : ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ والمراد بقدم الصدق هو المنزلة الصادقة كما يشير إليه قوله : ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[5] فإن الإيمان لما استتبع الزلفى والمنزلة عند الله كان الصدق في الإيمان يستتبع الصدق في المنزلة التي يستتبعها فلهم منزلة الصدق كما أن لهم إيمان الصدق .

فإطلاق القدم على المنزلة والمكانة من الكناية ولما كان إشغال المكان

---

(١) البروج : ٢٢ .
(٢) الواقعة : ٧٨ .
(٣) الحجر : ١ .
(٤) هود : ١ .
(٥) القمر : ٥٥ .

عادة إنما هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديات ، وفي المكانة والمنزلة إن كان في المعنويات ثم أضيفت القدم إلى الصدق ، وهو صدق صاحب القدم في شأنه أي قدم منسوبة إلى صدق صاحبها أو قدم هي صادقة لصدق صاحبها في شأنه .

وهناك معنى آخر وهو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدماً وللكذب قدماً وقدم الصدق هي التي تثبت ولا تزول .

وقوله : **﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾** أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقرىء : **﴿إن هذا لسحر مبين﴾** أي القرآن ومآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر من جهة القرآن الكريم .

والجملة كالتعليل لقوله : **﴿كان للناس عجباً﴾** يمثل به معنى تعجّبهم وهو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاماً من غير نوع كلامهم خارقاً للعادة المألوفة في سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب وتتوله إليه النفوس فقالوا : إنه لسحر مبين ، وإن الجائي به لساحر مبين .

قوله تعالى : **﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾** لما ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي وهو القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى في بيان ما كذّبوا به من الجهتين أعني من جهة أن ما كذّبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه ، ومن جهة أن القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهي حق وليس من السحر الباطل في شيء .

فقوله : **﴿إن ربكم الله﴾** الخ ، شروع في بيان الجهة الأولى وهي أن ما يدعوكم إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه ويجب عليكم أن تتبعوه .

والمعنى : إن ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كله سماواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي إليه ينتهي كل تدبير وإدارة فشرع يدبر أمر العالم ، وإذا انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد بأعضاد لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور ـ وهو الشفاعة ـ إلا من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه

هو السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه ، ومن دونه من الأسباب أسباب بتسبيبه وشفعاء من بعد إذنه .

وإذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذي يدبر أمركم لا غيره مما اتخذتموها أرباباً من دون الله وشفعاء عنده ، وهو المراد بقوله : ﴿**ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون**﴾ أي هلا انتقلتم انتقالاً فكرياً إلى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل في معنى الألوهية والخلقة والتدبير .

وقد تقدم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله : ﴿إن ربكم الله﴾[1] في الجزء الثامن من الكتاب .

قوله تعالى : ﴿**إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً**﴾ تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدأ، وقوله : ﴿وعد الله حقاً﴾ من قيام المفعول المطلق مقام فعله ، والمعنى : وعده الله وعداً حقاً .

والحق هو الخبر الذي له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقاً معناه كون الخلقة الإلهية بنحو لا تتم خلقة إلا برجوع الأشياء ـ ومن جملتها الإنسان ـ إليه تعالى وذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجي من الأرض والسقوط والاستقرار عليها ، والأشياء على حال كدح إلى ربها حتى تلاقيه ، قال تعالى : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[2] فافهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿**إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**﴾ الخ تأكيد لقوله : ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ وتفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع والمعاد .

ويمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدمه من قوله : ﴿إليه مرجعكم﴾ الخ أشير به إلى حجتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد : أما قوله : ﴿إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ فلأن الجاري من سنّة الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شيء ويمده من رحمته بما تتم له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعم برحمة منه تعالى ما دام موجوداً حتى ينتهي إلى أجل معدود .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) الانشقاق : ٦ .

وليس انتهاؤه إلى أجله المعدود المضروب له فناء منه وبطلاناً للرحمة الإلهية التي كان بها وجوده وبقاؤه وسائر ما يلحق بذلك من حياة وقدرة وعلم ونحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه الله عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه .

فنفاد وجود الأشياء وانتهاؤها إلى أجلها ليس فناء منها وبطلاناً لها على ما نتوهمه بل رجوعاً وعوداً منها إلى عنده وقد كانت نزلت من عنده ، وما عند الله باق فلم يكن إلا بسطاً ثم قبضاً فالله سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمة ، ويعيدها إليه بقبضها وهو المعاد الموعود .

وأما قوله : ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ الخ فإن الحجة فيه أن العدل والقسط الإلهي ـ وهو من صفات فعله ـ يأبى أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحاً ومن استكبر عليه وكفر به وبآياته ، والطائفتان لا يحس بينهما بفرق في الدنيا فإنما السيطرة فيها للأسباب الكونية بحسب ما تنفع وتضر بإذن الله .

فلا يبقى إلا أن يفرّق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاء حسناً والكفار المسيئين جزاء سيئاً من جهة ما يتلذذون به أو يتألمون .

فالحجة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح وبالكفر وعلى قوله : ﴿بالقسط﴾ هذا ، وقوله : ﴿ليجزي﴾ متعلق بقوله : ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ على ظاهر التقرير .

ويمكن أن يكون قوله : ﴿ليجزي﴾ الخ متعلقاً بقوله : ﴿ثم يعيده﴾ ويكون الكلام مسوقاً للتعليل وإشارة إلى حجة واحدة وهي الحجة الثانية المذكورة ، والأقرب من جهة اللفظ هو الأخير .

قوله تعالى : ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ إلى آخر الآية ، الضياء ـ على ما قيل ـ مصدر ضاء يضوء ضوءاً وضياءً كعاذ يعوذ عوذاً وعواذاً ، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط ، واللفظ ـ على ما قيل ـ على تقدير مضاف والأصل جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور .

وكذلك قوله : ﴿وقدّره منازل﴾ أي وقدّر القمر ذا منازل في مسيره ينزل

كل ليلة منزلاً من تلك المنازل غير ما نزله في الليلة السابقة فلا يزال يتباعد من الشمس حتى يوافيها من الجانب الآخر ، وذلك في شهر قمريّ كامل فترتسم بذلك الشهور وترتسم بالشهور السنون ، ولذلك قال : **﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾** .

والآية تنبىء عن حجة من الحجج الدالة على توحده تعالى في ربوبيته للناس وتنزهه عن الشركاء ، والمعنى أنه هو الذي جعل الشمس ضياء تستفيدون منه في جميع شؤون حياتكم كما يستفيد منه ما في عالمكم الأرضي من موجود مخلوق ، وكذا جعل القمر نوراً يستفاد منه ، وقدّره ذا منازل يؤدّي اختلاف منازله إلى تكوُّن الشهور والسنين فتستفيدون من ذلك في العلم بعدد السنين والحساب ولم يخلق ما خلق من ذلك بما يترتب عليه من الغايات والفوائد إلا بالحق فإنها غايات حقيقية منتظمة تترتب على خلقة ما خلق فليست بلغو باطل ولا صدفة اتفاقية .

فهو تعالى إنما خلق ذلك ورتّبه على هذا الترتيب لتدبير شؤون حياتكم وإصلاح أمور معاشكم ومعادكم فهو ربكم الذي يملك أمركم ويدبّر شأنكم لا رب سواه .

وقوله : **﴿يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾** من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجي أو بحسب البيان اللفظي ، ولعل الأول أقرب إلى سياق الآية .

قوله تعالى : **﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾** قال في المجمع : الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في جهة غير جهة الآخر فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام ، انتهى . والظاهر أنه مأخوذ من الخلف ، والأصل في معناه أخذ أحد الشيئين الآخر في جهة خلفه ثم اتسع فاستعمل في كل تغاير كائن بين شيئين . يقال : اختلفه اي جعله خلفه ، واختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه ، واختلف الناس إليه أي ترددوا بالدخول عليه والخروج من عنده فجعل بعضهم بعضاً خلفه .

والمراد باختلاف الليل والنهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر وهو توالي الليل والنهار الراسم للأسابيع والشهور والسنين ، وإما اختلاف كل من

الليل والنهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل والنهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في الزيادة في المناطق الشمالية فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ أول الصيف فيأخذ في النقيصة حتى يبلغ الاعتدال الخريفي وهو أول الخريف فيتساويان .

ثم يأخذ الليل في الزيادة على النهار إلى أول الشتاء وهو منتهى طول الليالي ثم يعود راجعاً إلى التساوي حتى ينتهي الى الاعتدال الربيعي وهو أول الربيع هذا في المناطق الشمالية والأمر في المناطق الجنوبية بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً في أحد الجانبين زاد الليل طولاً في الجانب الآخر بنفس النسبة .

والاختلاف الأول بالليل والنهار هو الذي يدبّر أمر أهل الأرض بتسليط حرارة الأشعة ثم بسط برد الظلمة ونشر الرياح وبعث الناس للحركة المعاشية ثم جمعهم للسكن والراحة ، قال تعالى : ﴿وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً﴾[1] .

والاختلاف الثاني هو الذي يرسم الفصول الأربعة السنوية التي يدبّر بها أمر الأقوات والأرزاق كما قال تعالى : ﴿وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾[2] .

والنهار واليوم مترادفان إلا أن في النهار ـ على ما قيل ـ فائدة اتساع الضياء ولعله لذلك لا يستعمل النهار إلا بعناية مقابلته الليل بخلاف اليوم فإنه يستعمل فيما لا عناية فيه بذلك كما في مورد الإحصاء يقال : عشرة أيام وعشرين يوماً وهكذا ، ولا يقال : عشرة نهارات وعشرين نهاراً وهكذا .

والآية تشتمل على حجة تامة على توحده تعالى في ربوبيته فإن اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض يحمل نظاماً واحداً عاماً متقناً يدبّر به أمر الموجودات الأرضية والسماوية وخاصة العالم الإنساني تدبيراً واحداً يتصل بعض أجزائه ببعض على أحسن ما يتصور .

وهو يكشف عن ربوبية واحدة تربّ كل شيء ومنه الإنسان فلا رب إلا الله سبحانه لا شريك له في ربوبيته .

---

(١) النبأ : ١١ . (٢) فصلت : ١٠ .

ومن المحتمل أن يكون قوله : ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ الخ ، في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : ﴿يفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾ لمكان إن ، والأنسب على هذا أن يكون المراد باختلاف الليل والنهار تواليهما على الأرض دون الاختلاف بالمعنى الآخر فإن هذا المعنى من الاختلاف هو الذي يسبق إلى الذهن من قوله في الآية السابقة : ﴿جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل﴾ وهو ظاهر .

قوله تعالى : **﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾** إلى آخر الآيتين . شروع في بيان ما يتفرع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله : ﴿ذلكم الله ربكم فاعبدوه﴾ من حيث عاقبة الأمر في استجابته وردّه وطاعته ومعصيته .

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال : ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه ، وهو الرجوع إلى الله بالبعث يوم القيامة ، وقد تقدم الكلام في وجه تسميته بلقاء الله-في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء ، وبإنكاره يسقط الحساب والجزاء فالوعد والوعيد والأمر والنهي ، وبسقوطها يبطل الوحي والنبوة وما يتفرع عليه من الدين السماوي .

وبإنكار البعث والمعاد ينعطف همّ الإنسان على الحياة الدنيا فإن الإنسان وكذا كل موجود ذي حياة له همّ فطري ضروري في بقائه وطلب لسعادة تلك الحياة فإن كان مؤمناً بحياة دائمة تسع الحياة الدنيوية والأخروية معاً فهو ، وإن لم يذعن إلا بهذه الحياة المحدودة الدنيوية علقت همّته الفطرية بها ، ورضي بها وسكن بسببها عن طلب الآخرة ، وهو المراد بقوله : ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ .

ومن هنا يظهر أن الوصف الثاني أعني قوله : ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ من لوازم الوصف الأول أعني قوله : ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ وهو بمنزلة المفسر بالنسبة إليه ، وأن الباء في قوله : ﴿اطمأنوا بها﴾ للسببية أي سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخرة .

وقوله : **﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾** في محل التفسير لما تقدمه من

الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فإن نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفك عن الغفلة عن آيات الله .

والآية قريبة المضمون من قوله تعالى : ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله﴾[1] الآية ، حيث دلّ على أن الإعراض عن ذكر الله وهو الغفلة عن آياته يوجب قصر علم الإنسان في الحياة الدنيا وشؤونها فلا يريد إلا الحياة الدنيا وهو الضلال عن سبيل الله ، وقد عرّف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب في قوله : ﴿إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[2] .

فقد تبين أن إنكار اللقاء ونسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها من الآخرة وقصر العلم عليه وانحصار الطلب فيه ، وإذ كان المدار على حقيقة الذكر والطلب لم يكن فرق بين إنكاره والرضى بالحياة الدنيا قولاً وفعلاً أو فعلاً مع القول الخالي به .

وتبين أيضاً أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التي يتقوّم بها الدين إذ بسقوطه يسقط الأمر والنهي والوعد والوعيد والنبوة والوحي وهو بطلان الدين الإلهي من رأس .

وقوله : ﴿**أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾ بيان لجزائهم بالنار الخالدة قبال أعمالهم التي كسبوها .

قوله تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾ إلى آخر الآية ، هذا بيان لعاقبة أمر المؤمنين وما يثيبهم الله على استجابتهم لدعوته وطاعتهم لأمره .

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم ، وإنما يهديهم إلى ربهم لأن الكلام في عاقبة أمر من يرجو لقاء الله ، وقد قال تعالى : ﴿ويهدي إليه من أناب﴾[3] . فإنما يهدي الإيمان بإذن الله إلى الله سبحانه وكلما اهتدى المؤمنون إلى الحق أو إلى الصراط المستقيم أو غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل ومدارج تنتهي بالآخرة إليه تعالى ، قال تعالى : ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾[4] .

---

(١) النجم : ٣٠ .
(٢) سورة ص : ٢٦ .
(٣) الرعد : ٢٧ .
(٤) النجم : ٤٢ .

وقد وصف المؤمنين بالإيمان والأعمال الصالحة ثم نسب هدايتهم إليه إلى الإيمان وحده فإن الإيمان هو الذي يصعد بالعبد إلى مقام القرب ، وليس للعمل الصالح إلا إعانة الإيمان وإسعاده في عمله كما قال تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[١] حيث ذكر للرفع الإيمان والعلم وسكت عن العمل الصالح ، وأوضحه منه في الدلالة قوله تعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾[٢] .

هذا في الهداية التي هي شأن الإيمان ، وأما نعم الجنة فإن للعمل الصالح دخلاً فيها كما أن للعمل الطالح دخلاً في أنواع العذاب وقد ذكر تعالى في المؤمنين قوله : ﴿تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ كما ذكر في الكافرين قوله : ﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ .

وليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيّم ، ومن نعيمها الأنهار التي تجري من تحتهم فيها ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[٣] وقوله : ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾[٤] الآية ، أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية ، وقد خص الله أولياءه المقرّبين بنوع من شراب الجنة اعتنى به في حقهم كما قال : ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾[٥] ، وقال أيضاً : ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ إلى أن قال ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ إلى أن قال ﴿عيناً يشرب بها المقرّبون﴾[٦] ، وعليك بالتدبّر في الآيات وتطبيق بعضها على بعض حتى ينجلي لك بعض ما أودعه الله سبحانه في كلامه من الأسرار اللطيفة .

قوله تعالى : ﴿دعواهم فيها سبحانك اللّهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه ـ وهم الذين ليس في قلوبهم إلا الله ولا مدبّر لأمرهم غيره ـ أنه يطهر قلوبهم عن محبة غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشيء إلا الله وفي الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه ، وعن أي شاغل

---

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) فاطر : ١٠ .
(٣) الحمد : ٧ .
(٤) النساء : ٦٩ .
(٥) الإنسان : ٦ .
(٦) المطففين : ٢٨ .

يشغلهم عن ربهم .

وهذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم أو في المعنى أو نقص أو عدم ، وتسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط بل قولاً وفعلاً ولساناً وجناناً ، وما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك ، وقد قال تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (١) .

وهؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذارة حب غيره الشاغلة عن ذكره وملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه وهو سبحانه الخير الذي لا شر معه قال : ﴿والله خير﴾ (٢) .

فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملآى بالخير والسلام أحداً إلا بخير وسلام اللهم إلا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدّل الخير والسلام شراً وضراً كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خساراً .

ثم إن هذه القلوب الطاهرة لا تواجه شيئاً من الأشياء إلا وهي تجده وتشاهده نعمة لله سبحانه حاكية لصفات جماله ومعاني كماله واصفة لعظمته وجلاله فكلّما وصفوا شيئاً من الأشياء وهم يرونه نعمة من نعم الله ويشاهدون فيه جماله تعالى في أسمائه وصفاته ولا يغفلون ولا يسهون عن ربهم في شيء كان وصفهم لذلك الشيء وصفاً منهم لربهم بالجميل من أفعاله وصفاته فيكون ثناء منهم عليه وحمداً منهم له فليس الحمد إلا الثناء على الجميل من الفعل الاختياري .

فهذا شأن أوليائه تعالى وهم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد فإذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده وأدخلهم في رحمته وأسكنهم دار كرامته أتمّ لهم نورهم الذي كان خصهم به في الدنيا كما قال تعالى : ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ (٣) .

فسقاهم شراباً طهوراً يطهر به سرائرهم من كل شرك جلي وخفي ، وغشيهم بنور العلم واليقين ، وأجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزّهوا الله وسبّحوه أولاً وسلموا على رفقائهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ثم حمدوا الله سبحانه وأثنوا عليه بأبلغ الحمد وأحسن الثناء .

---

(١) يوسف : ١٠٦ . (٢) طه : ٧٣ . (٣) التحريم : ٨ .

وهذا هو الذي يقبل الانطباق عليه ـ والله أعلم ـ قوله في الآيتين : ﴿تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ وفيه ذكر جنة الولاية وتطهير قلوبهم : ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ وفيه تنزيهه تعالى وتسبيحه عن كل نقص وحاجة وشريك تنزيهاً على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم ﴿وتحيّتهم فيها سلام﴾ وهو توسيم اللقاء بالأمن المطلق ، ولا يوجد في غيرها من الأمن إلا اليسير النسبي ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وفيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسبيحهم له وتنزيههم ، وهذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنة في كمال العلم .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾(١) أن الحمد توصيف ، ولا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه وخصّهم بكرامة من القرب لا واسطة فيها بينهم وبينه قال تعالى : ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾(٢) .

ولذلك لم يحك في كلامه حمده إلا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح وإبراهيم ومحمد وداود وسليمان عليهم السلام كقوله فيما أمر به نوحاً : ﴿فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين﴾(٣) ، وقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾(٤) ، وقوله فيما أمر به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في عدة مواضع : ﴿قل الحمد لله﴾(٥) ، وقوله حكاية عن داود وسليمان : ﴿وقالا الحمد لله﴾(٦) .

وقد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنة في عدة مواضع من كلامه كقوله : ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾(٧) ، وقوله أيضاً : ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾(٨)، وقوله أيضاً : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾(٩) ، وقوله في هذه الآية : ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ .

والآية تدلّ على أن الله سبحانه يلحق أهل الجنة من المؤمنين بالآخرة

---

(١) الحمد : ٢ .
(٢) الصافات : ١٦٠ .
(٣) المؤمنون : ٢٨ .
(٤) ابراهيم : ٣٩ .
(٥) النمل : ٩٣ .
(٦) النمل : ١٥ .
(٧) الأعراف : ٤٣ .
(٨) فاطر : ٣٤ .
(٩) الزمر : ٧٤ .

بعباده المخلصين ففيها وعد جميل وبشارة عظيمة للمؤمنين .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ الآية ، قال : الولاية .

وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال : هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : ورواه القمّي في تفسيره مسنداً والعياشي في تفسيره مرسلاً عن إبراهيم بن عمر عمن ذكره عنه عليه السلام . والظاهر أن المراد به شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم .

ويدل على ذلك ما رواه الطبرسي في المجمع حيث قال : قيل : قدم صدق شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال : وهو المروي عن ابي عبد الله عليه السلام .

وما رواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ قال : محمد ﷺ شفيع لهم يوم القيامة .

وفي تفسير العياشي عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التسبيح قال : هو اسم من أسماء الله ودعوى أهل الجنة .

أقول : ومراده بالتسبيح قولنا : سبحان الله ، ومعنى اسميته دلالته على تنزيهه تعالى .

وفي الاختصاص بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل مع يهودي وقد سأله عن مسائل :

قال صلى الله عليه وآله وسلم : إذا قال العبد : سبحان الله سبّح كل شيء معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها ، وإذا قال : الحمد لله أنعم الله عليه بنعيم الدنيا حتى يلقاه بنعيم الآخرة ، وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها ، والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله ، وذلك قوله : تحيتهم يوم يلقونه سلام .

أقول : وقوله : ﴿والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله﴾ أي جميع الكلام المستعمل في الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانية والكلام المستعمل في العبادات لغرض الثواب ونحو ذلك ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلك عن هذه المقاصد الدنيوية ، ولا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله والثناء عليه بالجميل وهو كلام أهل الجنة فيها .

وقوله : وذلك قوله : ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ معناه أن كون التحية يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناك إلا موافقة كل شيء وملاءمته لما يريده الإنسان فكل ما يريده فهو له فلا يستعمل هناك كلام لتحصيل غاية من الغايات على حد الكلام الدنيوي إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى فافهم ذلك .

* * *

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَآئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) .

(بيان)

لما ذكر سبحانه الأصلين من أصول الدعوة الحقة وهما التوحيد والمعاد واحتج عليهما من طريق العقل الفطري ثم أخبر عن عاقبة الإيمان والكفر بهما

بحث عن سبب إمهال الناس وعدم تعجيل نزول العذاب بساحتهم مع تماديهم في غيّهم وضلالتهم وعمههم في طغيانهم وما هو السبب الذي يوجب لهم ذلك فبين أن الأمر بين لا ستر عليه ، وقد بيّنه لهم رسل الله بالبينات لكن الشيطان زين لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا ونسوا بعد ما ذكروا ثم لم يعجّل الله لهم العذاب بل أمهلهم في الدنيا إلى حين ليبتليهم ويمتحنهم فإنما الدار دار ابتلاء وامتحان .

قوله تعالى : **﴿ولو يعجّل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾** الخ ، تعجيل الشيء الإتيان به بسرعة وعجلة ، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة ، والعمه شدة الحيرة .

ومعنى **الآية** : ولو يعجّل الله للناس الشر وهو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمة لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجّل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحيرون في طغيانهم أشد التحيّر .

وتوضيحه أن الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره ونفعه أي إنه يطلب من الأسباب أن تسرع في إنتاج ما يبتغيه ويريده فهو في الحقيقة يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنه السبب في ذلك بالحقيقة فهذه سنّة الإنسان وهي مبنية على الأهواء النفسانية فإن الأسباب الواقعة ليست في نظامها تابعة لهوى الإنسان بل العالم الإنساني هو التابع الجاري على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطراراً أحب ذلك أو كرهه .

ولو أن السنّة الإلهية في خلق الأشياء والإتيان بالمسببات عقيب أسبابها اتبعت أو شابهت هذه السنّة الإنسانية المبنية على الجهل فعجّلت المسببات والآثار عقيب أسبابها لأسرع الشر وهو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإن سببه قائم معه ، وهو الكفر بعدم رجاء لقاء الله والطغيان في الحياة الدنيا لكنه تعالى لا يعجّل الشر لهم كاستعجالهم بالخير لأن سنّته مبنية على الحكمة بخلاف سنّتهم المبنية على الجهالة فيذرهم في طغيانهم يعمهون .

وقد بان بذلك **أولاً** : أن في قوله **﴿لقضي إليهم أجلهم﴾** نوعاً من التضمين فقد ضمّن فيه **﴿قضى﴾** معنى مثل الإنزال أو الإبلاغ ولذا عدي بإلى .

والمعنى قضى منزلاً أو مبلغاً إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم أجلهم مقضياً وهو كناية عن نزول العذاب فالكلمة من الكناية المركبة .

وثانياً : أن في قوله : ﴿فنذر الذين﴾ التفاتاً من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، ولعل النكتة فيه الإشارة إلى توسيط الأسباب في ذلك فإن المذكور من أفعاله تعالى في الآية وما بعدها كتركهم في عمههم وكشف الضر والتزيين والإهلاك أمور يتوسل إليها بتوسيط الأسباب ، والعظماء إذا أرادوا أن يشيروا إلى دخل أعوانهم وخدمهم في بعض أمورهم أتوا بصيغة المتكلم مع الغير .

قوله تعالى : ﴿وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ إلى آخر الآية . الضر بالضم ما يمس الإنسان من الضرر في نفسه ، وقوله : ﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ أي دعانا منبطحاً لجنبه الخ ، والظاهر أن الترديد للتعميم أي دعانا على أي حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرّاً على دعائه لا ينسانا في حال ، ويمكن أن يكون ﴿لجنبه﴾ الخ ، أحوالاً ثلاثة من الإنسان لا من فاعل دعانا والعامل فيه ﴿مسّ﴾ والمعنى إذا مسّ الإنسان الضر وهو منبطح أو قاعد أو قائم دعانا في تلك الحال وهذا معنى ما ورد في بعض المرسلات : ﴿دعانا لجنبه﴾ العليل الذي لا يقدر أن يجلس ﴿أو قاعداً﴾ الذي لا يقدر أن يقوم ﴿أو قائماً﴾ الصحيح .

وقوله : ﴿مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه﴾ كناية عن النسيان والغفلة عما كان لا يكاد ينساه .

والمعنى : وإذا مسّ الإنسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره وأصرّ على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذي مسّه نسينا وترك ذكرنا وانجذبت نفسه إلى ما كان يتمتع به من أعماله ﴿كذلك زيّن للمسرفين﴾ المفرطين في التمتع بالزخارف الدنيوية أعمالهم فأورثهم نسيان جانب الربوبية والإعراض عن ذكر الله تعالى .

وفي الآية بيان السبب في تمادي منكري المعاد في غيهم وضلالتهم وخصوصية سببه وهو أن هؤلاء مثلهم كمثل الإنسان يمسه الضر فيذكر ربه ويلحّ عليه بالدعاء لكشف ضره حتى إذا كشف عنه الضر ـ ولذلك كان يدعوه ـ مرّ لوجهه متوغلاً في شهواته وقد نسي ما كان يدعوه ويذكره فلم يكن تركه لدعاء ربه بعد ذكره إلا معلولاً لما زيّن له من عمله فأورثه النسيان بعد الذكر .

فكذلك هؤلاء المسرفون زيّن لهم أعمالهم فجذبتهم إلى نفسها فنسوا ربهم بعد ذكره ، وقد ذكرهم الله مقامه بإرسال الرسل إلى من قبلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا وإهلاك القرون من قبلهم بظلمهم وهذه هي السنّة الإلهية يجزي القوم المجرمين .

ومن هنا يظهر أن الآية التالية : ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم﴾ الخ ، متمم للبيان في هذه الآية : ﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا﴾ إلى آخر الآية .

قوله تعالى : **﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم﴾** إلى آخر الآية ، قد ظهر معناه مما تقدم ، وفي الآية التفات في قوله : ﴿من قبلكم﴾ من الغيبة إلى الخطاب ، وكأن النكتة فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار والتخويف بالمشافهة أوقع أثراً وأبلغ من غيره .

ثم في قوله : **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾** التفات آخر بتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والنكتة فيه أنه إخبار عن السنّة الإلهية في أخذ المجرمين ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الأهل لفهمه والإذعان بصدقه دونهم ولو أذعنوا بصدقه لآمنوا به ولم يكفروا ، وهذا بخلاف قوله : ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم . . . وجاءتهم رسلهم﴾ فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به .

قوله تعالى : **﴿ثم جعلناكم خلائف من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾** معناه ظاهر ، وفيه بيان أن سنّة الامتحان والابتلاء عامة جارية .

* * *

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا آئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَآءَ ٱللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ

وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَآؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّؤُنَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَآأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) .

(بيــان)

احتجاجات يلقنها الله سبحانه نبيّه ﷺ ليردّ بها ما قالوه في كتاب الله أو في آلهتهم أو اقترحوه في نزول الآية .

قوله تعالى : **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾** هؤلاء المذكورون في الآية كانوا قوماً وثنيين يقدّسون الأصنام ويعبدونها ، ومن سننهم التوغل في المظالم والآثام واقتراف المعاصي ، والقرآن ينهى عن ذلك كله ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ورفض الشركاء ، وعبادة الله مع التنزه عن الظلم والفسق واتباع الشهوات .

ومن المعلوم أن كتاباً هذا شأنه إذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوة المخالفة فلو قالوا : ائت بقرآن غير هذا دلّ على أنهم يقترحون قرآناً لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوة إلى رفض الشركاء واتقاء الفحشاء والمنكر ، وإن قالوا : بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته إلى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول ، وذلك كالشاعر ينشد من شعره أو القاصّ يقصّ القصة فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون : ائت بغيره أو بدّله ، وفي ذلك تنزيل القرآن أنزل مراتب الكلام وهو لهو الحديث الذي إنما يلقى لتلهو به نفس سامعه وتنشط به عواطفه ثم لا يستطيبه السامع فيقول : ائت بغير هذا أو بدّله .

فبذلك يظهر أن قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن : ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ يريدون به قرآناً لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا ويؤتى بذاك ، وقولهم : ﴿أو بدّله﴾ أن يغيّر ما فيه من المعارف المخالفة لأهوائهم إلى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله .

فما قيل : إن الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه وتبديله لا يكون إلا برفعه ، غير سديد . فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبي ﷺ بهذا القرآن وغيره معاً قطعاً .

وكذا ما ذكره بعضهم أن قولهم : ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾ إنما

أرادوا به أن يمتحنوه بذلك فيغرّوه حتى إذا أجابهم إلى ذلك كان ذلك نقضاً منه لدعوى نفسه أنه كلام الله ؛ وذلك أنهم لما سمعوا ما بلّغهم النبي ﷺ من آيات القرآن وتلاه عليهم وتحدّاهم بالإتيان بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله ، وكانوا في ريب من كونه كلام الله ، وفي ريب من كونه من النبي ﷺ نفسه ولم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة والعلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم ومصاقع خطبائهم أرادوا أن يمتحنوه بهذا القول حتى إذا أتاهم بما سألوه كان ذلك ناقضاً لأصل دعواه أنه كلام الله . وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوة نفسية فيه كانت خفية عليهم كأسباب السحر لا بوحي . هذا .

وفيه مضافاً إلى مناقضة آخره أوله أنه مدفوع بما يلقنه الله سبحانه من الحجة فإن السؤال الذي لم يصدر إلا بداعي الامتحان والاختبار من غير داع جدّيّ لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدّيّ بحجة جدية وهو ظاهر .

وفي قوله : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والظاهر أن النكتة فيه أن يكون توطئة إلى إلقاء الأمر إلى النبي ﷺ بقوله : ﴿قل ما يكون لي أن أبدّله﴾ الخ ، فإن ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم وتوجيهه إليه ﷺ .

قوله تعالى : ﴿قل ما يكون لي أن أُبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ﴾ إلى آخر الآية ، التلقاء ، بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان والبيان ويستعمل ظرفاً .

والله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم : ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾ في أثناء كلامه بقوله ﴿بيّنات﴾ فإن الآيات إذا كانت بيّنات ظاهرة الاستناد إلى الله سبحانه كشفت كشفاً قطعياً عما يريده الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ﷺ من تفصيل دينه ؛ ردّ سؤالهم إليهم تفصيلاً بتلقين نبيّه ﷺ الحجة في ذلك بقوله : ﴿قل ما يكون لي﴾ إلى آخر الآيات الثلاث .

فقوله : ﴿قل ما يكون لي أن أُبدّله﴾ الخ ، جواب عن قولهم : ﴿أو بدّله﴾ ومعناه : قل لا أملك ـ وليس لي بحق ـ أن أبدّله من عند نفسي لأنه ليس بكلامي وإنما هو وحي إلهيّ أمرني ربي أن أتّبعه ولا أتّبع غيره ، وإنما لا أُخالف أمر ربي لأني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه .

فقوله : ﴿ما يكون لي أن أبدّله﴾ نفي الحق وسلب الخيرة ، وقوله : ﴿إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ﴾ في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : ﴿ما يكون لي﴾ وقوله : ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ الخ ، في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : ﴿إن أتّبع﴾ الخ ، بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهي .

وفي قوله : **﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** نوع محاذاة لما في صدر الكلام من قوله : ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن﴾ الخ فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد وعدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من ربه بقوله : ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فيؤول المعنى إلى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء الله لكنني لا أشك فيه فلا يمكنني إجابتكم إليه لأني أخاف عذاب يوم اللقاء ، وهو يوم عظيم .

وفي تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائدة الإنذار مضافاً إلى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسبة .

قوله تعالى : **﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾** أدراكم به أي أعلمكم الله به ، والعمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء ، وإذا استعمل في القسم كقولهم : لعمري ولعمرك تعين الفتح .

وهذه الآية تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم وهو قولهم : ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ ومعناها على ما يساعد عليه السياق : أن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي فإنما أنا رسول ولو شاء الله أن ينزّل قرآناً غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فإني مكثت فيكم عمراً من قبل نزول القرآن وعشت بينكم وعاشرتكم وعاشرتموني وخالطتكم وخالطتموني فوجدتموني لا خبر عندي من وحي القرآن ، ولو كان ذلك إليّ وبيدي لبادرت إليه قبل ذلك ، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه ، فليس إليّ من الأمر شيء ، وإنما الأمر في ذلك إلى مشيئة الله وقد تعلقت مشيئته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون ؟

قوله تعالى : **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾** استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم وأشد إجراماً من هذين الفريقين : المفتري على الله كذباً ، والمكذب بآياته فإن الظلم يعظم بعظمة من

يتعلق به وإذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم .

وظاهر سياق الاحتجاج في الآيتين أن هذه الآية من تمامها والمعنى : لا أُجيبكم إلى ما اقترحتم عليّ من الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله فإن ذلك ليس إليّ ولا لي حقّ فيه ، ولو أجبتكم إليه لكنت أظلم الناس وأشدهم إجراماً ولا يفلح المجرمون فإني لو بدّلت القرآن وغيّرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفترياً على الله كذباً ولا أظلم منه ، ولو تركت هذا القرآن وجئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذباً لآيات الله ، ولا أظلم منه .

وربما احتمل كون الاستفهام الإنكاري بشقّيه تعريضاً للمشركين أي أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء وهو افتراء الكذب على الله وبتكذيبكم بنبوّتي والآيات النازلة عليّ وهو تكذيب بآيات الله ولا يفلح المجرمون .

وذكر بعضهم أن الأول من شقي الترديد للنبي على تقدير إجابتهم والثاني للمشركين ، أي لا أحد أظلم عند الله من هذين الفريقين : المفترين على الله والمكذبين بآياته ، وأنا أنعى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الإجرام العظيم وأنا أُريد الإصلاح ؟

والذي ذكره من المعنى لا بأس به في نفسه لكن الشأن في استفادته من الآية ودلالة لفظها عليه ، وكذا الوجه السابق عليه بالنظر إلى السياق .

قوله تعالى : **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾** إلى آخر الآية ، الكلام : موجه نحو عبدة الأصنام من المشركين وإن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعة معناه ، وذلك لمكان ﴿ما﴾ وكون السورة مكيّة من أوائل ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن .

وقد كانت عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى رب الأرباب وهو الله سبحانه ، ويقولون : إننا على ما بنا من ألواث البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا إلى رب الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بيننا وبينه .

فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحب خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوَّض الله إليهم أمر تدبير خلقه ، ونتقرب إليهم بأصنامهم وتماثيلهم وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة

للأصنام حقيقة ، والشفاعة لأربابها وربما نسبت إليها .

وقد وضع في الكلام قوله : ﴿ما لا يضرّهم ولا ينفعهم﴾ موضع الأصنام للتلويح إلى موضع خطئهم في مزعمتهم ، وهو أن هذا السعي إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّة نافعة في الأمور وكانت ذوات شعور بالعبادة والتقرب حتى ترضى عن عبّادها بعبادتهم لها فتشفع أو يشفع أربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضي شفاعتهم وهؤلاء أجسام ميتة لا تشعر بشيء ولا تضرّ ولا تنفع شيئاً .

وقد أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة ـ مضافاً إلى ما يلوّح إليه قوله : ﴿لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ ـ بقوله : ﴿قل أتنبّؤون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ ومحصّله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء في شيء من السماوات والأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم ، وهو من أقبح الافتراء وأشنع المكابرة ، وكيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله وهو يعلم ما في السماوات والأرض ؟

فالاستفهام إنكاري ، ونفي العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها ، ولعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوَّم بالعلم لذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق إذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم .

وقوله : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ كلمة تنزيه ، وهي من كلام الله وليست مقولة قول النبي ﷺ فإن ظرف المشركين بالنسبة إليه هو الخطاب دون الغيبة فلو كان من كلام النبي ﷺ لقيل : عما تشركون بالخطاب .

قوله تعالى : ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ قد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾[1] أن الآية تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس .

أحدهما : الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع إلى الدعاوي

(١) البقرة : ٢١٣ .

وينقسم به الناس إلى مدّع ومدّعى عليه وظالم ومظلوم ومتعدّ ومتعدّى عليه وآخذ بحقه وضائع حقه ، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويعلّمهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير .

وثانيهما : الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقة من الأصول والفروع ، وقد صرّح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغياً بينهم ، وليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول ، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ، وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لولا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ولكن يؤخرهم إلى أجل ، قال تعالى : ﴿وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات .

وسياق الآية السابقة أعني قوله تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الخ ، لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثاني وهو الاختلاف في نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرّهم ولا ينفعهم واتخاذهم شفعاء عند الله ، ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحّد ومشرك .

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضي أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل وفيه هلاك المبطلين وإنجاء المحقين لكن السابق من الكلمة الإلهية منعت من القضاء بينهم ، والكلمة هي قوله تعالى لما أهبط الإنسان إلى الدنيا : ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾[٢] .

وللمفسرين في الآية أقوال عجيبة منها : أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حق وهو دين إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لُحَيّ الذي روّج بينهم الوثنية فانقسموا إلى حنفاء مسلمين ، وعبدة أصنام مشركين ، وأنت خبير

---

(١) الشورى : ١٤ .　　(٢) البقرة : ٣٦ .

أنه لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة .

ومنها : أن المراد بالناس جميعهم ، والمراد من كونهم أمة واحدة كونهم على فطرة الإسلام وإن كانوا مختلفين دائماً ، فلفظة ﴿كان﴾ منسلخ الزمان ، والآية تحكي عمّا عليه الناس بحسب الطبع وهو التوحيد ، وما هم عليه بحسب الفعلية وهو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطري إلا أمة واحدة موحدين لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم .

وفيه أنه خلاف ظاهر الآية والآية التي في سورة البقرة ، وكذا ظاهر سائر الآيات كقوله : ﴿وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾[1] وقوله : ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾[2]

على أن القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه إلى الفطرة مما لا يجتمعان .

ومنها : أن المراد أن الناس جميعاً كانوا على ملّة واحدة هي الكفر والشرك ثم اختلفوا فكان مسلم وكافر .

وهذا أسخف الأقوال في الآية فإنه مضافاً إلى كونه قولاً بغير دليل يأباه ظاهر الآيات فإن ظاهرها أنّ ظهور الاختلاف لانتهائه إلى بغي الناس من بعد ما جاءهم العلم أي ظهور الكفر والشرك عن بغي كان هو المقتضي للحكم بينهم والقضاء عليهم بنزول العذاب والهلاك فإذا كانوا جميعاً على الكفر والشرك من غير سابقة هدى وإيمان فما معنى استناد الاقتضاء إلى البغي عن علم ؟ وما معنى خلق الجميع ووجود المقتضي لإهلاكهم جميعاً إلا انتقاض الغرض الإلهي ؟

وهذا القول أشبه بما قالته النصارى في مسألة التفدية أن الله خلق الإنسان ليطعمه فيسكنه الجنة دائماً لكنه عصاه ونقض بذلك غرض الخلقة فتداركه الله بتفدية المسيح .

ومنها : قول بعضهم : إن المراد بالكلمة في قوله : ﴿ولولا كلمة سبقت من ربّك﴾ الخ قوله تعالى فهذه السورة : ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[3] .

---

(١) الشورى : ١٤ . (٢) آل عمران : ١٩ . (٣) يونس : ٩٣ .

وفيه : أن المراد بالسبق إن كان هو السبق بحسب البيان فالآية متأخرة عن هذه الآية لوقوعها في أواخر السورة ، والآيات متصلة جارية . على أن الآية في بني إسرائيل خاصة والضمير في قوله : ﴿بينهم﴾ راجع إليهم وهي قوله : ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾(١) .

على أن قوله في بعض الآيات : ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾(٢) لا يلائم هذا المعنى من السبق .

وإن كان المراد بالسبق السبق بحسب القضاء فينبغي أن يتبع في ذلك أول كلمة قالها الله تعالى في ضلال الناس وشركهم ومعصيتهم ، وليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الإنسان الأرض وهو ما قدمناه من الآية .

قوله تعالى : **﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** الآية كقوله قبلها : ﴿ويعبدون من دون الله﴾ وقوله قبله : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ تعد أموراً من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ﷺ ليقيمها عليهم كما مرّ في أول الآيات فقوله : ﴿ويقولون لولا أنزل﴾ الخ ، عطف على قوله في أول الآيات : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ .

وفيها مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم : ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وإن كان طلب آية أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء وتحقيراً لأمر القرآن واستخفافاً به لعدم عدّه آية إلهية والدليل عليه قوله تعالى : ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ ولم يقل : ﴿قل﴾ كما قال في سائر الآيات كأنه يقول : ويطلبون منك آية أخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل : إنما الآيات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا إني معكم من المنتظرين .

فهذا هو المستفاد من الآية وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان ينتظر آية فاصلة بين الحق والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين امته ، وسيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآية ـ التي يأمر بانتظارها ههنا ـ في قوله : ﴿وإما نرينك بعض

---

(١) يونس : ٩٣ .
(٢) الشورى : ١٤ .

الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾[1] إلى تمام عدة آيات .

قوله تعالى : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مسّتهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾ إلى آخر الآية . مضمون الآية وإن كان من المعاني العامة الجارية في أغلب الناس في أكثر الأوقات فإن الفرد من الإنسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقه ذلك لكن الآية من جهة السياق المتقدم كأنها مسوقة للتعريض للمشركين ومكرهم في آيات الله ، والدليل عليه قوله : ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فقد كان النظر معطوفاً على مكر طائفة خاصة وهم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء والضراء بعد ظهورها ، ومن مكرهم مكرهم في القرآن الذي هو آية إلهية ورحمة أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهالة العالقة بهم وشمول ضنك العيش والذلّة والتفرقة وتباعد القلوب وبغضائها لهم وهم يمكرون به فتارة يقولون : ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ وتارة يقولون : ﴿لولا أُنزل عليه آية من ربه﴾ .

فالآية تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه في آيات الله ، وتبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئاً فإن الله أسرع مكراً يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم .

فمعنى الآية : ﴿وإذا أذقنا الناس﴾ عبر عن الإصابة بالإذاقة للإيماء إلى التذاذهم بالرحمة وعناية بالقلة فإن الذوق يستعمل في القليل من التغذي ﴿رحمة من بعد ضراء مسّتهم﴾ والتعبير بالرحمة في موضع السراء للإشارة إلى أنها من الرحمة الإلهية من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه ، ويخضعوا لما تدعو إليه الآية وهو توحيد ربهم وشكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم قد مسّ آباءنا السراء والضراء ، والاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم : ﴿لولا أُنزل عليه آية﴾ وقولهم : ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ .

فأمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيبهم بقوله : ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ ثم علله بقوله : ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم إليكم

---

(١) يونس : ٤٦ .

يكتبون أعمالكم ويحفظونها ، وبمجرد ما عملتم عملاً حفظ عليكم وتعيّن جزاؤه لكم قبل أن يؤثر مكركم أثره أو لا يؤثر كما فسروه .

وهنا شيء وهو أن الظاهر من قوله تعالى : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[١] على ما سيجيء من البيان في تفسير الآية إن شاء الله تعالى أن معنى كتابة الملائكة أعمال العباد هو إخراجهم الأعمال من كمون الاستعدادات إلى مرحلة الفعلية الخارجية ورسم نفس الأعمال في صحيفة الكون وبذلك تنجلي عليّة كتابة الرسل لأعمالهم لكونه تعالى أسرع مكر إتمام الانجلاء فإن حقيقة المعنى على هذا : أنّا نحن نخرج أعمالكم التي تمكرون بها من داخل ذواتكم ونضعها في الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك ؟ وهل المكر إلا صرف الغير عمّا يتصده بحيلة وستر عليه بل ذاك الذي تزعمونه مكراً بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكراً وتقدمون على المكر بنا ، وهذه المزعمة والإقدام ضلال منكم وإضلال منا لكم جزاء بما كسبته أيديكم ، وسيأتي نظير هذا المعنى في قوله : ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾[٢] الآية .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ على قراءة تمكرون بتاء الخطاب وهي القراءة المشهورة ، وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن ولعل النكتة فيه تمثيل معنى قوله : ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ في العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿قل الله اسرع مكراً﴾ أراد أن يوضحه لهم عياناً ففاجأهم بتجليه لهم دفعة فكلّمهم وأوضح لهم السبب في كونه أسرع مكراً ثم حجبهم عن نفسه فعادوا إلى غيبتهم وعاد الكلام إلى حاله ، وخوطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببقية الخطاب : ﴿هو الذي يسيّركم﴾ الخ ، وهذا من لطيف الالتفات .

قوله تعالى : ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ إلى آخر الآية ، الفلك السفينة وتستعمل مفرداً وجمعاً ، والمراد بها ههنا الجمع بدليل قوله : ﴿وجرين بهم﴾ والريح العاصف : الشديدة الهبوب ، وقوله : ﴿أحيط بهم﴾ كناية عن الإشراف على الهلاك ، وتقديره أحاط

---

(١) الجاثية : ٢٩ .　　(٢) يونس : ٢٣ .

بهم البلاء أو الأمواج ، والإشارة بقوله : ﴿من هذه﴾ إلى الشدة . ومعنى الآية ظاهر .

وفيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ إلى قوله ﴿بغير الحق﴾ ولعل النكتة فيه إرجاعهم إلى الغيبة وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ ووصف أعجب جزء من هذه القصة الموصوفة له ليسمعه ويتعجب منه ، ويكون فيه مع ذلك إعراض عن الأمر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول .

قوله تعالى : **﴿فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾** أصل البغي هو الطلب ويكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلباً لحق الغير بالتعدي عليه ويقيَّد حينئذ بغير الحق ، ولو كان بمعنى الظلم محضاً لكان القيد زائداً .

والجملة من تتمة الآية السابقة ، والمجموع أعني قوله : ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر﴾ إلى قوله ﴿بغير الحق﴾ بمنزلة الشاهد والمثال بالنسبة إلى عموم قوله قبله : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مسّتهم﴾ إلى آخر الآية ، أو لخصوص قوله : ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ وعلى أي حال فقوله : ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ الخ ، مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام في الآية السابقة وإن لم يكن من كلام النبي ﷺ فافهم ذلك .

قوله تعالى : **﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم﴾** إلى آخر الآية ، في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب فقوله : ﴿يا أيها الناس﴾ الخ ، خطاب منه تعالى للناس بلا واسطة ، وليس من كلام النبي عليه السلام مما أمره الله سبحانه أن يخاطب به الناس .

والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ إلى آخر الآية ، فإنه لا يصلح أن يكون من خطاب النبي ﷺ .

والنكتة في هذا الالتفات هي نظير النكتة التي قدّمنا ذكرها في قوله تعالى في أول الكلام : ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النبي ﷺ وهم يحسبون أن ربهم غائب عنهم غافل عن نيّاتهم ومقاصدهم في أعمالهم فيشرف عليهم ويمثل بذلك كونه معهم في جميع أحوالهم وإحاطته بهم ويقول لهم : أنا أقرب إليكم وإلى أعمالكم

منكم فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبتغوا علينا وتمكروا بنا إنما توجد بتقديرنا وتجري بأيدينا فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا ؟ بل هي بغي منكم على أنفسكم فإنها تبعدكم منا وتكتب آثامها في صحائف أعمالكم فبغيكم على أنفسكم وهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به أياماً قلائل ثم إلينا مرجعكم فنخبركم ونوضح لكم هناك حقائق أعمالكم .

وقوله : ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ بالنصب في قراءة حفص عن عاصم والتقدير : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، وبالرفع في قراءة غيره وهو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو أي بغيكم وعملكم متاع الحياة الدنيا .

وعلى كلتا القراءتين فقوله : ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية ، تفصيل لإجمال قوله : ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ فقوله ﴿متاع﴾ الخ ، في مقام التعليل بالنسبة إلى كون بغيهم على أنفسهم من قبيل تعليل الإجمال بالتفصيل وبيانه به .

قوله تعالى : **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾** إلى آخر الآية ، لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة متاع الحياة الدنيا مثّل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقة أمره ما يعتبر به المعتبرون ، وهو من الاستعادة التمثيلية وليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شيء وإن أوهم ذلك قوله : ﴿كماء أنزلناه﴾ ابتداء ، ونظائره شائعة في أمثال القرآن ، والزخرف الزينة والبهجة ، وقوله : ﴿لم تغن﴾ من غني في المكان إذا أقام فيه فأطال المقام ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** الدعاء والدعوة عطف نظر المدعو إلى ما يدعى إليه وجلب توجهه وهو أعم من النداء فإن النداء يختص بباب اللفظ والصوت ، والدعاء يكون باللفظ والإشارة وغيرهما ، والنداء إنما يكون بالجهر ولا يقيّد به الدعاء .

والدعاء في الله سبحانه تكويني وهو إيجاد ما يريده لشيء كأنه يدعوه إلى ما يريده ، قال تعالى : ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾[1] أي يدعوكم إلى الحياة الأخروية فتستجيبون إلى قبولها ، وتشريعي وهو تكليف الناس بما يريده

(١) الإسراء : ٥٢ .

من دين بلسان آياتـه ، والدعـاء من العبد لـربه عـطف رحمته وعنـايته إلى نفسـه بنصب نفسه في مقام العبودية والمملوكية ، ولذا كـانت العبادة في الحقيقـة دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكيـة والاتصال بمـولاه بالتبعيـة والذلـة ليعطفه بمولويته وربوبيته إلى نفسه وهو الدعاء .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعـوني استجب لكم إن الذين يستكبـرون عن عبادتي سيـدخلون جهنم داخرين﴾[1] حيث عبّـر أولاً بالـدعاء ثم بدّله ثانياً العبادة .

وقـد التبس الأمـر على صـاحب المنـار فقـال تفسيـره : إن قـول بعض المفسرين وغيرهم : إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغـة ولا شرعـاً وإنما الـدعاء هـو مخ العبـادة الفطريـة وأعظم أركـان التكليفية منهـا كما ورد في الحـديث فكـل دعـاء شـرعي عبادة ومـا كل عبـادة شرعيـة دعاء . انتهى . ومنشأ خطئه زعمـه أن معنى الدعاء هو النداء للطلب وغفلته عمّا تقدَّم من تحليل معناه .

والأصل في معنى السلام على مـا ذكره الـراغب في المفردات هـو التعري عن الآفات الظاهرة والباطنـة ، وإليه يـرجع معنـاه في جميع مشتقـاته ، والسـلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة ، والظاهر أن السلام والأمن متقـاربان معنى ، وإنما الفارق أن السلام هو الأمن مأخوذاً في نفسه ، والأمن هو السلام مضافاً إلى ما يسلم منه يقال : هو في سلام ، وهو في أمن من كذا وكذا .

والسـلام من أسمائه تعالى لأن ذاته المتعالية نفس الخير الذي لا شر فيـه ، وتسمى الجنة دار السلام حيث لا شـر فيها ولا ضـر على ساكنهـا ، وقيل : إنمـا سمّيت دار السلام لأنها دار الله الذي هو السلام ، والمآل واحد في الحقيقة لأنـه تعالى إنما سمّي سلاماً لبراءته من كل شر وسوء ، وفي سياق الآية ما يشعر بكون معنى السلام الوصفي مقصوداً في الكلام .

وقـد أطلق سبحانـه السلام ولم يقيّـده بشيء ولا ورد في كلامـه مـا يقيـده ببعض الحيثيـات فهو دار السـلام على الإطلاق وليست إلا الجنة فإن مـا يوجـد عندنا في الدنيا من السلام إنما هـو الإضافي دون المـطلق فما من شيء إلا وهـو

---

(١) غافر : ٦٠ .

مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه ويهواه ، وما من حال إلا وفيه مقارنات من الأضداد والأنداد .

فإذا أخذت معنى السلام مطلقاً غير نسبي تحصّل عندك ما عليه الجنة من الوصف ، وانكشف أن توصيفها بهذه الصفة نظير توصيفها في قوله : ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾(١) ، فإن سلامة الإنسان من كل ما يكرهه ولا يحبه تلازم سلطانه على كل ما يشاؤه ويحبه .

وفي تقييد دار السلام بكونها عند ربهم دلالة على قرب الحضور وعدم غفلتهم عنه سبحانه هناك أصلاً ، وقد تقدم الكلام في معنى الهداية ومعنى الصراط المستقيم في مواضع من الأبحاث السابقة كتفسير سورة الحمد وغيره .

(بحث روائي)

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا﴾ الآية ، قال : فإن قريشاً قالت : يا رسول الله ائتنا بقرآن غير هذا فإن هذا شيء تعلّمته من اليهود والنصارى ، قال الله : قل لهم : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم أربعين سنة قبل أن يوحى إليَّ ، ولم أتكلم بشيء منه حتى أوحي إليَّ .

أقول : وفي انطباق مضمونه على الآية خفاء ، على ما فيه من مخاطبتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول : والرواية لا تخلو عن شيء .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : فرَّ عكرمة ابن أبي جهل يوم الفتح فركب البحر فأخذته الريح فنادى باللّات والعزى ، فقال أصحاب السفينة : لا يجوز ههنا أحد يدعو شيئاً إلا الله وحده مخلصاً ، فقال

---

(١) ق : ٣٥ .

عكرمة : والله لئن كان في البحر وحده إنه لفي البر وحده ، فأسلم .

أقول : والرواية مروية بطرق كثيرة مختلفة .

وفي تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام ثلاث يرجعن على صاحبهن : النكث والبغي والمكر ، قال الله : يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم .

أقول : وهو مرويّ عن أنس عن النبي ﷺ قال : ثلاث هن رواجع على أهلها : النكث والمكر والبغي . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ . أورده في الدر المنثور .

وفي الدر المنثور أخرج ابو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي قال : ما من عبادة أفضل من أن تسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً البرّ ، وأسرع الشر عقوبة البغي وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن العلاء بن عبد الكريم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل : ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ فقال : إن السلام هو الله عز وجل وداره التي خلقها لأوليائه الجنة .

وفيه عن ابن شهر آشوب عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ يعني به الجنة ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ يعني ولاية علي بن أبي طالب .

أقول : إن كانت الرواية موقوفة فهي من الجري أو من الباطن من معنى القرآن ، وفي معناها روايات أخر .

* * *

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا

ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِماً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللهِ مَوْلٰيهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) .

(بيـــان)

استئناف يعود فيه إلى ذكر جزاء الأعمال وعود الجميع إلى الله الحق ، وقد تقدم إيماء إلى ذلك ، وفيه إثبات توحيد الربوبية .

قوله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ الخ ، الحسنى مؤنث أحسن والمراد المثوبة الحسنى ، والمراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلاً من الجزاء والثواب ثم جعله حقاً للعامل في مثل قوله : ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ (١) ثم ضاعفه وجعل المضاعف منه أيضاً حقاً للعامل كما في قوله : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (٢) وعند ذلك كان مفاد قوله : ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ استحقاقهم للجزاء والمثوبة الحسنى ، وتكون الزيادة هي الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشرة الأمثال نظير ما يفيده قوله : ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٩٩ . (٢) الأنعام : ١٦٠ . (٣) النساء : ١٧٣ .

ولو كان المراد بالحسنى في قوله : ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ العاقبة الحسنى ، وليس فيما يعقل فوق الحسنى شيء كان معنى قوله : ﴿وزيادة﴾ الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهي كما يشير إليه قوله : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾[1] وما في قوله : ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾[2] فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك .

والرهق بفتحتين اللحوق والغشيان يقال : رهقه الدَّين أي لحق به وغشيه ، والقتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود ، وفي توصيفهم بقوله : ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة﴾ محاذاة لما في الآية التالية من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر وهو سواد صوري والذلة وهي سواد معنوي .

والمعنى : للذين أحسنوا في الدنيا المثوبة الحسنى وزيادة من فضل الله ـ أو العاقبة الحسنى وزيادة لا تخطر ببالهم ـ ولا يغشى وجوههم سواد من قتر ولا ذلة ، و﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ .

قوله تعالى : ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة﴾ إلى آخر الآية ، جملة ﴿جزاء سيّئة بمثلها﴾ مبتدأ لخبر محذوف والتقدير : لهم جزاء سيئة بمثلها من العذاب ، والجملة خبر للمبتدأ الذي هو قوله : ﴿الذين كسبوا السيئات﴾ والمراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئة فجزاء فعلة سيئة عقوبة سيئة .

وقوله : ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي ما لهم عاصم يعصمهم من الله أي من عذابه وفيه نفي لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفي كل عاصم مانع سواء كان شريكاً شفيعاً أو ضداً قوياً ممانعاً أو أي عاصم غيرهما .

وقوله : ﴿كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ القطع جمع قطعة ومظلماً حال من الليل ، والمراد كأن الليل المظلم قسّم إلى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودّت بالتمام ، والمتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعة من تلك القطع لا كما فسّره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات بعضها فوق بعض . فليس

---

(١) السجدة : ١٧ . (٢) ق : ٣٥ .

في الكلام ما يدل على ذلك .

وقوله : ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يدل على دوام بقائهم في النار للدلالة الصحابة والخلود عليه كما أن نظيره في أصحاب الجنة يدل على نظيره .

قوله تعالى : ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ إلى آخر الآية . المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين والمشركين وشركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين وشركاءهم في هذه الآية وما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله في الآية التالية : ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ .

وقوله : ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي الزموا مكانكم أنتم وليلزم شركاؤكم مكانهم وتفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم ، وقطعنا الرابطة التي كانت تربطهم بشركائهم وهي رابطة الوهم والحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم وانقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم ولم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء وهم ليسوا بشركاء .

والدليل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى بعده : ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون﴾ فالكلام على ظاهره من النفي الجدي الصادق لعبادتهم إيّاهم ، وليسوا يكذبون في كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهادة الله سبحانه ، ولا أنهم يريدون أنّا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإن الكلام لا يلائم هذا المعنى ، ولا أن مرادهم التعريض لهم بأنكم كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم المغوين لكم في الحقيقة فإن ذلك لا يلائم دعواهم الغفلة ، وكذا لا يلائمه قوله بعده : ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ الخ ، على ما سيجيء من معناه بل مرادهم نفي العبادة حقيقة بنفي حقيقة الشركة ، والاستشهاد على ذلك بشهادة الله وعلمه بغفلتهم عن عبادتهم .

والعبادة التي هي اتصال ما بالمملوكية والتذلل من العابد بالمعبود إنما تكون عبادة إذا اتصلت وارتبطت بالمعبود ـ حتى يتم به معنى اللام في قولنا : العبادة له ـ ولا يكون ذلك إلا بشعور من المعبود وعلم منه بذلك فإذا لم يتحقق هناك علم لم تتحقق عبادة حقيقة ، وإنما هي صورة عبادة .

فقد تبين أن المراد بقوله : ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ ﴿فزيلنا بينهم﴾ إظهاره وإبرازه تعالى يومئذ حقيقة الأمر الذي سترت عليه الأوهام وحجبته الأهواء في الدنيا وهو أن حقيقة المولوية ومالكية زمام التدبير لله سبحانه وليس لغيره من المولوية والربوبية شيء حتى يصح الالتجاء إليه وتصدق عبادته .

فإذا كشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقيقة يومئذ بأن للمشركين أن شركاءهم لم يكونوا شركاء ولا معبودين لهم في الحقيقة ـ لغفلتهم عن عبادتهم ، وإنما كانوا يأتون لهم بصورة العبادة التي كان الوهم والهوى يصورانها عبادة وليست بها .

وإليه يشير أيضاً قوله تعالى : ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾[1] .

وقد تبين بذلك أيضاً أن قوله : ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ قول من شركائهم لهم على الجد والحقيقة ، ويظهر به فساد قول بعضهم : المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا لا أنكم لم تعبدونا أصلاً لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع في الآخرة لكونهم ملجئين فيها إلى ترك القبيح .

فإن نفي أصل العبادة بما عرفت من معناه هو حق الصدق ، وإثبات العبادة وإن لم يكن كذباً إلا أنه لا يخلو عن مجاز في الجملة بالنظر إلى حقيقة الأمر على أن ما ذكره أن المراد نفي العبادة بأمرهم ودعوتهم معنى لا دليل عليه من جهة اللفظ .

على أن الكذب إنما لا يقع في الآخرة إذا كان عملاً وكسباً وأما بمعنى نتيجة الملكات الدنيوية فلا مانع من إمكانه بل هو واقع كما يحكيه تعالى في قوله : ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾[2] وغيره من الآيات .

وكذا قول بعضهم : إن المراد ما كنتم تخصوننا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم ـ فإن صدق عبادة الأهواء والشيطان على عملهم من جهة أنه اتباع للهوى والشيطان لا ينفي عنه صدق كونه

---

(١) النحل : ٨٦ .
(٢) الأنعام : ٢٤ .

عبادة للأصنام كما أنه تعالى يصدق في كلامه الجهات الثلاث جميعاً ، قال تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾[١] ، وقال : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[٢] ، وقال : ﴿أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾[٣] .

ومن المعلوم أن الشركاء يحتجون لنفي كونهم معبودين لهم لا لإثبات كون الهوى والشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا ينفعهم في الحجة البتة ، ويستلزم لغوية إثباتهم الغفلة لأنفسهم في قولهم : ﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ لأن الأهواء أيضاً ما كانت شاعرة بعبادتهم كما أن الأصنام وهي أجسام ميتة كذلك .

ولعل القائل اعتمد في قوله على الحصر المفهوم من قوله : ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ بتقديم المفعول على فعله ، وظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفي المعبودية عن أنفسهم وإثباته لغيرهم ، وليس نفياً لأصل العبادة فإنهم يثبتونها في قولهم : ﴿عن عبادتكم﴾ فإن إضافة المصدر إلى معموله يفيد الثبوت .

لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم : ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ تجاه ما قاله المشركون على ما حكاه الله : ﴿ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾[٤] فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه وأثبتوها للشركاء ، والشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفي عبادة المشركين عن أنفسهم ، وأما أنها ثابتة لمن ؟ فلا غرض لهم يتعلق بذلك وإنما همهم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشركة ، وقد احتجوا على ذلك بإثبات الغفلة عن ذلك لأنفسهم ، ولو كانوا شاعرين بعبادتهم وعبدوهم كان لزمهم أعني الشركاء دعوى الشركة .

قوله تعالى : ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ إلى آخر الآية ، ظهر معناه بما مرَّ من التقرير ، والفاء في قوله : ﴿فكفى بالله﴾ يفيد التعليل كقولنا : اعبد الله فهو ربك ، وهو شائع في الكلام .

قوله تعالى : ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ إلى آخر الآية ، البلاء الاختبار ، والاشارة بقوله : ﴿هنالك﴾ الى الموقف الذي ذكره بقوله : ﴿ثم نقول

---

(١) يونس : ١٨ .
(٢) الجاثية : ٢٣ .
(٣) يس : ٦٠ .
(٤) النحل : ٨٦ .

للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم﴾ .

فذلك الموقف موقف تختبر وتمتحن كل نفس ما أسلفت وقدّمت من الأعمال فتنكشف لها حقيقة أعمالها وتشاهدها مشاهدة عيان لا مجرد الذكر أو البيان ، وبمشاهدة الحق من كل شيء عياناً ينكشف أن المولى الحقّ هو الله سبحانه ، وتسقط وتنهدم جميع الأوهام ، وتضل جميع الدعاوي التي يفتريها الإنسان بأوهامه وأهوائه على الحقّ .

فهذه الافتراءات والدعاوي جميعاً إنما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب والمسببات والاستقلال والمولوية التي نعطيها الأسباب ولا إله إلا الله ولا مولى حقاً إلا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقة الأمر ، وانكشف غيم الوهم وانهتك حجاب الدعاوي ظهر أن لا مولى حقاً إلا هو سبحانه ، وبطل جميع الآلهة التي إنما أثبتها الافتراء من الإنسان ، وسقطت وحبطت جميع الأعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عبادة حقّ .

فالفقرات الثلاث من الآية أعني قوله : ﴿تبلو كل نفس﴾ الخ ، وقوله : ﴿ردّوا إلى الله﴾ الخ ، وقوله : ﴿وضلّ عنهم﴾ الخ ، كل منها تعين الأخريين على إفادة حقيقة معناها ، ومحصّل مفاد المجموع ظهور حقيقة الولاية الإلهية يومئذ ظهور عيان وأن ليس لغيره تعالى إلا الفقر والمملوكية المحضة فيبطل عند ذلك كل دعوى باطلة وينهدم بنيان الأوهام .

كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾[1] ، وقوله : ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[2] ، وقوله : ﴿والأمر يومئذ لله﴾[3] ، إلى غير ذلك .

(بحث روائي)

في أمالي المفيد بإسناده إلى أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتب إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر وأمره أن يقرأه على الناس ، وفيما كتب : قال الله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ والحسنى هي الجنة والزيادة هي الدنيا .

---

(١) الكهف : ٤٤ .   (٢) غافر : ١٦ .   (٣) الانفطار : ١٩ .

وفي تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : فأما الحسنى فهي الجنة ، وأما الزيادة فالدنيا ما أعطاهم الله في الدنيا يحاسبهم الله في الآخرة ، ويجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة . الحديث .

أقول : والروايتان ناظرتان إلى المعنى الأول الذي قدمناه في البيان المتقدم وروى ما في معنى الثاني الطبرسي في المجمع عن الباقر عليه السلام .

وفي تفسير البرهان روى في نهج البيان عن علي بن إبراهيم قال : قال : الزيادة هبة الله عزّ وجل .

وفي الدر المنثور أخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب في الآية قال : قال رسول الله ﷺ : الزيادة النظر إلى وجه الله .

أقول : وروي هذا المعنى بعدة طرق من طرق أهل السنّة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تقدم توضيح معناها في تفسير قوله تعالى : ﴿ربّ أرني أنظر إليك﴾[1] في الجزء الثامن من الكتاب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ قال : أما ترى البيت إذا كان الليل كان أشد سواداً من خارج فكذلك وجوههم يزدادون سواداً .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام وكأنه عليه السلام يريد تفسير القطع من الليل الواقعة في الآية .

وفي الدرّ المنثور أخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله : ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ قال : نسختها قوله : ﴿مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ .

أقول : وهو من أسخف القول بل الآيتان ناظرتان إلى جهتين مختلفتين من المعنى وهما الظاهر والباطن .

* * *

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُم مَنْ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

(بيـــان)

حجج ساطعة على توحيده تعالى في الربوبية يأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بإقامتها على المشركين ، وهي ثلاث حجج مرتبة بحسب الدقة والمتانة فالحجة الأولى تسلك من الطريق الذي يعتبره الوثنيون وعبدة الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهة تدبيرهم للكون فيعبدون كلًا منهم لأجل ما يخص به من الشأن ، وما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمّن يعبده فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا يرسل إليه سخطه وعقابه كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر ، وأهل الجبال وأهل البر وأهل العلوم والصنائع وأهل الحروب والغارات وغيرهم كل يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذي يهمه ليرضى عنه ربه فيبارك عليه برضاه أو يكف عنه غضبه .

ومحصّل الحجة أن تدبير العالم الإنساني وسائر الموجودات جميعاً يقوم به الله سبحانه لا غير على ما يعترفون به فمن الواجب أن يوحدوه بالربوبية ولا يعبدوا إلا إياه .

والحجة الثانية ما يعتبره عامة المؤمنين ، وذلك أنهم لا يلتفتون كثيراً إلى زخارف هذه النشأة من لذائذ المادة ، وإنما جل اعتنائهم بالحياة الدائمة الأخروية التي تتعين سعادتها وشقاوتها بالجزاء الإلهي بأعمالهم فإذا قامت البيّنة العقلية على الإعادة كالبدء كان من الواجب أن لا يعبد إلا الله سبحانه ، ولا يتخذ أرباب من دونه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه .

والحجة الثالثة وهي التي تحن إليها قلوب الخاصة من المؤمنين وهي أن المتبع عند العقل هو الحق ، ولما كان الحق سبحانه هو الهادي إلى الحق دون ما يدعونه من الأرباب من دون الله فليكن هو المتبع دون ما يدعونه من الأرباب ، وسيأتي في تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلي به مزيد انجلاء إن شاء الله .

ولولا اعتبار هذه النكتة كان الظاهر أن تذكر أولاً الحجة الثانية ثم الثالثة ثم الأولى أو تذكر الثانية ثم يجمع بين الأولى والثالثة فيذكر بعدها .

قوله تعالى : **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار﴾** إلى آخر الآية . الرزق هو العطاء الجاري ، ورزقه تعالى للعالم الإنساني من السماء هو نزول الأمطار والثلوج ونحوه ، ومن الأرض هو بإنباتها نباتها وتربيتها الحيوان ومنهما يرتزق الإنسان ، وببركة هذه النعم الإلهية يبقى النوع الإنساني والمراد بملك السمع والأبصار كونه تعالى متصرفاً في الحواس الإنسانية التي بها ينتظم له أنواع التمتع من الأرزاق المختلفة التي أذن الله تعالى أن يتمتع بها فإنما هو يشخص ويميّز ما يريده مما لا يريده بأعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشم فيتحرك نحو ما يريده ، ويتوقف أو يفر مما يكرهه بها .

فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الإلهي ، وإنما خص السمع والبصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيوية أكثر من غيرهما ، والله سبحانه هو الذي يملكهما ويتصرف فيهما بالإعطاء والمنع والزيادة والنقيصة .

وقوله : **﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾** الحياة بحسب النظر البادىء في الإنسان هي المبدأ الذي يظهر به العلم والقدرة في الشيء فيصدر أعماله عن العلم والقدرة ما دامت الحياة ، وإذا بطلت بطل الصدور كذلك .

ثم اكتشف من طريق النظر العلمي أن ذلك لا يختص بأقسام الحيوان كما كان يعطيه النظر الابتدائي فإن الملاك الذي كان يوجب للحيوان كونه ذا حياة ـ وهو كونه ذا نفس يصدر عنها أعمال مختلفة لا على وتيرة واحدة طبيعية كحركته إلى جهات مختلفة بحركات مختلفة وسكونه من غير حركة ـ موجود في النبات .

وكذلك الأبحاث الجارية على الطرق الحديثة تعطي ذلك فإن جراثيم الحياة الموجودة في الحيوان التي إليها تنتهي أعماله الحيوية توجد في النبات نظيرها فهو ذو حياة كمثل الحيوان فالنظر العلمي على أي حال يهدي إلى عموم الحياة لجميع أنواع الحيوان والنبات .

ثم الحياة وهي تقابل الموت الذي هو بطلان مبدأ الأعمال الحيوية تعود بحسب التحليل إلى كون الشيء بحيث تترتب عليه آثاره المطلوبة منه كما أن الموت عدم كونه كذلك فحياة الأرض هي كونها نابتة مخضرّة وموتها خلافه ، وحياة العمل كونه بحيث ينتهي إلى الغرض الذي أتى به لأجله وموته خلافه ، وحياة الكلمة كونها بحيث تؤثر في السامع أثراً مطلوباً وموتها خلافه ، وحياة الإنسان كونه جارياً على ما تهدي إليه الفطرة الإنسانية ككونه ذا عقل سليم ونفس زاكية ، ولذا عدّ القرآن الشريف الدين حياة للإنسان لأنه يرى أن الدين الحق وهو الإسلام هو الفطرة الإلهية .

إذا تبيّن هذا اتضح أن خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي يختلف معناه بحسب اختلاف المراد بالحياة والموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان أو الحيوان والنبات بالكينونة من غيرها كالمني والبيضة والبذر فإن الحي كما لا تدوم له هذه الحياة بقاء إلى غير النهاية لا تذهب أيضاً بحسب البدء في حياة غير متناهية ولا طريق إلى إثباته ، وخروج أجزاء غير ذات حياة من الحيوان أو الحيوان والنبات بالانفصال .

وعلى النظرة الأخيرة أعني نظرة تعميم الحياة لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبة منها هو أن يخرج من الأمور غير المفيدة في باب أمور مفيدة في ذلك الباب بالكينونة والتولد كخلق الإنسان الحي والحيوان الحي والنبات الحي من التراب الميت وبالعكس ، وكخروج الإنسان العاقل الصالح من الإنسان الذي لا عقل له ولا صلاح وبالعكس ، وخروج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

وظاهر الآية الكريمة بالنظر إلى سياقها ومقام المخاطبة فيها أن يكون المراد بإخراج الحي من الميت وبالعكس فيها هو هذا المعنى الأخير ، وذلك أن الآية تقيم الحجة على المشركين من المسلك الذي كانوا يسلكونه في الاحتجاج على اتخاذ الآلهة المختلفة وهو أن العالم المشهود مجموعة من موجودات مختلفة متشتّة علوية وسفلية والسفلية من إنسان وحيوان ونبات وبحر وبر وأمور وراء ذلك كثيرة ، وكل منها تحت تدبير مدبّر شفيع عند الله نعبده بعبادة صنمه ليقرّبنا إلى الله زلفى وبالجملة انتهاء التدبيرات على اختلافها إلى مدبّرات مختلفة يوجب وجود أرباب من دون الله كثيرة .

والآية ترد عليهم حجتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفة إليه تعالى وإن ذلك يدل على أن الله سبحانه رب كل شيء وحده ، فهي تخاطبهم بأنكم تعترفون بأن ما يخصكم من التدبير كرزقكم وما يعمّكم وغيركم منه ينتهي إلى الله سبحانه فهو المدبّر لأمركم وأمر غيركم فهو الرب لا رب سواه .

وقد بدأت في التعداد بما يخص الإنسان أعني قوله : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ وختمت بما يعمّه وغيره أعني قوله : ﴿ومن يدبّر الأمر﴾ وظاهر السياق أن يكون المراد بقوله : ﴿أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت﴾ هو التدبير الخاص بالإنسان فيكون المراد ملك السمع والأبصار التي لأفراد الإنسان ، وكذا إخراج الحي من الإنسان من ميّته وبالعكس ، وقد تبيّن أن الحياة المخصوصة بالإنسان هو كونه ذا نعمة العقل والدين .

فالمراد بإخراج الحي من الميت وبالعكس ـ والله أعلم ـ إخراج الإنسان الحي بالسعادة الإنسانية من الإنسان الميت الذي لا سعادة له وبالعكس .

فالله سبحانه يلقّن نبيّه ﷺ الحجة على توحيده بالربوبية فأمره بقوله : ﴿قل﴾ أن يقول لهم في سياق الاستفهام ﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾ بالإمطار والإنبات والتكوين ﴿أمّن يملك السمع والأبصار﴾ منكم فتتم بهما فائدة رزقكم حيث ترتزقون بتشخيصهما من طيّبات الرزق ، ولولاهما لم توفقوا لذلك وفنيتم عن آخركم ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ أي كل أمر مفيد في بابه من غيره ﴿ومن يخرج الميت من الحي﴾ فيتولد الإنسان السعيد من الشقي والشقي من السعيد ﴿ومن برّ الأمر﴾ في جميع الخليقة .

﴿فسيقولون الله﴾ اعترافاً بأنه الذي ينتهي إليه جميع هذه التدبيرات في الإنسان وغيره لأن الوثنيين يعتقدون ذلك فأمر النبي ﷺ ان يوبخهم أولاً على ترك تقوى الله بعبادة غيره مع ظهور الحجة ثم يستنتج لهم من الحجة وجوب توحيده تعالى فقال : ﴿فقل أفلا تتقون﴾ ثم قال : ﴿فذلكم الله ربكم﴾ .

قوله تعالى : **﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون﴾** الجملة الأولى نتيجة الحجة السابقة ، وقد وصف الرب بالحق ليكون توضيحاً لمفاد الحجة ، وتوطئة وتمهيداً لقوله بعده : ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ .

وقوله : ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون في عبادة الأصنام فإنه إذا كانت ربوبيته تعالى حقة فإن الهدى في اتباعه وعبادته فإن الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلا الضلال .

فتقدير الكلام : فماذا بعد الحق الذي معه الهدى إلا الباطل الذي معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شيء وأقيم الباقي مقامه إيجازاً ، وقيل : فماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولذا قال بعضهم : إن في الآية احتباكاً ـ وهو من المحسنات البديعية ـ وهو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شيء يدل عليه الآخر فإن تقدير الكلام : فماذا بعد الحق إلا الباطل ؟ وماذا بعد الهدى إلا الضلال ؟ فحذف الباطل من الأول والهدى من الثاني وبقي قوله : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ والوجه هو الذي قدّمناه .

ثم تمم الآية بقوله : ﴿فأنّى تصرفون﴾ أي إلى متى تصرفون عن الحق الذي معه الهدى إلى الضلال الذي مع الباطل .

قوله تعالى : **﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾** ظاهر السياق أن الكلمة التي تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هي أنهم لا يؤمنون أي أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتماً وهو أن الفاسقين ـ وهم على فسقهم ـ لا يؤمنون ولا تنالهم الهداية الإلهية إلى الإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1] .

---

(١) المائدة : ١٠٨ .

وعلى هذا فالإشارة بقوله : ﴿كذلك﴾ إلى ما تحصل من الآية السابقة : أن المشركين صرفوا عن الحق وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال إذ ليس بعد الحق إلا الضلال .

فمعنى قوله : ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾ الخ ، أن الكلمة الإلهية والقضاء الحتمي الذي قضى به في الفاسقين ـ وهو أنهم لا يؤمنون ـ هكذا حقت وثبتت في الخارج وأخذت مصداقها وهو أنهم خرجوا عن الحق فوقعوا في الضلال أي إنا لم نقض عدم هدى الفاسقين وعدم إيمانهم ظلماً ولا جزافاً وإنما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق وفسقوا فوقعوا في الضلال ولا واسطة بينهما فافهم ذلك .

وفي الآية دلالة على أن الأمور الضرورية والأحكام والقوانين البيّنة التي تجري في النظام المشهود كقولنا : لا واسطة بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال لها نوع استناد إلى القضاء الإلهي ، وليست ثابتة في ملكه تعالى من تلقاء نفسها .

وربما ذكر بعض المفسرين : أن المراد بالكلمة في الآية كلمة العذاب وقوله : ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ في موضع التعليل بتقدير لامه ، والتقدير كثبوت هذه الحجة عليهم حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا وهي وعيدهم بالعذاب وإنما حقّت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون .

ولا يخلو عن سقم فإن وجه الشبه غير ظاهر ولا متفق فيهما فالحجة ثابتة عليهم بذاتها وأما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر وهو أنهم لا يؤمنون .

والحجة ـ كما سمعت في البيان المتقدم ـ حجة ساذجة يعترف بحقيتها الوثنية ، وقد صرفوها عن وجهها وأقاموا على ما يدّعونها من ربوبية أربابهم واستحقاقها للعبادة من دون الله حيث قالوا : إن تدبير كل شأن من شؤون العالم العامة إلى واحد من هذه الأرباب فهو رب ذلك الشأن ، وإنما نعبد أصنامها وتماثيلها لنرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده .

فأخذت الآية اعترافهم بأن هذه التدابير لله سبحانه ـ وكيف لا تكون له وهو خالق الكل ومبقيها ؟ ـ فله سبحانه وحده حقيقة الربوبية وهو المستحق للعبادة لا غيره .

قوله تعالى : ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ إلى آخر الآية . تلقين للاحتجاج من جهة المبدأ والمعاد فإن الذي يبدأ كل شيء ثم يعيده يستحق أن يعبده الإنسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه وينال عظيم ثوابه يوم المعاد .

ولما كان المشركون ـ وهم المخاطبون بالحجة ـ غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ﷺ ان يتصدى جواب سؤاله بنفسه وقال : ﴿قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فأنّى تؤفكون﴾ وإلى متى تصرفون عن الحق .

وليس اعتماد الآية على مسألة الإبداء والإعادة في احتجاجها اعتماداً على مقدمة غير بيّنة ولا مبيّنة فقد احتج عليها في كلامه تعالى من طرق مختلفة كالاحتجاج من طريق لزوم الغاية في فعله ، ومن طريق وجوب الجزاء على الأعمال في العدل وغير ذلك وقد نفى سبحانه الريب عن البعث والقيامة فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه .

والحجة ـ كما تقدم الإيماء إليه ـ حجة عامة المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفاً من العقاب أو رغبة في الثواب الذي أعد لهم يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق﴾ إلى آخر الآية ، يهدي للحق وإلى الحق بمعنى واحد فالهداية تتعدى بكلتا الحرفين ، وقد ورد تعديتها باللام في مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله : ﴿أولم يهد لهم﴾[1] ، وقوله : ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾[2] إلى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام في قوله : ﴿يهدي للحق﴾ للتعليل ليس بشيء .

لقّن سبحانه نبيّه ﷺ هذه الحجة وهي ثالثة الحجج ، وهي حجة عقلية يعتمد عليها الخاصة من المؤمنين ، وتوضيحها أن من المرتكز في الفطرة الإنسانية وبه يحكم عقله أن من الواجب على الإنسان أن يتبع الحق حتى أنه ان انحرف في شيء من أعماله عن الحق واتّبع غيره لغلط أو شبهة أو هوى فإنما اتبعه لحسبانه إياه حقاً والتباس الأمر عليه ، ولذا يعتذر عنه بما يحسبه حقاً فالحق واجب الاتباع على الإطلاق ومن غير قيد أو شرط .

والهادي إلى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق ، ومن الواجب

---

(١) السجدة : ٢٦ .　　(٢) الإسراء : ٩ .

ترجيحه على من لا يهدي إليه أو يهدي إلى غيره لأن اتباع الهادي إلى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه وجوب اتباعه ضروري .

وقد اعتمد في الحجة على هذه المقدمة الضرورية فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدي إلى الحق ؟ ومن البيّن أن لا جواب للمشركين في ذلك مثبتاً إذ شركاؤهم سواء أكانوا جماداً غير ذي حياة كالأوثان والأصنام أم كانوا من الأحياء كالملائكة وأرباب الأنواع والجن والطواغيت من فرعون ونمرود وغيرهما لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وإذ لم يكن لهم في ذلك جواب مثبت فإنهم لا يجيبون ، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يخلفهم في الجواب فيجيب في ذلك ـ أعني الهداية إلى الحق ـ بإثباتها لله سبحانه فقيل : ﴿قل الله يهدي للحق﴾ فإن الله سبحانه هو الذي يهدي كل شيء إلى مقاصده التكوينية والأمور التي يحتاج إليها في بقائه كما في قوله : ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[١] ، وقوله : ﴿الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى﴾[٢] وهو الذي يهدي الإنسان إلى سعادة الحياة ويدعوه إلى الجنة والمغفرة بإذنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع ، وأمرهم ببث الدعوة الحقة الدينية بين الناس .

وقد مرّ في تفسير قوله تعالى : ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾[٣] أن الحق من الاعتقاد والقول والفعل إنما يكون حقاً بمطابقة السنّة الجارية في الكون للذي هو فعله فالحق بالحقيقة إنما يكون حقاً بمشيئته وإرادته .

وإذ تحقق أنه ليس من شركائهم من يهدي إلى الحق ، وأن الله سبحانه يهدي إلى الحق سألهم بقوله : **﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدى﴾**؟ أن يقضوا في الترجيح بين اتباعه تعالى واتباع شركائهم وهو تعالى يهدي إلى الحق وهم لا يهدون ولا يهتدون إلا بغيرهم ، ومن المعلوم أن الرجحان لمن يهدي على من لا يهدي اي لاتباعه تعالى على اتباعهم ، والمشركون يحكمون بالعكس ، ولذلك لامهم ووبخهم بقوله : **﴿فما لكم كيف تحكمون﴾** ؟

---

(١) طه : ٥٠ . (٢) الأعلى : ٣ . (٣) آل عمران : ٦٠ .

والتعبير في الترجيح في قوله : ﴿أحق أن يتّبع﴾ بأفعل التفضيل الدال على مطلق الرجحان دون التعيّن والانحصار مع أن اتّباعه تعالى حق لا غير واتباعهم لا نصيب له من الحق إنما هو بالنظر إلى مقام الترجيح ، وليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثارة لعصبيتهم وتهييج لجهالتهم .

وقد أبدع تعالى في قوله : ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدّي إلا أن يهدى﴾ والقراءة الدائرة : ﴿لا يهدّي﴾ بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي ، وظاهر قوله : ﴿لا يهدّي إلا أن يهدى﴾ وقد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدي بغيره لا بنفسه .

والكلام قد قوبل فيه قوله : ﴿يهدي إلى الحقّ﴾ بقوله : ﴿من لا يهدّي﴾ مع أن الهداية إلى الحق يقابلها عدم الهداية إلى الحقّ ، وعدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحق ، وكذا الملازمة بين الهداية إلى الحق والاهتداء بالذات فالذي يهدي إلى الحق يجب أن يكون مهتدياً بنفسه لا بهداية غيره والذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحق أبداً .

هذا ما تدل عليه الآية بحسب ظاهرها الذي لا ريب فيه وهو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجوزات المبنية على المساهلة التي نبني عليها ونداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف فننسب الهداية إلى الحق إلى كل من تكلم بكلمة حق ودعا إليها وإن لم يعتقد بها أو اعتقد ولم يعمل بها أو عمل ولم يتحقق بمعناها ، وسواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره .

بل الهداية إلى الحق أعني الإيصال إلى صريح الحق ومتن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلل بينه وبينه فاهتدى بالله وهدى غيره بأمر الله سبحانه ، وقد تقدمت نبذة من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ﴾[1] الآية .

وقد تبيّن بما قدّمناه في معنى الآية أمور :

أحدها : أن المراد بالهداية إلى الحق ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

دون ما هو بمعنى إراءة الطريق المنتهي إلى الحق فإن من الضروري أن وصف طريق الحق يتأتى من كل أحد سواء اهتدى إلى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد .

وثانيها : أن المراد بقوله : ﴿من لا يهدّي إلا أن يهدى﴾ من لا يهتدي بنفسه ، وهذا أعمّ من أن يكون ممّن يهتدي بغيره أو يكون ممّن لا يهتدي أصلاً ، لا بنفسه ولا بغيره كالأوثان والأصنام التي هي جماد لا يقبل هداية من غيره ، وذلك أن قوله : ﴿إلا أن يهدى﴾ استثناء من قوله : ﴿من لا يهدّي﴾ الأعم من أن لا يهتدي أصلاً أو يهتدي بغيره ، والمأخوذ في قوله : ﴿أن يهدى﴾ فعل دخلت عليه أن المصدرية المؤوّلة الى المصدر ، والجملة الفعلية المؤوّلة إلى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف إلى معموله ففرق بين قوله : ﴿أن تصوموا خير لكم﴾[1] فلا يدل على الوقوع وبين نحو قوله : ﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾[2] فيدل على الوقوع ، ويقال : ضربك زيداً عجيب إذا ضربته ، وأن تضرب زيداً عجيب إذا هممت أن تضربه .

فقوله : ﴿من لا يهدّي إلا أن يهدى﴾ معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهداية من ناحية الغير ، ومن المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير إذا كان في طبعه أن يقبل ذلك ، وأما إذا لم يقبل فإنما يبقى له من الوصف أنه لا يهتدي فافهم ذلك .

وللمفسرين في معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبة :

منها : أنه استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال لأن من نفي عنهم الهداية ممن اتّخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيراً والملائكة عليهم السلام ، وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[3] .

وفيه : أن محصّله : أن المعنى لا يهدي إلا أن يهديه الله تعالى فيهدي غيره بعد اهتدائه بهدايته تعالى ، وقد اختلّ عليه معنى الآية من أصله فإن من لا يهتدي إلى الحق بنفسه لا يتأتى له أن يهدي إلى الحق فإنه إنما يماسّ الحق من وراء حجاب فكيف يوصل إليه ؟

---

(١) البقرة : ١٨٤ . (٢) يونس : ٢٩ . (٣) الأنبياء : ٧٣ .

على أن ما ذكره لا ينطبق على الأصنام التي هي مورد الاحتجاج في الآية فإنها لا تقبل الهداية من أصلها ، وقد ذكر المسيح وعزيراً وهما ممن قدّسته النصارى واليهود وليس وجه الكلام في الآية إليهم وإن شملتهما وغيرهما الآية بحسب عموم الملاك .

ومنها : أن الاستثناء منقطع والمراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية اصلاً فحسب ، والمعنى : أم من لا يهتدي أصلاً كالأصنام إلا أن يهديه الله فيهتدي حينئذ .

وفيه : أنه لا يفي بتوجيه المقابلة التي بين قوله : ﴿من يهدي إلى الحق﴾ وقوله : ﴿من لا يهدي﴾ فإن الهداية إلى الحق والاهتداء إليه لا يتقابلان إلا أن يؤول المعنى إلى مثل قولنا : أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أم من لا يهتدي أصلاً إلا أن يهديه الله فيهتدي فيهدي غيره ، ويرد عليه أنه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهتدي أصلاً حتى يصير الاستثناء منقطعاً بل يعم ما لا يهتدي أصلاً لا بنفسه ولا بغيره ، ومن لا يهتدي بنفسه ويهتدي بغيره كالملائكة مثلاً ، ويرد عليه ما ورد على الوجه السابق .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية و﴿إلا﴾ بمعنى حتى والمعنى لا يهتدي ولا يقبل الهداية حتى يهدى .

وفيه : أن الترديد يرجع حينئذ إلى مثل قولنا : أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أم من لا يهتدي أصلاً حتى يهدى إلى الحق ، ويعود الاستثناء مستدركاً لا يتعلق به غرض في الكلام . مضافاً إلى أن مجيء إلا بمعنى حتى غير ثابت وعلى تقدير ثبوته قليل في الكلام لا يحمل على مثله أفصح الكلام .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدى الملائكة والجن ممن يعبدون من دون الله وهم يقبلون الهداية من الله وإن لم يهتدوا من عند أنفسهم أو المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فإنهم وإن لم يهتدوا لكنهم يقبلون الهداية ولو هدوا إلى الحق لهدوا إليه .

وفيه : أن الآيات واقعة في سياق الاحتجاج على عبدة الأصنام ، والقول بأن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدى الملائكة والجن أو الرؤساء المضلون يخرجها عن صلاحية الانطباق على المورد .

وثالثها : أن الهداية إلى الحق بمعنى الإيصال إليه إنما هي شأن من يهتدي بنفسه أي لا واسطة بينه وبين الله سبحانه في أمر الهداية أما من بادىء أمره أو بعناية خاصّة من الله سبحانه كالأنبياء والأوصياء من الأئمة ، وأما الهداية بمعنى إراءة الطريق ووصف السبيل فلا يختص به تعالى ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول : ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾[١] ، وقال : ﴿إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[٢] .

وأما قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وهو إمام : ﴿إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[٣] وغيره من الآيات فهي مسوقة لبيان الإصالة والتبع كما في آيات التوفّي وعلم الغيب ونحو ذلك مما سيقت لبيان أن الله سبحانه هو المالك لها بالذات والحقيقة ، وغيره يملكها بتمليك الله ملكاً تبعياً أو عرضياً ، ويكون سبباً لها بإذن الله ، قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[٤] وفي الأحاديث إشارة إلى ذلك وأن الهداية إلى الحق شأن النبي وأهل بيته ﷺ وقد مرّ بعض الكلام في الهداية فيما تقدّم .

وقوله في ذيل الآية : ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ استفهام للتعجيب استغراباً لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدي ولا يهدي إلى الحق .

قوله تعالى : ﴿وما يتّبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ أغنى يغني يتعدّى بمن وعن كلتيهما وقد جاء في الكلام الإلهي بكل من الوجهين فعدّي بمن كما في الآية ، وبعن كما في قوله : ﴿ما أغنى عني ماليه﴾[٥] .

وإنما نسب اتّباع الظن إلى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلال على يقين من الحق ، ولم يؤثروا عليه الباطل ويدعوا إليه إلا بغياً كما قال تعالى : ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم﴾[٦] وأما الأكثرون فإنما اتّبعوا آباءهم تقليداً لهم لحسن ظنهم بهم .

وقوله : ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ تعليل لقوله : ﴿وما يتّبع أكثرهم إلا

---

(١) غافر : ٣٨ .
(٢) الإنسان : ٣ .
(٣) القصص : ٥٦ .
(٤) الأنبياء : ٧٣ .
(٥) الحاقة : ٢٩ .
(٦) البقرة : ٢١٣ .

ظناً﴾ والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتّباع للظن .

* * *

وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرٰى مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيؤُنَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) .

(بيــان)

رجوع إلى أمر القرآن وأنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه وتلقين الحجة في ذلك ، وللآيات اتصال بما تقدمها من قوله : ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ قل الله يهدي للحقّ﴾ الآية ، فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى الحق هدايته الناس إلى دينه الذي يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه

والكتب التي أنزلها إليهم ككتب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهذه الآيات تذكرها وتقيم الحجة على أن القرآن منها هاد إلى الحق ، ولذلك أشير إليها معه حيث قيل : ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ .

وفي آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر وهو من مقاصد السورة كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ إلى آخر الآية ، قد تقدمت الإشارة إلى أن نفي صفة أو معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن والاستعداد ، وهو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا : ما كان زيد ليقوم ، وقولنا : لم يقم أو ما قام زيد إذ الأول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعد له استعداداً ، والثاني ينفي القيام عنه فحسب ، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل﴾[1] ، وقوله : ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[2] ، وقوله : ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾[3] .

فقوله : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ نفي لشأنية الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفي فعليته ، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا في صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتريه على الله سبحانه .

وقوله : **﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾** أي تصديقاً لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله : ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة﴾[4] ، وإنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتاباً غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب إبراهيم عليهما السلام فإذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الأقرب منها زماناً إليه وهو التوراة والإنجيل موصوفاً بأنه بين يديه .

وربما قيل : إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الأمور كالبعث والنشور والحساب والجزاء ، وليس بشيء .

وقوله : **﴿وتفصيل الكتاب﴾** عطف على ﴿تصديق﴾ والمراد بالكتاب

---

(١) يونس : ٧٤ .
(٢) الشورى : ٥٣ .
(٣) العنكبوت : ٤٠ .
(٤) الصف : ٦ .

بدلالة من السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على أنبيائه ، والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجة بعضها في بعض المنطوية جانب منها في آخر بالإيضاح والشرح .

وفيه دلالة على أن الدين الإلهي المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال والتفصيل ، والقرآن يفصّل ما أجمله غيره كما قال تعالى : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(١) .

وأن القرآن الكريم مفصّل لما أجملته الكتب السماوية السابقة مهيمن عليها جميعاً كما قال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾(٢) . وقوله : ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي لا ريب فيه هو من رب العالمين ، والجملة الثانية كالتعليل للأولى .

قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾ إلى آخر الآية ، أم منقطعة والمعنى بل يقولون افتراه ، والضمير للقرآن ، واتصاف السورة بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه والقليل .

والمعنى قل للذين يقولون افتراه : إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة مثل هذا القرآن المفترى وادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فإنه لو كان كلاماً مفترى كان كلاماً بشرياً وجاز أن يؤتى بمثله وفي ذلك تحدّ ظاهر بسورة واحدة من سور القرآن طويلة كانت أو قصيرة .

ومن هنا يظهر **أولاً** : أن التحدي ليس بسورة معينة فإنهم لم يرموا بالافتراء بعض القرآن دون بعض بل جميعه ، وهو يكلفهم أن يأتوا بسورة مثل ما يدّعون أنه افتراه ، وإنما ادّعوه لجميع القرآن دون بعضه .

ولا يصغى إلى قول من يقول : إن التنكير في « سورة » للتعظيم أو للتنويع والمراد سورة من السور يذكر فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء إنما يتّهم به الإخبار دون الإنشاء . أو يقول : المراد سورة طويلة مثل هذه السورة سورة يونس ـ في اشتمالها على أصول الدين والوعد والوعيد .

وذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب إلى الله سبحانه ، ولا يختلف في

---

(١) آل عمران : ١٩ . (٢) المائدة : ٤٨ .

ذلك ما يتضمن الإخبار وما يتضمن الإنشاء ، وما كانت سورة طويلة أو قصيرة حتى الآية الواحدة ، والرمي بالافتراء يصح أن يتعلق بالجميع لأنه تكذيب للنسبة المتعلقة بالجميع .

وثانياً : أن الآية لا تتحدى ببلاغة القرآن وفصاحته فحسب بل السياق في هذه الآية وفي سائر الآيات التي وردت مورد التحدي يشهد على أن التحدي إنما هو بما عليه القرآن من صفة الكمال ونعت الفضيلة من اشتماله على مخّ المعارف الإلهية ، وجوامع الشرائع من الأحكام العبادية والقوانين المدنية السياسية والاقتصادية والقضائية ، والأخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، وقصص الأنبياء ، والأمم الماضية ، والملاحم والأخبار الغيبية ، ووصف الملائكة والجن والسماء والأرض والحكمة والموعظة والوعد والوعيد ، وأخبار البدء والعود ، وقوة الحجة وجذالة البيان والنور والهداية من غير أن يختلف جزء منه عن جزء ؛ أضف إلى ذلك وقوعه في بلاغته وفصاحته موقعاً تقصر عن البلوغ اليه أيدي البشر .

ولقد قصّر الباحثون من علماء الصدر الأول ومن يتلونهم إذ قصروا إعجازه على بلاغته وفصاحته ، وكتبوا في ذلك كتباً وألّفوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر في حقائقه والتعمق في معارفه ، وأنهاهم إلى أن عدّوا المعاني أموراً مطروحة في الطريق يستوي فيه البدويّ والحضريّ والعاميّ والخاصّي والجاهل والعالم ، وأن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى ولا قيمة لما وراء ذلك .

وقد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخيل في التحدي كوصفه بأنه نور ورحمة وهدى وحكمة وموعظة وبرهان وتبيان لكل شيء وتفصيل الكتاب وشفاء للمؤمنين وقول فصل وما هو بالهزل ، وأنه مواقع للنجوم ، وأنه لا اختلاف فيه ولم يصرح ببلاغته بعينها .

وأطلق القول بأنهم لا يأتون بمثله ولو دعوا من استطاعوا من دون الله ، ولو اجتمع على ذلك الجن والإنس وكان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يقيّد الكلام بالبلاغة والفصاحة .

وقد فصّلنا القول في إعجاز القرآن في تفسير قوله : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾[1] في الجزء الأول من الكتاب .

---

(١) البقرة : ٢٣ .

قوله تعالى : ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ إلى آخر الآية . الآية تبين وجه الحقيقة في عدم إيمانهم به وقولهم إنه افتراء وهو أنهم كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقية من قبيل العلوم الواقعية لا يسعها علمهم ، ولم يأتهم تأويله بعد أي تأويل ذاك الذي كذّبوا به حتى يضطرهم إلى تصديقه .

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله : ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ يشير إلى يوم القيامة كما يؤيده قوله تعالى : ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربّنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾[1] .

وهذا يؤيد ما قدمناه في تفسير قوله : ﴿ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾[2] في الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها معنى من المعاني من حكم أو معرفة أو قصة أو غير ذلك من الحقائق الواقعية من غير أن يكون من قبيل المعنى ، وأن لجميع القرآن وما يتضمنه من معرفة أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويلاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله بعد : ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم﴾ فإن التشبيه يعطي أنّ المراد أن الذين من قبلهم من المشركين أيضاً كذّبوا بما دعاهم إليه أنبياؤهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله ، فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدعوة الدينية من معارف وأحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن وأحكامه تأويلاً من غير أن يكون من قبيل المفاهيم ومعاني الألفاظ كما توهّموه .

فمحصل المعنى أن هؤلاء المشركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشركين والكفار من الأمم السابقة استقبلتهم من الدعوة الدينية بمعارفها وأحكامها أمور لم يحيطوا بها علماً حتى يوقنوا بها ويصدّقوا ، فحملهم الجهل على التكذيب بها ولمّا يأتهم اليوم الذي يظهر لهم فيه تأويلها وحقيقة أمرها ظهوراً يضطرّهم على الإيقان والتصديق بها وهو يوم القيامة الذي يكشف لهم فيه الغطاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كذّبوا وظلموا كما كذّب الذين من قبلهم وظلموا فانظر كيف كان عاقبة أولئك الظالمين حتى تحدس بما سيصيب هؤلاء .

---

(١) الأعراف : ٥٣ .　　(٢) آل عمران : ٧ .

هـذا ما يعـطيه دقيق البحث في معنى الآيـة ، وللمفسرين فيهـا أقوال شتّى مختلفة مبنية على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لا جدوى في التعـرّض لها وقـد استقصينا أقوالهم سابقاً .

قـولـه تعـالى : ﴿ومنهم من يؤمن بـه ومنهم من لا يؤمن بـه وربـك أعلم بـالمفسدين﴾ قسّمهم قسمين من يؤمن بـالقرآن ومن لا يؤمن بـه ثم كنّى عمن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصـل من ذلك أن الـذين يكذّبـون بما في القـرآن إنما كذّبوا به لأنهم مفسدون .

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيلة الإفساد .

وأمـا ما ذكـره بعضهم في تفسير الآيـة : أن المراد أن قـومـك لن يكـونـوا كـأولئك الـظالمين من قبلهم الذين كـذّبوا رسلهم إلا قليـلاً منهم فكانت عاقبتهم عـذاب الاستئصال بـل سيكون قـومك قسمين قسم سيؤمن بهـذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبداً فهو معنى خارج عن مدلول الآية البتة .

قوله تعالى : ﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ إلى آخر الآية ، تلقين للتبـرّي على تقدير تكـذيبهم لـه ، وهـو من مـراتب الانتصـار للحق ممن انتهض لإحيائه فالطريق هو حمل النـاس عليه إن حملوا وإلا فـالتبرّي منهم لئـلا يحملوه على باطلهم .

وقوله : ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنـا بريء ممـا تعملون﴾ تفسير لقـولـه : ﴿لي عملي ولكم عملكم﴾ .

قوله تعالى : ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصمّ ولو كـانوا لا يعقلون﴾ الاستفهـام للإنكـار ، وقولـه : ﴿ولو كـانوا لا يعقلون﴾ قـرينـة على أن المراد بنفي السمع نفي مـا يقارنـه من تعقّل مـا يدل عليـه الكلام المسمـوع وهو المسمّى بسمع القلب .

والمعنى : ومنهم الـذين يستمعـون إليـك وهم صمٌّ لا سمـع لقلوبهم ، ولست أنت قادراً على إسماعهم ولا سمع لهم .

قوله تعالى : ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ إلى آخر الآيـة . الكلام فيهـا نظيـر الكلام في سابقتها .

قوله تعالى : ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمـون﴾

مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلي به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى من آثار ظلمهم أنفسهم من غير أن يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع والبصر عنهم فإنهم إنما أوتوا ما اوتوا من قبل أنفسهم .

قوله تعالى : **﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾** الخ ، ظاهر الآية أن يكون ﴿يوم﴾ ظرفاً متعلقاً بقوله : ﴿قد خسر﴾ الخ ، وقوله : ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة﴾ الخ ، حالاً من ضمير الجمع في ﴿يحشرهم﴾ وقوله : ﴿يتعارفون بينهم﴾ حالاً ثانياً مبيناً للحال الأول .

والمعنى : قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله في يوم يحشرهم إليه حال كونهم يستقلون هذه الحياة الدنيا فيعدّونها كمكث ساعة من النهار وهم يتعارفون بينهم من غير أن ينكر بعضهم بعضاً أو ينساه .

وقد ذكر بعضهم أن قوله : ﴿كأن لم يلبثوا﴾ صفة ليوم أو صفة للمصدر المحذوف المدلول عليه بقوله : ﴿يحشرهم﴾ ، وذكر بعض آخر أن قوله : ﴿يتعارفون بينهم﴾ صفة لساعة ، وهما من الاحتمالات البعيدة التي لا يساعد عليها اللفظ .

وكيف كان ففي الآية رجوع إلى حديث اللقاء المذكور في أول السورة وانعطاف على ما ذكره آنفاً أن من المتوقع أن يأتيهم تأويل الدين .

فكأنها تقول : إنهم وإن لم يأتهم تأويل القرآن بعد لا ينبغي لهم أن يغترّوا بالجمود على مظاهر هذه الحياة الدنيا ويستكثروا الأمد ويستبطئوا الأجل فإنهم سوف يحشرون إلى الله فيشاهدون أن ليست الحياة الدنيا إلا متاعاً قليلاً ، ولا اللبث فيها إلا لبثاً يسيراً كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم .

فيومئذ يظهر لهم خسرانهم في تكذيبهم بلقاء الله ظهور عيان وذلك بإتيان تأويل الدين وانكشاف حقيقة الأمر وظهور نور التوحيد على ما كان ، ووضوح أن الملك يومئذ لله الواحد القهار جل شأنه .

* * *

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

ثُمَّ ٱللهُ شَهِيدٌ عَلى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لآَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتيكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْئٰنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْس ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلاَ إِنَّ للهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) .

(بيـــان)

الآيات تنبيء عن سنّة إلهية جارية ، وهي أن الله سبحانه قضى قضاء حق لا يرد ولا يبدّل أن يرسل إلى كل أمة رسولاً يبلّغهم رسالته ثم يحكم بينه وبينهم حكماً فصلاً بإنزال العذاب عليهم وإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذّبين .

ثم تأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرهم أن هذه الأُمة يجري فيهم ما جرى في الأُمم الماضية من السنّة الإلهية من غير أن يستثنوا من كلّيتها غير أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يذكر لهم فيما لقّنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلا أن القضاء حتم

وللأمة عمراً وأجلاً كالفرد ينتهي إليه أمد حياتها ، وأما وقت النزول فقد أبهم إبهاماً .

وقد قدمنا في قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[1] أن الآية لا تخلو عن إشعار بأن الأمة ستنتزع منهم نعمة الاستغفار بعد زمن النبي ﷺ فينزل عليهم العذاب ، وقد تقدَّم أن الشواهد قائمة على كون الآية مدنية فهي بعد هذه الآيات المكيّة من قبيل الإيضاح في الجملة بعد الإبهام ومن ملاحم القرآن .

وقد حمل بعض المفسرين ما وقع من حديث العذاب في هذه الآيات على عذاب الآخرة ، وسياق الآيات يأبى ذلك .

قوله تعالى : **﴿وإما نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾** إما نرينّك أصله : إن نرك ، زيد عليه ما والنون الثقيلة للتأكيد ، والترديد بين الإرادة والتوفّي للتسوية واستيعاب التقادير ، والمعنى إلينا مرجعهم على أي تقدير ، ولفظة ثم للتراخي بحسب ترتيب الكلام دون الزمان والآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ ولتكون كالتوطئة لحديث قضاء العذاب الذي ستفصله الآيات التالية لهذه الآية .

والمعنى طب نفساً فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك أو توفّيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم إلينا ونحن شاهدون لأفعالهم المستوجبة للعذاب لا تغيب عنّا ولا ننساها .

والالتفات من قوله : ﴿نرينّك﴾ إلى قوله : ﴿ثم الله شهيد﴾ للدلالة على علّة الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى الوهيته .

قوله تعالى : **﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾** قضاء إلهيّ منحلّ إلى قضاءين أحدهما : أن لكل أمة من الأمم رسولاً يحمل رسالة الله إليهم ويبلّغها إياهم ، وثانيهما : أنه إذا جاءهم وبلّغهم رسالته فاختلفوا من مصدّق له ومكذّب فإن الله يقضي ويحكم بينهم بالقسط والعدل من غير أن يظلمهم . هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى .

---

(١) الأنفال : ٣٣ .

ومنه يظهر أن قوله : ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ فيه إيجاز بالحذف والإضمار والتقدير : فإذا جاء رسولهم إليهم وبلّغ الرسالة فاختلف قومه بالتكذيب والتصديق ، ويدل على ذلك قوله : ﴿قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه ، ولذا كان السؤال عن القسط وعدم الظلم في القضاء في مورد العذاب والضرار أسبق إلى الذهن .

وقد تقدم الفرق بين الرسول والنبيّ في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب ، وهذا القضاء المذكور في الآية من خواص الرسالة دون النبوّة .

قوله تعالى : ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود ، وهو القضاء بينهم في الدنيا ، والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل﴾ الخ ، فقول بعضهم : إن السؤال عن عذاب يوم القيامة أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت إليه .

قوله تعالى : ﴿**قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل**﴾ إلى آخر الآية ، لما كان قولهم : ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ في معنى قولنا : أيّ وقت يفي ربك بما وعدك أو يأتي بما أوعدنا به أنه يقضي بيننا وبينك فيهلكنا وينجيك والمؤمنين بك فيصفو لكم الجو ويكون لكم الأرض وتخلصون من شرّنا ؟ فهلا عجّل لكم ذلك - وذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزاً واستهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية وهذا نظير قولهم : ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾[1] .

لقّن سبحانه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبدأهم في الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرّاً حتى يدفعه عنها ولا نفعاً حتى يجلبه إليها ويستعجل ذلك إلا ما شاء الله أنْ يملكه من ضرّ ونفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعاً ، واقتراحهم عليه بأن يعجّل لهم القضاء والعذاب من الجهل .

ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جواباً إجمالياً بالإعراض عن تعيين الوقت والإقبال على ذكر ضرورة الوقوع ، أما الأول فإنه من الغيب الذي لا

---

(١) الحجر : ٧ .

يعلمه إلا الله ، وأمره الذي لا يتسلط عليه إلا هو ، وقد تقدم قوله في آيات السورة : ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾[1] .

وأما الثاني أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بيّن ذلك بالإشارة إلى حقيقة هي من النواميس العامة الجارية في الكون تنحل بها العقدة وتندفع بها الشبهة ، وهي أن لكل أمة أجلاً لا يتخطاهم ولا يتخطونه فهو آتيهم لا محالة ، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة ، وهو قوله تعالى : **﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** أي وأنتم أمة من الأمم فلا محالة لكم أيضاً أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون .

فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبروه بان لهم أن لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد من أفرادها ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها ، ولها من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغيّ والثواب والعقاب نصيبها ، وهي مما اعتنى بها التدبير الإلهي نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل .

ويدلهم على ذلك ما يحدّثهم به التاريخ ويفصح عنه الآثار من ديارهم الخربة ومساكنهم الخالية ، وقد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وكلدة قوم إبراهيم وأهل سدوم وسائر المؤتفكات قوم لوط والقبط قوم فرعون وغيرهم .

فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم ولم ينقرضوا إلا بعذاب وهلاك ، ولم يعذّبوا إلا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبيّنات ولم يأت قوماً منهم رسوله إلا واختلفوا في الحق الذي جاءهم فمنهم من آمن به ومنهم من كذّب به وهم الأكثرون .

فهذا يدلهم على أن هذه الأمة ـ وقد اختلفوا في الحق لمّا جاءهم ـ سيقضي الله بين رسوله وبينهم فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الأمم وإن الله لبالمرصاد .

وعلى الباحث المتدبر أن يتنبه لأن الله سبحانه وإن بدأ في وعيده

---

(١) يونس : ٢٠ .

بالمشركين غير أنه هدد في أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم ، ومن أهل القبلة مجرمون كغيرهم فلينتظروا عذاباً واصباً يفصل به الله بينهم وبين نبيه ﷺ ، ولينسوا ما يلقيه الشيطان في روعهم أن أمتهم هذه أمة مرحومة رفع الله عنهم عذاب الدنيا إكراماً منه لنبيهم نبي الرحمة فهم في أمن من عذاب الله وإن انهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب مع أنه لا كرامة عند الله إلا بالتقوى وقد خاطب المؤمنين من هذه الأمة بمثل قوله : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به﴾[1] .

وربما تعدى المتعدي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا فذكر أن الأمة مغفور لهم محسنهم ومسيئهم فلا يبقى لهم في الدنيا إلا كرامة أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن ، ولا في الآخرة إلا المغفرة والجنة .

ولا يبقى على هذا للملة والشريعة إلا أنها تكاليف وأحكام جزافية لعب بها رب العالمين ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون تعالى عما يقولون علواً كبيراً .

فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه ، وقال الرسول يا رب إن قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً .

قوله تعالى : ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ إلى آخر الآيتين ، البيات والتبييت الإتيان ليلاً ويغلب في الشر كقصد العدو عدوه ليلاً .

ولما كان قولهم : ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ في معنى استعجال آية العذاب التي يلجئهم إلى الإيمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع إلى توبيخهم وذمهم من الجهتين فوبّخهم أولاً على استعجالهم بالعذاب ، وهو عذاب فجائي من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقّناً لنبيّه ﷺ : ﴿قل أرأيتم﴾ وأخبروني ﴿إن أتاكم عذابه بياتاً﴾ ليلاً ﴿أو نهارا﴾ فإنه عذاب لا يأتيكم إلا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله ﴿ماذا يستعجل منه﴾ من العذاب ﴿المجرمون﴾ أي ماذا تستعجلون منه وأنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا أتاكم .

---

(١) النساء : ١٢٣ .

ففي قوله : ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة وكأنّ النكتة فيه رعاية حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر وليكون تعرضاً لملاك نزول العذاب عليهم وهو إجرامهم .

ووبخهم ثانياً على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الإيمان فيه وهو حين نزول العذاب فإن آية العذاب يلجئهم إلى الإيمان قطعاً على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكة ، ومن جهة أخرى الإيمان توبة والتوبة غير مقبولة عند ظهور آية العذاب والإشراف على الموت .

فقال تعالى : ﴿أثمَّ إذا ما وقع﴾ العذاب ﴿آمنتم به﴾ أي بالقرآن أو بالدين أو بالله ﴿الآن﴾ أي أتؤمنون به في هذا الآن والوقت ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ وكان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب وتحقيره بالاستهزاء به .

قوله تعالى : ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا ما كنتم تكسبون﴾ الأشبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿لكل أمة أجل﴾ الخ ، فتكون الآية الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم وإهلاكه إياهم ، والآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع والهلاك : ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة ولا تجزون إلا أعمالكم التي كنتم تكسبونها وذنوبكم التي تحملونها ، والخطاب تكويني كنّي به عن شمول العذاب لهم ونيله إياهم ، وعلى هذا المعنى فالآيتان : ﴿قل أرأيتم﴾ إلى قوله ﴿تستعجلون﴾ واردتان مورد الاعتراض .

قوله تعالى : ﴿ويستنبؤنك أحقٌّ هو قل إي وربي إنه لحقٌّ وما أنتم بمعجزين﴾ إلى آخر الآية ـ يستنبؤنك أي يستخبرونك ، وقوله : ﴿أحقّ هو﴾ بيان له ، والضمير على ما يفيده السياق راجع إلى القضاء أو العذاب ، والمآل واحد ، وقد أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يؤكد القول في إثباته من جميع جهاته ، وبعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع .

فقوله : ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ إثبات لتحققه وقد أكد الكلام بالقسم والجملة الاسمية وإنّ واللام ، وقوله : ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم .

قوله تعالى : **﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾** إلى آخر الآية ، إشارة إلى شدة العذاب وأهمية التخلص منه عندهم ، وإسرار الندامة إخفاؤها وكتمانها خشية الشماتة ونحوها ، والظاهر أنّ المراد بالقضاء والعذاب في الآية هو القضاء والعذاب الدنيويان لا غير .

قوله تعالى : **﴿ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** الآية وما بعدها بيان برهاني على حقّيّة ما ذكره من كونه حقاً واقعاً لا يمنع عنه مانع فإنّ كل شيء مما في السماوات والأرض إذا كان مملوكاً لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها إليه تعالى ، ولم يكن لغيره شيء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف في شيء كان مستنداً إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرف في ذاته المقدسة فيحمله على الفعل ، أو يتقيد بعدم مانع خارجي إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل ، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئاً فعله من غير ممدّ أو عائق ، وإذا وعد وعداً كان حقاً لا مردّ له من غير أن يتغير عن وعده بصارف .

فإمعان النظر في ملكه تعالى المطلق الحقيقي يهدي إلى العلم بأنّ وعده حق لا يمازجه باطل ولكن أكثرهم وهم العامة من الناس لا يعلمون لعجزهم عن الإمعان في هذه الأبحاث الحقيقية أو إعجابهم بسذاجة الفهم وانسلاكهم في سلك العامة .

فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستعلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم وقد أوتي ملكاً وسلطاناً ومن كل ما يتنافس فيه فيرون له القدرة المطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ثم يجدونه ربما يهمّ ويسعى ولا يقع ما اهتم به أو وعد وعداً ثم لم يف به رعاية لمصلحة شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره ، ووعده إلى وعده . على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج وأن لا ينطبق .

مع أنّ حقيقة معنى ملكه وسلطانه وسعة قدرته ونفوذ إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك ويتصورونه عظيماً فيهم ولو طحنته نازلات الدهر يوماً فأهلكته أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبته ما عنده من ملك وقدرة ، ومعنى وقوع ما أراده أو أحبّه أن الأسباب الكونية ساعدته على ذلك ووافقته على

ما أحبه ، ولو لم تساعده ولم توافقه كلّية الأسباب لم يكن له أن يضطرها إلى الخضوع لما يتوهم لنفسه من القدرة كما لا توافقه على مثل الموت والحياة والشباب والشيب والصحة والمرض وأمور أخرى كثيرة فليس له من الأمر شيء .

لكنه سبحانه مالك لخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكوّن متحول بأمره منوط بإذنه ، وما تصرّف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثّر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا إليه تعالى نفسه أو إلى غيره بإذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيئته شيء فيرجع إلى غيره ولا غير هناك يرجع نحوه وينتسب إليه ؟

وقوله تعالى فعله بما يدل بنفسه على مراده فكيف يتسرب إليه الكذب وهو متن الخارج ، والعين الخارجي لا كذب فيه ؟ وإنما الكذب والخطأ شأن المفاهيم الذهنية من حيث انطباقها على الخارج ، وكيف يكون وعده باطلاً ووعده لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا ، وقد وجّه كلّية الأسباب إليه ولا مردّ له ؟

فإمعان النظر في هذه الحقائق ينوّر للباحث المتدبر معنى ملكه تعالى لما في السماوات والأرض ، وأن لازم ذلك أن وعد الله حقّ ، وأن الارتياب فيه إنما هو من الجهل بمقامه تعالى .

ولذلك قال تعالى أولاً : ﴿ألا إن لله ما في السماوات والأرض﴾ ثم عقّبه بقوله كالاستنتاج منه : ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ ثم استدرك فقال : ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ثم بين ملكه بقوله : ﴿هو يحيي ويميت﴾ الخ في الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾ احتجاج على ما تقدم في الآية السابقة من ملكه تعالى بالنسبة إلى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول : إن أمركم جميعاً من حياة وموت ورجوع إليه تعالى فكيف لا تكونون ملكاً له .

(بحث روائي)

في تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً﴾ يعني ليلاً ﴿أو نهاراً ماذا يستعجل منه

المجرمون﴾ فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يجحدون نزول العذاب عليهم .

أقول : والرواية تتأيد بالآيات وتؤيد ما أسلفناه من البيان .

وفيه بإسناده عن الحسن بن موسى الخشاب ، عن رجل ، عن حمّاد بن عيسى عمّن رواه ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سئل عن قوله تبارك وتعالى : ﴿وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب﴾ قال : قيل له ما ينفعهم إسرار الندامة وهم في العذاب ؟ قال : كرهوا شماتة الأعداء .

* * *

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ٱللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي

ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) .

(بيـــان)

عاد الكلام في الآيات إلى وصف القرآن الكريم بما له من كرائم الأوصاف ويتلوه متفرقات ترتبط بسابق القول في غرض السورة ، وفيها موعظة وحكمة وحجة على مقاصد شتى ، وفيها وصف أولياء الله وبشارتهم .

قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم**﴾ إلى آخر الآية . قال الراغب في المفردات : الوعظ زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، والعظة والموعظة الاسم ، انتهى . والصدر معروف والناس لمّا وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه وبه يعقل الأمور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو ويتمنى ، عدّوا الصدر خزانة لما في القلب من أسراره والصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل ورذائل ، وفي الفضائل صحة القلب واستقامته ، وفي الرذائل سقمه ومرضه ، والرذيلة داء يقال : شفيت صدري بكذا إذا ذهب به ما في صدره من ضيق وحرج ، ويقال : شفيت قلبي ، فشفاء الصدور وشفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء وتنغّص عيشته السعيدة وتحرمه خير الدنيا والآخرة .

والهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[١] في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها .

والرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدة ضر أو نقص في الغير يبعث الراحم إلى جبر كسره وإتمام نقصه ، وإذا نسبت إليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثّر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيّته تعالى وإفاضته الوجود على خلقه .

وعطيته إذا نسبت إلى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب إليه تعالى من وجودهم وبقائهم ورزقهم الذي يمدّ به بقاءهم وسائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى كثرة وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، وإذا نسبت إلى المؤمنين خاصة كانت هي ما يختص بهم من سعادة الحياة الإنسانية بمظاهرها المختلفة التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقة الإلهية والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة والجنة والرضوان .

ومن ثم إذا وصف القرآن بأنه رحمة للمؤمنين كان معناه أنه يغشي المؤمنين أنواع الخيرات والبركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها وتلبّس بمعانيها ، قال تعالى : ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[٢] .

وإذا أُخذت هذه النعوت الأربعة التي عدّها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية أعني أنه موعظة ﴿وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة﴾ ، وقيس بعضها إلى بعض ثم اعتبرت مع القرآن كانت الآية بياناً جامعاً لعامة أثره الطيب الجميل وعمله الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أول ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكن من نفوسهم ويستقر في قلوبهم .

فإنه يدركهم أول ما يدركهم وقد غشيهم يمّ الغفلة وأحاطت بهم لجة الحيرة فأظلمت باطنهم بظلمات الشك والريب ، وأمرضت قلوبهم بأدواء الرذائل وكل صفة أو حالة ردية خبيثة فيعظهم موعظة حسنة ينبههم بها عن رقدة الغفلة ،

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الإسراء : ٨٢ .

ويزجرهم عما بهم من سوء السريرة والأعمال السيئة ، ويبعثهم نحو الخير والسعادة .

ثم يأخذ في تطهير سرّهم عن خبائث الصفات ، ولا يزال يزيل آفات العقول وأمراض القلوب واحداً بعد آخر حتى يأتي على آخرها .

ثم يدلهم على المعارف الحقة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة دلالة بلطف برفعهم درجة بعد درجة ، وتقريبهم منزلة فمنزلة حتى يستقروا في مستقر المقرَّبين ، ويفوزوا فوز المخلصين .

ثم يلبسهم لباس الرحمة وينزّلهم دار الكرامة ويقرّهم على أريكة السعادة حتى يلحقهم بالنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ويدخلهم في زمرة عباده المقرَّبين في أعلى علّيين .

فالقرآن واعظ شاف لما في الصدور هاد إلى مستقيم الصراط مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه ، وإنما يعظ بما فيه ويشفي الصدور ويهدي ويبسط الرحمة بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصول بين الله وبين خلقه فهو موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . فافهم ذلك .

وقد افتتح سبحانه الآية بقوله : ﴿يا أيها الناس﴾ وهو خطاب لعامة الناس دون المشركين أو مشركي مكة خاصة وإن كانت الآية واقعة في سياق الكلام معهم وذلك لأن النعوت المذكورة فيها بقوله : ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ تتعلق بعامتهم دون قبيل خاص منهم .

ومن غريب التفسير قول بعضهم : إن المراد بالرحمة ما يتصف به المؤمنون من الرحمة والرأفة فيما بينهم وهو خطأ يدفعه السياق البتة .

قوله تعالى : **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** الفضل هو الزيادة ، وتسمى العطية فضلاً لأن المعطي إنما يعطي غالباً ما لا يحتاج إليه من المال ففي تسمية ما يفيضه الله على عباده فضلاً إشارة إلى غناه تعالى وعدم حاجته في إفاضته إلى ما يفيضه ولا إلى من يفيض عليه .

وليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه ، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية إذا

انضمت إلى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجموع منهما أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج .

ومن الممكن أن يتأيد ذلك بقوله : ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ حيث أُدخلت باء السببية على كل من الفضل والرحمة ، وهو مشعر بكون كل واحد منهما سبباً مستقلاً وإن جمع بينهما ثانياً بقوله : ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ للدلالة على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح .

ويمكن أن يكون المراد بالفضل غير الرحمة من الأمور المذكورة في الآية السابقة أعني الموعظة وشفاء ما في الصدر والهدى ، والمراد بالرحمة : الرحمة بمعناها المذكور في الآية السابقة وهي العطيّة الخاصة الإلهية التي هي سعادة الحياة في الدنيا والآخرة .

والمعنى على هذا : إن ما تفضل الله به عليهم من الموعظة وشفاء ما في الصدور والهدى ، وما رحم المؤمنين به من الحياة الطيّبة ذلك أحق أن يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال .

وربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد أبداً ولكن الله يزكّي من يشاء﴾[1] حيث نسب زكاتهم إلى الفضل والرحمة معاً واستناد الزكاة إلى الفضل بمعنى العطية العامة بعيد عن الفهم ، ومما يؤيد هذا الوجه ملاءمته لما ورد في الرواية من تفسير الآية بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام أو بالقرآن والاختصاص به وسيجيء إن شاء الله .

وقوله : ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ ذكروا أن الفاء في قوله : ﴿فليفرحوا﴾ زائدة كقول الشاعر : « فإذا قتلت فعند ذلك فاجزعي » والظرف أعني قوله : ﴿فبذلك﴾ بدل من قوله : ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ ، ومتعلق بقوله : ﴿فليفرحوا﴾ قدّم عليه لإفادة الحصر ، وقوله : ﴿هو خير مما يجمعون﴾ بيان ثان لمعنى الحصر .

فظهر بذلك كله أن الآية تفريع على مضمون الآية السابقة فإنه تعالى لمّا خاطب الناس امتناناً عليهم بأن هذا القرآن موعظة لهم وشفاء لما في صدورهم وهدى ورحمة للمؤمنين منهم فرّع عليه أنه ينبغي لهم حينئذ أن يفرحوا بهذا الذي

---

(١) النور : ٢١ .

امتنّ به عليهم من الفضل والرحمة لا بالمال الذي يجمعونه فإن ذلك ـ وفيه سعادتهم وما تتوقف عليه سعادتهم ـ خير من المال الذي ليس إلا فتنة ربما أهلكتهم وأشقتهم .

قوله تعالى : ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ إلى آخر الآية . نسبة الرزق وهو ما يمد الإنسان في بقائه من الأمور الأرضية من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها إلى الإنزال مبني على حقيقة يفيدها القرآن وهي أن الأشياء لها خزائن عند الله تتنزل من هناك على حسب ما قدّرها الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[(٢)]، وقال : ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[(٣)] وقال : ﴿وأنزلنا الحديد﴾[(٤)].

وأما ما قيل : إن التعبير بالإنزال إنما هو لكون أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله من السماء ، فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الأنعام وفي الحديد ، والرزق الذي تذكر الآية أن الله أنزله لهم فجعلوا منه حراماً وحلالاً هو الأنعام من الإبل والغنم كالوصيلة والسائبة والحام وغيرها .

واللام في قوله : ﴿لكم﴾ للغاية وتفيد معنى النفع أي أنزل الله لأجلكم ولتنتفعوا به ، وليست للتعدية فإن الانزال إنما يتعدى بعلى أو إلى ، ومن هنا أفاد الكلام معنى الإباحة والحل أي أنزلها الله فأحلها ، وهذا هو النكتة في تقديم التحريم على الإحلال في قوله : ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ أي كان الله أحله لكم بإنزاله رزقاً لكم تنتفعون به في حياتكم وبقائكم ولكنكم قسمتموه قسمين من عند أنفسكم فحرّمتم قسماً وأحللتم آخر فالمعنى : قل لهم يا محمد : أخبروني عما أنزل الله لكم ولأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين وجعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً ما هو السبب في ذلك ؟ ومن البيّن أنه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى .

وقوله : ﴿قل الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ سؤال عن سبب تقسيمهم

---

(١) الحجر : ٢١ .
(٢) الذاريات : ٢٢ .
(٣) الزمر : ٦ .
(٤) الحديد : ٢٥ .

الرزق إلى حرام وحلال ، وإذ كان من البيّن أنه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربهم بوحي أو رسول كان من المتعيّن أنه افتراء فالاستفهام في سياق الترديد كناية عن إثبات الافتراء لهم وتوبيخ وذم .

والذي يقضي به النظر الابتدائي أن الترديد في الآية غير حاصر إذ كما يجوز أن يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام وحلال عن إذن من الله او افتراء عليه تعالى كذلك يجوز أن يكون عن مصلحة أحرزوها أو زعموها في ذلك أو عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فيكون افتراء عليه .

ومن وجه آخر الترديد في الآية بين إذن الله والافتراء علي الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراماً وبعضه حلالاً وهو دائر بينهم إما أن يكون من الله او افتراء عليه ، ومن الممكن أن يمنع ذلك في بادىء النظر فكثير من السنن الدائرة بين الناس كوّنتها طبيعة مجتمعهم أو عادتهم القومية وغير ذلك .

لكن التدبر في كلامه تعالى والبحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى ، وليس لأحد من خلقه أن يبادر إلى تشريع حكم ووضعه في المجتمع الإنساني ، قال تعالى : ﴿إن الحكم إلا لله﴾[١] .

وقد أشار تعالى إلى لمّ ذلك في قوله : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[٢] فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمداً على الخلقة والفطرة منطبقاً عليها غير مخالف لما ينطق به الكون والوجود .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً كما قال : ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً﴾[٣] بل خلقهم لأغراض إلهية وغايات كمالية يتوجهون إليها بحسب جبلتهم ويسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب والأدوات وهداهم إليه من السبيل الميسّر لهم كما قال : ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٤] ، وقال : ﴿ثم السبيل يسره﴾[٥] .

فوجود الأشياء في بدء خلقها مناسب لما هيىء لها من منزلة الكمال مجهز

---

(١) يوسف : ٤٠ .
(٢) الروم : ٣٠ .
(٣) المؤمنون : ١١٥ .
(٤) طه : ٥٠ .
(٥) عبس : ٢٠ .

بقوى وأدوات يتوسل بها إلى غايتها ، ولا يسير شيء منها إلى كماله المهيأ له إلا من طريق الصفات الاكتسابية والأعمال ، فمن الواجب بالنظر إلى ذلك أن يكون الدين أعني القوانين الجارية في الصفات والأعمال الاكتسابية منطبقاً على الخلقة والفطرة فإن الفطرة لا تنسى غايتها ولا تتخطاها ، ولا تبعث نحو فعل ولا تزجر عن فعل إلا لدعوة ما جهزت به إليه ، ولا يدعو الجهاز إلا لأجل ما جهز لأجله وهو الغاية .

فالإنسان لما كان مجهزاً بجهاز التغذية والنكاح كان حكمه الحقيقي في دين الفطرة هو التغذي والنكاح دون الجوكية والرهبانية مثلاً ، ولما كان مطبوعاً على الاجتماع والتعاون كان من حكمه أن يشارك سائر الناس في مجتمعهم ويقوم بالأعمال الاجتماعية ، وعلى هذا القياس .

فالذي يتعين للإنسان من الأحكام والسنن هو الذي يدعوه إليه الكون العالمي الذي هو جزء حقير منه ، وقد جهز وجوده بما يسوقه إليه من مرحلة الكمال ، فهذا الكون العام المرتبط بعض أجزائه ببعض ، وهو مركب إرادة الله تعالى هو الحامل للشريعة الفطرية الإنسانية ، والداعي إلى دين الله الحنيف .

فالدين الحق هو حكم الله سبحانه ، لا حكم إلا له ، وهو المنطبق على الخلقة الإلهية ، وما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الإنسان إلا إلى الشقاء والهلاك ولا يهديه إلا إلى عذاب السعير .

ومن هنا ينحل ما تقدم من العقدتين فإن الحكم لما كان لله سبحانه وحده كان كل حكم دائر بين الناس إما حكماً لله حقيقة مأخوذاً من لدنه بوحي أو رسالة أو حكماً مفترى على الله ، ولا ثالث للقسمين .

على أن المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التي ابتدعوها واستنوا بها فيما بينهم إلى الله سبحانه كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ الآية[1] .

قوله تعالى : ﴿**وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة**﴾ إلى آخر الآية ، لما كان جواب الاستفهام المتقدم : ﴿آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ معلوماً من المورد ، وهو أنه افتراء ، استعظم وخامة عاقبته فإنه افتراء

---
(١) الأعراف : ٢٨ .

على الله سبحانه والافتراء من الآثام والذنوب بحكم البداهة فلا محالة له أثر سيء ، ولذلك قال تعالى إيعاداً وتهديداً : ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ .

وأما قوله : **﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾** فهو شكوى وعتبى يشار به إلى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمة الله ، وعدم شكرهم قبال عطيته ونعمته ، والمراد بالفضل ههنا هو العطية الإلهية فإن الكلام في الرزق الذي أنزله الله لهم وهو الفضل ، وتحريمهم بعضه وهو الكفران وعدم الشكر .

وبرجوع ذيل الآية إلى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته ، والمعنى أن الله ذو فضل وعطاء على الناس ولكن أكثرهم كافرون لنعمته وفضله فما ظن الذين يكفرون بنعمة الله ورزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة .

قوله تعالى : **﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً﴾** إلى آخر الآية ، قال الراغب : الشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح ، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور قال : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ . انتهى .

وقوله : ﴿ولا تتلو منه من قرآن﴾ الظاهر أن الضمير إلى الله سبحانه ومن الأولى للابتداء والنشوء والثانية للبيان ، والمعنى : ولا تتلو شيئاً هو القرآن ناشئاً ونازلاً من قبله تعالى ، والإفاضة في الفعل الخوض فيه جمعاً .

وقد وقع في قوله : ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، والنكتة فيه الإشارة إلى كثرة الشهود فإن لله شهوداً على أعمال الناس من الملائكة والناس والله من ورائهم محيط ، والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم للدلالة على أن لهم أعواناً وخدمة .

وليس ينبغي أن يغفل عن أن أصل الالتفات يبدأ من أول الآية فإن الآيات السابقة كانت تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتأخذ المشركين على الغيبة وتكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه ، وقد حوّلت هذه الآية وجه الكلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يخص به نفسه فقالت : ﴿وما تكون من شأن ولا تتلو

منه من قرآن﴾ ثم جمعته والمشركين وغيرهم جميعاً في خطاب واحد فقالت : ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً﴾ وذلك بضمهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك : أنت وقومك تفعلون كذا وكذا .

والدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم والتغليب قوله بعده : ﴿ولا يعزب عن ربك﴾ الخ ، فإنه يكشف عن كون الخطاب معه صلى الله عليه وآله وسلم جارياً على ما كان .

وعلى أي حال فالتحول المذكور في خطاب الآية للإشارة إلى أن السلطنة والإحاطة التامة الإلهية واقعة على الأعمال شهادة وعلماً على أتمّ ما يكون من كل جهة من غير أن يستثنى منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك أو يغفل عن عمل من الأعمال فلا يتوهمن أحد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة ، وليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة وليأخذ حذره .

وذكر تلاوة القرآن مستقلاً مع دخوله في قوله قبلاً : ﴿وما تكون في شأن﴾ فإنه أحد شؤونه صلى الله عليه وآله وسلم للإيماء إلى أهمية أمرها ومزيد العناية بها .

وفي الآية أولاً تشديد في العظة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أُمته ، وثانياً : أن الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن للناس من وحي الله وكلامه لا يطرقه تغيير ولا يدب فيه باطل لا في تلقيه من الله ولا في تلاوته للناس فالآية قريبة المضمون من قوله : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾[1] .

وقوله : ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة**﴾ إلى آخر الآية . العزوب الغيبة والتباعد والخفاء ، وفيه إشارة إلى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبة وحفظه لها في كتاب من غير زوال ، وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله : ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾[2] في الجزء السابع من الكتاب .

قوله تعالى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السورة وهو الدعوة إلى الإيمان بكتاب الله والندب إلى توحيد الله تعالى بمعناه الوسيع .

---

(١) الجن : ٢٨ .
(٢) الأنعام : ٥٩ .

وللدلالة على أهمية المطلب افتتح بلفظة ﴿ألا﴾ التنبيهية ، والله سبحانه يذكر في هذه الآية والآيتين بعدها أولياءه ويعرّفهم ويصف آثار ولايتهم وما يختصون به من الخصيصة .

والولاية وإن ذكروا لها معاني كثيرة لكن الأصل في معناها ارتفاع الواسطة الحائلة بين الشيئين بحيث لا يكون بينهما ما ليس منهما ، ثم استعيرت لقرب الشيء من الشيء بوجه من وجوه القرب كالقرب نسباً أو مكاناً أو منزلة أو بصداقة أو غير ذلك ولذلك يطلق الولي على كل من طرفي الولاية ، وخاصة بالنظر إلى أن كلاً منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره فالله سبحانه وليّ عبده المؤمن لأنه يلي أمره ويدبّر شأنه فيهديه إلى صراطه المستقيم ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والمؤمن حقاً وليّ ربه لأنه يلي منه إطاعته في أمره ونهيه ويلي منه عامة البركات المعنوية من هداية وتوفيق وتأييد وتسديد وما يعقبها من الإكرام بالجنة والرضوان .

فأولياء الله ـ على أي حال ـ هم المؤمنون فإن الله يعدّ نفسه ولياً لهم في حياتهم المعنوية حيث يقول : ﴿والله ولي المؤمنين﴾[1] .

غير أن الآية التالية لهذه الآية المفسرة للكلمة تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[2] ، فإن قوله في الآية التالية : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يعرّفهم بالإيمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل : ﴿آمنوا﴾ ثم قيل عطفاً عليه : ﴿وكانوا يتقون﴾ فدلّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم ومن المعلوم أن الإيمان الابتدائي غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى وخاصة التقوى المستمر .

فالمراد بهذه الإيمان مرتبة أخرى من مراتب الإيمان غير المرتبة الأولى منه . فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب[3] أن لكل من الإيمان والإسلام وكذا الشرك والكفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض فالمرتبة الأولى من الإسلام

---

(١) آل عمران : ٦٨ . (٢) يوسف : ١٠٦ . (٣) البقرة : ١٣٠ .

إجراء الشهادتين لساناً والتسليم ظاهراً ، وتليه المرتبة الأولى من الإيمان وهو الإذعان بمؤدّى الشهادتين قلباً إجمالاً وإن لم يسر إلى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق ، ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات ، قال تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾(١) .

ولا يزال إسلام العبد يصفو وينمو حتى يستوعب تسليمه لله سبحانه في كل ما يرجع إليه وإليه مصير كل أمر ، وكلما ارتفع الإسلام درجة ورقى مرتبة كان الإيمان المناسب له الإذعان بلوازم تلك المرتبة حتى يسلم العبد لربه حقيقة معنى ألوهيته ، وينقطع عنه السخط والاعتراض فلا يسخط لشيء من أمره من قضاء وقدر وحكم ، ولا يعترض على شيء من إرادته ، وبإزاء ذلك الإيمان باليقين بالله وجميع ما يرجع إليه من أمر ، وهو الإيمان الكامل الذي تتم به للعبد عبوديته .

قال تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾(٢)، والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآية أعني قوله : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فإنه الإيمان المسبوق بتقوى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى كما تقدم .

على أن توصيفه أهل هذا الإيمان بأنهم ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يدل على أن المراد منه الدرجة العالية من الإيمان الذي يتم معه معنى العبودية والمملوكية المحضة للعبد الذي يرى معه أن الملك لله وحده لا شريك له ، وأن ليس إليه من الأمر شيء حتى يخاف فوته أو يحزن لفقده .

وذلك أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود إليها ، والحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحبه أو تحقق ما تكرهه مما يعود إليها نفعه أو ضرره ، ولا يستقيم تحقق ذلك إلا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكاً أو حقاً متعلقاً بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك . وأما ما لا علقة للإنسان به بوجه من الوجوه أصلاً فلا يخاف الإنسان عليه ولا يحزن لفقده البتة .

والذي يرى كل شيء ملكاً طلقاً لله سبحانه لا يشاركه في ملكه أحد لا يرى

---

(١) يوسف : ١٠٦ .   (٢) النساء : ٦٥ .

لنفسه ملكاً أو حقاً بالنسبة إلى شيء حتى يخاف في أمره أو يحزن ، وهذا هو الذي يصفه الله من أوليائه إذ يقول : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا أن يشاء الله وقد شاء أن يخافوا من ربهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم وهذا كله من التسليم لله فافهم ذلك .

فإطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين : عدم الخوف وعدم الحزن في النشأتين الدنيا والآخرة ، وأما مثل قوله تعالى : ﴿إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾[1] فإنّ ظاهر الآيات وإن كان هو أنها تريد الأولياء بالمعنى الذي تصفه الآية التي نحن فيها إلا أن إثبات عدم الخوف والحزن لهم يوم القيامة لا ينفي ذلك عنهم في غيره . نعم هناك فرق من جهة أخرى وهو خلوص النعمة والكرامة وبلوغ صفائها يوم القيامة وكونها مشوبة غير خالصة في غيره .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[2] فإن الآيات وإن كانت ظاهرة في كون هذا التنزل والقول والبشارة يوم الموت لمكان قوله : ﴿كنتم توعدون﴾ وقوله : ﴿أبشروا﴾ غير أن الإثبات في وقت لا يكفي للنفي في وقت آخر كما عرفت .

هذا ما تدل عليه الآية بحسب إطلاق لفظها وتأييد سائر الآيات لها ، وقد قيّد أكثر المفسرين قوله : ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ـ بالاستناد إلى آيات الآخرة ـ بيوم الموت والقيامة ، وأهملوا ما تفيده خصوصية اللفظ في قوله : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وأخذوا الإيمان والتقوى أمرين متقارنين فرجع المعنى إلى أن أولياء الله هم المتقون من أهل الإيمان ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون وهذا ـ كما عرفت ـ من التقييد من غير مقيّد .

وعمّم بعضهم نفي الخوف والحزن فذكر أنهم متصفون به في الدنيا والآخرة غير أنه أفسد المعنى من جهة أخرى فقال : إن المراد بالأولياء على ما تفسرهم به الآية الثانية جميع المتقين من المؤمنين ، والمراد بعدم خوفهم

---

(١) الزخرف : ٧٠ . (٢) فصلت : ٣١ .

وحزنهم أنهم لا يخافون في الآخرة مما يخاف منه الكافرون والفاسقون والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الموقف وعذاب الآخرة ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم .

قال : وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا ، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فإنما يربيهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرّحت بذلك الآيات الكثيرة . انتهى .

أما تقييده الآية بأن المنفي عن الأولياء هو الخوف والحزن اللذين يعرضان للكفار دون ما يعرض لعامة المؤمنين بحسب الطبع البشري واستناده في ذلك إلى الآيات الكثيرة فهو من التقييد من غير مقيد ، وأما قوله : إن أصل الخوف والحزن مما لا يسلم منه أحد أصلاً فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمقه في البحث عن الأخلاق العالية والمقامات المعنوية الإنسانية فحمله ذلك على أن يقيس حال المكرمين من عباد الله المقرّبين من الأنبياء والأولياء إلى ما يجده من حال المتوسطين من عامة الناس فزعم أن ما يغشى العامة من الأعراض التي سماها أحوالاً طبيعية يغشى الخاصة لا محالة ، وأن ما يتعذر أو يتعسر على المتوسطين من الأحوال فهو كذلك عند الكاملين ، ولا يبقى حينئذ للمقامات المعنوية والدرجات الحقيقية إلا أنها أسماء ليس وراءها حقيقة ، واعتبارات وضعية اصطلح عليها نظير المقامات الوهمية والدرجات الرسمية الاجتماعية التي نتداولها في مجتمعاتنا لمصلحة الاجتماع .

فلا وفى حق البحث العلمي حتى يهديه إلى حق النتيجة فيتبين أن التوحيد الكامل يقصر حقيقة الملك في الله سبحانه فلا يبقى لغيره شيء من الاستقلال في التأثير حتى يتعلق به لنفسه حب أو بغض أو خوف أو حزن ولا فرح ولا أسى ولا غير ذلك ، وإنما يخاف هذا الذي غشيه التوحيد ويحزن أو يحب أو يكره بالله سبحانه ، ويرتفع التناقض حينئذ بين قولنا : إنه لا يخاف شيئاً إلا الله وبين قولنا : إنه يخاف كثيراً مما يضره ويحذر أموراً يكرهها فافهم ذلك .

ولا البحث القرآني أتقن واستفرغ فيه الوسع حتى يظهر له أن قوله تعالى :

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أطلق فيه نفي الخوف والحزن من غير تقييد بشيء أو حال إلا ما صرّح به آيات من وجوب مخافة الله فهؤلاء لا يخافون من شيء في دنيا ولا آخرة إلا من الله سبحانه ولا يحزنون .

وأما الآيات الكثيرة التي تصف المؤمنين بعدم الخوف والحزن عند الموت أو يوم القيامة فهي إنما تصف أحوالهم في ظرف ولا يستوجب نفي شيء أو إثباته في مورد خلافه في غيره وهو ظاهر .

والآية مع ذلك تدل على أن هذا الوصف إنما هو لطائفة خاصة من المؤمنين يمتازون عن غيرهم بمرتبة خاصة من الإيمان تخصهم دون غيرهم من عامة المؤمنين وذلك بما يفسّرها من قوله : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ بما تقدم من تقرير دلالته .

وبالجملة ارتفاع الخوف من غير الله والحزن عن الأولياء ليس معناه أن الخير والشر والنفع والضرر والنجاة والهلاك والراحة والعناء واللذة والألم والنعمة والبلاء متساوية عندهم ومتشابهة في إدراكهم فإن العقل الإنساني بل الشعور العام الحيواني لا يقبل ذلك .

بل معناه أنهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً ، ويقصرون الملك والحكم فيه تعالى فلا يخافون إلا إياه أو ما يحب الله ويريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه .

قوله تعالى : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك الفوز العظيم﴾ يبشّرهم الله تعالى بشارة إجمالية بما تقر به أعينهم فإن كان قوله : ﴿لهم البشرى﴾ إنشاء للبشارة كان معناه وقوع ما بشّر به في الدنيا وفي الآخرة كلتيهما ، وإن كان إخباراً بأن الله سيبشّرهم بشرى كانت البشارة واقعة في الدنيا وفي الآخرة ، وأما المبشّر به فهل يقع في الآخرة فقط أو في الدنيا والآخرة معاً ؟ الآية ساكتة عن ذلك .

وقد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[1] ، وقوله : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[2] وقوله : ﴿بشراكم اليوم

---

(١) الروم : ٤٧ .
(٢) غافر : ٥١ .

جنات تجري من تحتها الأنهار﴾(١) إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ إشارة إلى أن ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبدل إليه ، وفيه تطييب لنفوسهم .

قوله تعالى : ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ تأديب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بتعزيته وتسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه والطعن في دينه والاعتزاز بشركائهم وآلهتهم كما يشعر به القول في الآية التالية فكاد يحزن لله فسلاه الله وطيّب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده وهو أن العزة لله وأنه سميع لمقالهم عليم بحاله وحالهم وإذ كان له تعالى كل العزة فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزة الوهمية فهذوا ما هذوا ، وإذ كان سميعاً عليماً فلو شاء لأخذهم بالنكال وإذ كان لا يأخذهم فإنما في ذلك مصلحة الدعوة وخير العاقبة .

ومن هنا يظهر أن كلًّا من قوله : ﴿إن العزة لله﴾ وقوله : ﴿هو السميع العليم﴾ علة مستقلة للنهي ولذا جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : ﴿ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض﴾ إلى آخر الآية فيه بيان مالكيته تعالى لكل من في السماوات والأرض التي بها يتم للإله معنى الربوبية فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه ، وهذا الملك لله وحده لا شريك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركة إلا ما في ظن الداعين وفي خرصهم من المفهوم الذي لا مصداق له .

فالآية تقيس شركاءهم إليه تعالى وتحكم أن نسبتهم إليه تعالى نسبة الظن والخرص إلى الحقيقة والحق ، والباقي ظاهر .

وقد قيل : ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ ولم يقل : ما في السماوات وما في الأرض لأن الكلام في ربوبية العباد من ذوي الشعور والعقل وهم الملائكة والثقلان .

قوله تعالى : ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ الآية . الآية تتمم البيان الذي اورد في الآية السابقة لإثبات ربوبيته تعالى والربوبية ـ كما تعلم ـ هي الملك والتدبير ، وقد ذكر ملكه تعالى في الآية

---

(١) الحديد : ١٢ .

السابقة ، فبذكر تدبير من تدابيره العامة في هذه الآية تصلح به عامة معيشة الناس وتستبقي به حياتهم يتم له معنى الربوبية .

وللإشارة إلى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه ، ومع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم إلى أنواع الحركات والتنقلات لكسب مواد الحياة وإصلاح شؤون المعاش فليس يتم أمر الحياة الإنسانية بالحركة فقط أو بالسكون فقط فدبّر الله سبحانه الأمر في ذلك بظلمة الليل الداعية إلى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العي والتعب والنصب وإلى الارتياح والأنس بالأهل والتمتع مما جمع واكتسب بالنهار والفراغ للعبودية ، وبضوء النهار الباعث إلى الرؤية فالاشتياق فالطلب .

قوله تعالى : ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض﴾ إلى آخر الآية . الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو أن يفصل الموجود الحي بعض أجزاء مادّته فيربيه بالحمل أو البيض تربية تدريجية حتى يتكون فرداً مثله ، والإنسان من بينها خاصة ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر وذخراً ليوم الفاقة ، وهذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عزَّ اسمه منزّه عن الأجزاء متعال عن التدريج في فعله بريء عن المثل والشبه مستغن عن غيره بذاته .

وقد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكورة كما تعرّض لنفيه من جميعها في قوله : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[1] وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب .

وأما الآية التي نحن فيها فهي مسوقة للاحتجاج على نفي الولد من الجهة الأخيرة فحسب وهو أن الغرض من وجوده الاستعانة به عند الحاجة وذلك إنما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً ، والله سبحانه هو الغني الذي لا يخالطه فقر فإنه المالك لما فرض في السماوات والأرض من شيء .

وقوله : ﴿إن عندكم من سلطان﴾ أي برهان ﴿بهذا﴾ إثبات لكونهم إنما

(١) البقرة : ١١٧ .

قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى أنه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه وهو أنه تعالى غني على الإطلاق ، والولد إنما يطلبه من به فاقة وحاجة ، والكلام على ما اصطلح عليه في فن المناظرة من قبيل المنع مع السند .

وقوله : ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ توبيخ لهم في قولهم ما ليس لهم به علم ، وهو مما يستقبحه العقل الإنساني ولا سيما في ما يرجع إلى رب العالمين عزّ اسمه .

قوله تعالى : ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ تخويف وإنذار بشؤم العاقبة ، وفي الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله أولاً عنهم من طريق الغيبة قولهم : ﴿اتخذ الله ولداً﴾ ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا إليه وافتروا عليه فقال : ﴿إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ وإنما خاطبهم متنكراً من غير أن يعرّفهم نفسه حيث قال : ﴿على الله﴾ ولم يقل : عليّ أو علينا صوناً لعظمة مقامه أن يخالطهم معروفاً ثم أعرض عنهم تنزهاً عن ساحة جهلهم ورجع إلى خطاب رسوله قائلاً : ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ لأنه إنذار والإنذار شأنه .

قوله تعالى : ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس بحذائه إلا متاع قليل في الدنيا ثم الرجوع إلى الله والعذاب الشديد الذي يذوقونه .

(بحث روائي)

في أمالي الشيخ قال : أخبرنا أبو عمرو قال : أخبرنا أحمد قال : حدثنا يعقوب بن يوسف بن زياد قال : حدثنا نصر بن مزاحم قال : حدثنا محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : ﴿بفضل الله وبرحمته﴾ بفضل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبرحمته علي عليه السلام .

أقول : ورواه الطبرسي وابن الفارسي عنه مرسلاً ، ورواه أيضاً في الدر المنثور عن الخطيب وابن عساكر عنه .

وفي المجمع قال ابو جعفر الباقر عليه السلام: فضل الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام.

أقول : وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نعمة أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من الرسالة ومواد الهداية ، وعلي عليه السلام هو أول فاتح لباب الولاية وفعليّة التحقّق بنعمة الهداية فهو الرحمة فينطبق الخبر على ما قدمناه في تفسير الآية .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس : ﴿قل بفضل الله﴾ القرآن و ﴿برحمته﴾ حين جعلهم من أهل القرآن .

أقول : أي الفضل مواد المعارف والأحكام التي فيه ، والرحمة فعلية تحقّق ذلك في العاملين به فيرجع إلى ما قدمناه في تفسير الآية فتبصّر ، ولا مخالفة بين هذه الرواية والرواية السابقة حينئذ بحسب الحقيقة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وما تكون في شأن﴾ الآية ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً .

أقول : ورواه في المجمع عن الصادق عليه السلام.

وفي أمالي المفيد بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال : سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فقيل له : من هؤلاء الأولياء ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قوم أخلصوا لله في عبادته ، ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها فعرفوا آجلها حين غرّت الخلق سواهم بعاجلها فتركوا ما علموا أنه سيتركهم ، وأماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم .

ثم قال : أيها المطل نفسه بالدنيا الراكض على حبائلها المجتهد في عمارة ما سيخرب منها ألم تر إلى مصارع آبائك في البلاد ومصارع أبنائك تحت الجنادل والثرى ؟ كم مرضت ببدنك وعللت بكفنك تستوصف لهم الأطباء ، وتستغيث لهم الأحباء فلم تغن عنهم غناءك ، ولا ينجع عنهم دواؤك ؟

وفي تفسير العيّاشي عن مرثد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال : وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قال : إذا أدّوا فرائض الله ، وأخذوا بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتورعوا

عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا ، ورغبوا فيما عند الله ، واكتسبوا الطيّب من رزق الله ، ولا يريدون هذا التفاخر والتكاثر ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ما قدموا لآخرتهم .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والحكيم والترمذي عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول : إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله تعالى فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاء من الله . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث في معنى الولاية يرجع بعضها إلى بعض وينطبق الجميع على ما قدمناه في تفسير الآية .

وفيه أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قال : يذكر الله لرؤيتهم .

أقول : ينبغي أن يحمل إلى أن من آثار ولايتهم ذلك لا أن كل من كان كذلك كان من أهل الولاية إلا أن يراد أنهم كذلك في جميع أحوالهم وأعمالهم ، وفي معناها ما روي عن أبي الضحى وسعد عن النبي ﷺ في الآية قال : إذا رأوا ذكر الله .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل من أهل البادية رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فقال رسول الله ﷺ : أما قوله : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشّر بها في دنياه ، وأما قوله : ﴿وفي الآخرة﴾ فإنها بشارة المؤمن عند الموت أن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنّة ورواها الصدوق مرسلاً وقوله : ﴿ترى للمؤمن﴾ بصيغة المجهول أعم من أن يراها هو

نفسه أو غيره وقوله : ﴿عند الموت﴾ قد أضيف إليه في بعض الروايات البشرى يوم القيامة بالجنة .

وفي المجمع في قوله : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ عن أبي جعفر عليه السلام في معنى البشارة في الدنيا : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة وهي ما يبشّرهم به الملائكة عند خروجهم من القبور ، وفي القيامة إلى أن يدخلوا الجنة يبشّرونهم حالاً بعد حال .

أقول : وقال بعد ذلك : وروي ذلك في حديث مرويٍ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انتهى وروى مثله عن الصادق عليه السلام ورواه القمي في تفسيره مضمراً .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن زريق عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ قال : هو أن يبشراه بالجنة عند الموت يعني محمداً وعلياً عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى . قلت : جعلت فداك وما يرى ؟ قال : يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول له رسول الله . أنا رسول الله أبشر ، ثم قال : ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول : أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحب أما لأنفعنك اليوم .

قال : قلت له : أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا ؟ قال : إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك قال : وذلك في القرآن قول الله عز وجل : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله﴾ .

أقول : وهذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بطرق كثيرة جداً وقوله : ﴿وأعظم ذلك﴾ أي عده عظيماً . وقد أخذ في الحديث قوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كلاماً مستقلاً ففسره بما فسر ، وتقدم نظيره في رواية الدر المنثور عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ مع أن ظاهر السياق كون الآية مفسرة لقوله قبلها : ﴿ألا إن أولياء الله﴾ الآية وهو يؤيد ما قدمناه في بعض الأبحاث السابقة أن جميع التقادير من التركيبات الممكنة في كلامه تعالى

حجة يحتج بها كما في قوله : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾[1] وقوله : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم﴾ وقوله : ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ وقوله : ﴿قل الله﴾ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ولكن المبشرات . قالوا : يا رسول الله وما المبشرات قال : رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة .

أقول : وروي ما في معناه عن أبي قتادة وعائشة عنه ﷺ .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاث : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، والرؤيا من تحزن والرؤيا مما يحدّث بها الرجل نفسه . وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل ولا يحدّث به الناس . الحديث .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ : الرؤيا على ثلاثة : تخويف من الشيطان ليحزن به ابن آدم ومنه الأمر يحدّث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ومنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

أقول : أما انقسام الرؤيا إلى الأقسام الثلاثة كما ورد في الروايتين وفي معناهما روايات أخرى من طرق أهل السنّة وأخرى من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام فسيجيء توضيحه في تفسير سورة يوسف إن شاء الله تعالى .

وأما كون الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فقد وردت به روايات كثيرة من طرق أهل السنة رواها عنه ﷺ جمع من الصحابة كأبي هريرة وعبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري وأبي رزين ، وروى أنس وأبو قتادة وعائشة عنه ﷺ أنها من أجزاء النبوة كما تقدم .

وعن الصفدي أنه وجه الرواية بأن مدة نبوة النبي ﷺ ثلاث وعشرون سنة

---

(١) الأنعام : ٩١ .

دعا فيها إلى ربه ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ، وعشر سنين بعدها ، وقد ورد أن الوحي كان يأتيه ستة أشهر من أولها من طريق الرؤيا الصالحة حتى نزل القرآن ، والنسبة بين الستة الأشهر وبين الثلاث وعشرين سنة نسبة الواحد إلى الستة والأربعين .

وقد روي عن ابن عمر وأبي هريرة عنه ﷺ أنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة فإن صحت هذه الرواية كان المراد بالتعداد مجرّد التكثير من غير خصوصية لعدد السبعين .

واعلم أن الرؤيا ربما أُطلقت في لسان القرآن والحديث على ما يشاهده الرائي ما لا يشاهده غيره وإن لم ينم نومه الطبيعي ، وقد نبهنا عليه في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وأحسن كلمة في تفسيرها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : تنام عيني ولا ينام قلبي .

* * *

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) .

(بيـان)

تذكر الآيات إجمال قصة نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل إلى زمن موسى وهارون عليهما السلام ، وما عامل به الله سبحانه أممهم المكذّبين لرسلهم حيث أهلكهم ونجا رسله والمؤمنين بهم ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿**واتل عليهم نبأ نوح**﴾ إلى آخر الآية المقام مصدر ميمي واسم زمان ومكان من القيام ، والمراد به الأول أو الثالث أي قيامي بأمر الدعوة إلى توحيد الله أو مكانتي ومنزلتي وهي منزلة الرسالة ، والإجماع العزم وربما يتعدى بعلى قال الراغب : وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوسل إليه بالفكرة نحو فأجمعوا كيدكم وشركاءكم .

والغمة هي الكربة والشدة وفيه معنى التغطية كأن الهم يغطي القلب ، ومنه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء ، والقضاء إلى الشيء إتمام أمره بقتل وإفناء ونحو ذلك .

ومعنى الآية : ﴿واتل﴾ يا محمد ﴿عليهم نبأ نوح﴾ وخبره العظيم حيث واجه قومه وهو واحد يتكلم عن نفسه ، وهو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك ، وأتم الحجة على مكذبيه في ذلك ﴿**إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي**﴾ ونهضتي لأمر الدعوة إلى التوحيد أو منزلتي من الرسالة ﴿**وتذكيري بآيات الله**﴾ وهو داعيكم لا محالة إلى قتلي وإيقاع ما تقدرون عليه من الشر بي لإراحة أنفسكم مني ﴿**فعلى الله توكلت**﴾ قبال ما يهددني من تحرج صدوركم وضيق نفوسكم عليّ بإرجاع أمري إليه وجعله وكيلاً يتصرف في شؤوني ومن غير أن أشتغل بالتدبير ﴿**فأجمعوا أمركم وشركاءكم**﴾ الذين تزعمون أنهم ينصرونكم في الشدائد ، واعزموا عليّ بما بدا لكم ، وهذا أمر تعجيزي ﴿**ثم لا يكن أمركم عليكم غمة**﴾ إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسل إلى كل سبب في دفعي ﴿**ثم اقضوا إليّ**﴾ بدفعي وقتلي ﴿**ولا تنظرون**﴾ ولا تمهلوني .

وفي الآية تحديه عليه السلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم ، وإظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه وإن أجمعوا عليه وانتصروا بشركائهم وآلهتهم .

قوله تعالى : ﴿فإن توليتم فما سألتكم عليه من أجر﴾ إلى آخر الآية . تفريع على توكله بربه ، وقوله : ﴿فما سألتكم﴾ الخ ، بمنزلة وضع السبب موضع المسبب والتقدير فإن توليتم وأعرضتم عن استجابة دعوتي فلا ضير لي في ذلك فإني لا أتضرر في إعراضكم شيئاً لأني إنما كنت أتضرر بإعراضكم عني لو كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالإعراض وما سألتكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله .

وقوله : ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي الذين يسلّمون الأمر إليه فيما أراده لهم وعليهم ، ولا يستكبرون عن أمره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها ويتوقعوا به إيصال نفع أو دفع شر .

قوله تعالى : ﴿فكذّبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾ إلى آخر الآية ، الخلائف جمع خليفة أي جعلنا هؤلاء الناجين خلائف في الأرض والباقين من بعدهم يخلفون سلفهم ويقومون مقامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾ إلى آخر الآية ، يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح إلى زمن موسى عليهم السلام . وظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزة التي اقترحتها الأمم على أنبيائهم بعد مجيئهم ودعوتهم وتكذيبهم لهم فأتوا بها وكان فيها القضاء بينهم وبين اممهم ، ويؤيده قوله بعده : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ الخ ، فإن السابق إلى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانياً بما كذبوا به أولاً .

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثّوا دعوتهم فيهم ودعوهم إلى توحيد الله فكذبوا به وبهم ثم اقترحوا عليهم آية معجزة فجاءوهم بها فلم يؤمنوا .

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآية في تفسير قوله : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾[١] في الجزء الثامن من الكتاب ، وبيّنا هناك أن في الآية إشارة إلى عالم الذرّ غير أنه لا ينافي إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفاً فليراجع .

---

(١) الأعراف : ١٠١ .

(بحث روائي)

في الكافي عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن اسماعيل عن صالح بن عقبة عن عبد الله بن محمد الجعفيّ وعقبة جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب فكان مما[1] أحب أن خلقه من طين الجنة وخلق من أبغض مما أبغض وكان ما أبغضه أن خلقه من طينة النار ثم بعثهم في الظلال ، فقلت : وأي شيء الظلال ؟ فقال : ألم ترَ إلى ظلك في الشمس شيء وليس بشيء .

ثم بعث منهم النبيين فدعوهم إلى الإقرار بالله عز وجل : ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ ثم دعوهم إلى الإقرار بالنبيين فأقرَّ بعض وأنكر بعض ، ثم دعوهم إلى ولايتنا فأقرّ بها والله من أحب وأنكرها من أبغض ، وهو قوله : ﴿ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ . ثم قال ابو جعفر عليه السلام : كان التكذيب من قبل .

أقول : ورواه في العلل بإسناده إلى محمد بن اسماعيل عن صالح عن عبد الله وعقبة عنه عليه السلام ، ورواه العياشي عن الجعفي عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران عن ابي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : خلق الخلق وهم أظلة فأرسل رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمنهم من آمن به ومنهم من كذّبه ثم بعثه في الخلق الآخر فآمن به من كان آمن به في الأظلة وجحده من جحده يومئذ فقال : ﴿ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ .

أقول : قد فصّلنا القول في ما يسمى عالم الذرّ في تفسير قوله تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ الآية . وأوضحنا هناك أن آيات الذرّ تثبت عالماً إنسانياً آخر غير هذا العالم الإنساني المادي التدريجي المشوب بالآلام والمصائب والمعاصي والآثام المشهود لنا من طريق الحسّ .

وهو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعاً من المقارنة لكنه غير محكوم بهذه الأحكام المادية ، وليس تقدّمه على عالمنا هذا تقدماً بالزمان بل بنوع آخر من

---

(١) الظاهر (ما) .

التقدم نظير التقدم المستفاد من قوله : ﴿أن يقول له كن فيكون﴾[١] فإن ﴿كن﴾ و﴿يكون﴾ يحكيان عن مصداق واحد وهو وجود الشيء خارجاً لكن هذا الوجود بعينه بوجهه الذي إلى الله متقدم عليه بوجهه الآخر ، وهو بوجهه الرباني غير تدريجي ولا زماني ولا غائب عن ربه ولا منقطع عنه بخلاف وجهه إلى الخلق على التفصيل الذي تقدم هناك .

والذي أوردناه من الرواية في هذا البحث الروائي تشير إلى عالم الذر كالذي مرّت سابقاً غير أنها تختص بمزية وهي ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإن بإجادة التأمل في هذا التعبير يتضح المراد أحسن الاتضاح فإن في الأشياء الكونية أموراً هي كالظلال في أنها لازمة لها حاكية لخصوصيات وجودها وآثار وجودها ، ومع ذلك فهي هي وليست هي .

فإنا إذا نظرنا إلى الأشياء وجرّدنا النظر ومحضناه في كونها صنع الله وفعله المحض غير المنفك منه ولا المنفصل عنه ـ وهي نظرة حقة واقعية ـ لم يتحقق فيها إلا التسليم لله والخضوع لإرادته والتذلل لكبريائه والتعلق برحمته وأمر ربوبيته والإيمان بوحدانيته وبما أرسل به رسله وأنزله إليهم من دينه .

وهذه الوجودات ظلال ـ أشياء وليست بأشياء ـ إذا قيست إلى وجودات الأشياء المادية ، وأُخذ العالم المادي أصلاً مقيساً إليه وهو الذي بنت عليه الآيات من جهة كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفاً لا محيص عنه مسؤولاً عنه يوم القيامة .

ولو أُخذت جهة الرب تعالى أصلاً وقيس إليه هذا العالم المادي بما فيه من الموجودات المادية ـ وهو أيضاً نظر حق ـ كان هذا العالم هو الظل وكانت جهة الرب تعالى هو الأصل والشخص الذي له الظل كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[٢]، وقوله : ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك﴾[٣] .

وأما ما رواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ قال : ﴿بعث الله الرسل إلى الخلق وهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء فمن صدّق حينئذ صدّق بعد ذلك ، ومن كذّب

---

(١) يس : ٨٢ . (٢) القصص : ٨٨ . (٣) الرحمن : ٢٧ .

حينئذ كذّب بعد ذلك﴾ .

فظاهره أن للبعث تعلقاً بالنطف التي في الأصلاب والأرحام . وهم أحياء عقلاء مكلفون ، وهذا مما يدفعه الضرورة كما تقدم في الكلام على آية الذر اللهم إلا أن يحمل على أن المراد كون عالم الذر محيطاً بهذا العالم المادي التدريجي الزماني من جهة كونه غير زماني فلا يتعلق الوجود الذري بزمان دون زمان ، وهو مع ذلك محمل بعيد .

* * *

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَهٰرُونَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا مَآ أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَآ آمَنَ لِمُوسىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِٱللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا

بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ آمَنَتْ بِهِ إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْئٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) .

(بيـــان)

ثم ساق الله سبحانه نبأ موسى وأخيه ووزيره هارون مع فرعون وملئه وقد أوجز في القصة غير أنه ساقها سوقاً ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته عتاة قومه والطواغيت من قريش وغيرهم ، وعدم إيمانهم به إلا ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجأوا إلى الهجرة فهاجر هو صلى الله عليه وآله وسلم وجمع من المؤمنين به إلى المدينة فعقبه فراعنة هذه الأمة وملؤهم فأهلكهم الله بذنوبهم وبوأ الله المؤمنين ببركة الإسلام مبوأ صدق ورزقهم من الطيبات ثم

اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وسيقضي الله بينهم .

فكان ذلك كله تصديقاً لما أسرّ الله سبحانه إلى نبيه ﷺ في هذه الآيات فيما سيستقبله وقومه من الحوادث ، ولقوله ﷺ يخاطب أصحابه وأمته : لتتبعن سنّة بني إسرائيل حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه .

قوله تعالى : ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ الخ ، أي ثم بعثنا من بعد نوح والرسل الذين من بعده موسى وأخاه هارون بآياتنا إلى فرعون والجماعة الذين يختصّون به من قومه وهم القبط فاستكبروا عن آياتنا وكانوا مستمرين على الإجرام .

قوله تعالى : ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الخ ، الظاهر أن المراد بالحق هو الآية الحقة كالثعبان واليد البيضاء ، وقد جعلهما الله آية لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق ﴿قالوا﴾ وأكدوا القول : ﴿إن هذا﴾ ـ يشرون إلى الحق من الآية ـ ﴿لسحر مبين﴾ واضح كونه سحراً ، وإنما سمّى الآية حقّاً قبال تسميتهم إياها سحراً .

قوله تعالى : ﴿قال موسى أتقولون للحق لمّا جاءكم أسحر هذا﴾ الخ ، أي فلمّا سمع مقالتهم تلك ورميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكراً لقولهم في صورة الاستفهام : ﴿أتقولون للحق لمّا جاءكم﴾ إنّه لسحر ؟ ثم كرّر الإنكار مستفهماً بقوله : ﴿أسحر هذا﴾ ؟ فمقول القول في الجملة الاستفهامية محذوف إيجازاً لدلالة الاستفهام الثاني عليه ، وقوله : ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ يمكن أن يكون جملة حاليّة معلّلة للإنكار الذي يدل عليه قوله : ﴿أسحر هذا﴾ ويمكن أن يكون إخباراً مستقلاً بياناً للواقع يبرّىء به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح وللساحرين انهم لا يفلحون .

قوله تعالى : ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا﴾ الخ ، اللفت هو الصرف عن الشيء ، والمعنى : قال فرعون وملؤه لموسى معاتبين له : ﴿أجئتنا لتلفتنا﴾ وتصرفنا ﴿عمّا وجدنا عليه آباءنا﴾ يريدون سنّة قدمائهم وطريقتهم ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ يعنون الرئاسة والحكومة وانبساط القدرة ونفوذ الإرادة يؤمّون بذلك أنكما اتخذتما الدعوة الدينية وسيلة إلى إبطال طريقتنا المستقرة في الأرض ، ووضع طريقة جديدة أنتما واضعان مبتكران لها موضعها

تحوزان بإجرائها في الناس وإيماننا بكما وطاعتنا لكما الكبرياء والعظمة في المملكة .

وبعبارة أخرى إنما جئتما لتبدّلا الدولة الفرعونية المتعرقة في القبط إلى دولة إسرائيلية تدار بإمامتكما وقيادتكما ، وما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكما وتبلغا غايتكما من هذه الدعوة المزوّرة .

قوله تعالى : **﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾** كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحرة معجزة موسى كما فصّل في سائر الآيات القاصّة للقصّة وتدل عليه الآيات التالية .

قوله تعالى : **﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا﴾** الخ ، أي لمّا جاءوا وواجهوا موسى وتهيؤوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال والعصي ، وقد كانوا هيؤوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيّات والثعابين بسحرهم .

قوله تعالى : **﴿فلمّا ألقوا قال لهم موسى ما جئتم به السحر﴾** ما قاله عليه‌السلام بيان لحقيقة من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيرورة العصا ثعباناً يلقف ما ألقوه من الحبال والعصي وأظهروه في صور الحيّات والثعابين بسحرهم .

والحقيقة التي بيّنها لهم أن الذي جاءوا به سحر والسحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورة الحق الواقع لحواس الناس وأنظارهم ، وإذ كان باطلاً في نفسه فإن الله سيبطله لأن السنّة الإلهية جارية على إقرار الحق وإحقاقه في التكوين وإزهاق الباطل وإبطاله فالدولة للحق وإن كانت للباطل جولة أحياناً .

ولذا علّل قوله : **﴿إن الله سيبطله﴾** بقوله : **﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾** فإن الصلاح والفساد شأنان متقابلان ، وقد جرت السنّة الإلهية أن يصلح ما هو صالح ويفسد ما هو فاسد أي أن يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به وأثر العمل الصالح أن يناسب ويلائم سائر الحقائق الكونية في نظامها الذي تجري هي عليه ، ويمتزج بها ويخالطها فيصلحه الله سبحانه ويجريه على ما كان من طباعه ، وأثر العمل الفاسد أن لا يناسب ولا يلائم سائر الحقائق الكونية فيما تقتضيه بطباعها وتجري عليه بجبلتها فهو أمر استثنائي في

نفسه ، ولو اصلحه الله في فساده كان ذلك إفساداً للنظام الكوني .

فيعارضه سائر الأسباب الكونية بما لها من القوى والوسائل المؤثرة ، وتعيده إلى السيرة الصالحة إن أمكن وإلا أبطلته وأفنته ومحته عن صحيفة الوجود البتة .

وهذه الحقيقة تستلزم أن السحر وكل باطل غيره لا يدوم في الوجود وقد قررها الله سبحانه في كلامه في مواضع مختلفة كقوله : ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وقوله : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقوله : ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾[1] ، ومنها قوله في هذه الآية : ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ .

وأكده بتقريره في جانب الإثبات بقوله في الآية التالية : ﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ كما سيأتي توضيحه .

قوله تعالى : **﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾** لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة في جانب النفي بقوله : ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أبان عنه في جانب الإثبات أيضاً في هذه الآية بقوله : ﴿ويحق الله الحق بكلماته﴾ وقد جمع تعالى بين معنيي النفي والإثبات في قوله : ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ [2].

ومن هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآية أقسام الأقضية الإلهية في شؤون الأشياء الكونية الجارية على الحق فإن قضاء الله ماض وسنّته جارية أن يضرب الحق والباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى ويعفى أثره ويبقى الحق على جلائه ، وذلك قوله تعالى : ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[3] ، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآية إن شاء الله تعالى .

والحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنّة إلهية حقة غفلوا عنها ، وليهيىء نفوسهم لما سيظهره عملاً من غلبة الآية المعجزة على

---

(١) غافر : ٢٨ .　　(٢) الأنفال : ٨ .　　(٣) الرعد : ١٧ .

السحر وظهور الحق على الباطل ، ولذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزة ، وألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه .

وقوله : ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذكر الإجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم وبنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهية من ظهور الحق ، ولذلك نسب الله كراهة ظهور الحق إليهم بما هم مجرمون في قوله : ﴿ولو كره المجرمون﴾ وفي معناه قوله في أول الآيات : ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ .

قوله تعالى : **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم﴾** إلى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير في ﴿قومه﴾ راجع إلى فرعون ، والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى ؛ وقيل : الذرية بعض أولاد القبط ، وقيل : أريد بها امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون ، وقد ذكرا في القرآن وجارية وامرأة هي مشاطة امرأة فرعون .

وذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بني إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون ؛ وقيل : هم جميع بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف نسمة سمّاهم ذرية لضعفهم ؛ وقيل : ذرية آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد ، وهذه الوجوه ـ كما ترى ـ لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ .

والذي يفيده السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعاً إلى موسى والمراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملئهم الأقوياء والشرفاء ، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعاً كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم ، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي ، ويتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراءاة النصح والتجنب عما لا يرتضيه فلم يكن في وسع الملأ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته ، ويتظاهروا بالإيمان به .

على أن قصص بني إسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني إسرائيل ومستكبريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده وإن كانوا يتسلّمون له ويطيعونه في عامة أوامره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم وحرية شعبهم ومنافع أشخاصهم ، فالإطاعة في هذه الأمور أمر والإيمان بالله وما جاء به الرسول أمر آخر .

ويستقيم على هذا معنى قوله : ﴿وملإهم﴾ بأن يكون الضمير إلى الذرية ويفيد الكلام أن الذرية الضعفاء كانوا في إيمانهم يخافون الملأ والأشراف من بني إسرائيل فإنهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه ويطيّبوا أنفسهم فلا يضيّقوا عليهم وينقصوا من إيذائهم والتشديد عليهم .

وأما ما قيل : إن الضمير راجع إلى فرعون لأنه ذو أصحاب أو للذرية لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار إليه البتة وخاصة أول الوجهين .

وقوله : ﴿أن يفتنهم﴾ أي يعذبهم ليعودوا إلى ملته ، وقوله : ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ أي والظرف هذا الظرف وهو أن فرعون عال في الأرض مسرف في الأمر .

فالمعنى ـ والله أعلم ـ فتفرع على قصة بعثهما واستكبار فرعون وملئه أنه لم يؤمن بموسى إلا ضعفاء من بني إسرائيل وهم يخافون ملأهم ويخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم وكان ينبغي لهم ومن شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الأرض مسلطاً عليهم وأنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم ويجاوز الحدّ في الظلم والتعذيب .

ولو صحّ أن يراد بقومه كل من بعث إليهم موسى وبلّغهم الرسالة وهم القبط وبنو إسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة إلى ما تقدم من تكلّفاتهم .

قوله تعالى : ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلسين﴾ لما كان الإيمان بالله بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه ولو إجمالاً وأنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهي كل سبب ، وهو المدبّر لكل أمر ،

يدعوه إلى تسليم الأمر إليه والتجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل ، ولازم ذلك إرجاع الأمر إليه والتوكل عليه ، وقد أمرهم في الآية بالتوكل على الله ، علّقه أولاً على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام .

فالكلام في تقدير : إن كنتم آمنتم بالله ومسلّمين له فتوكلوا عليه . وقد فرّق بين الشرطين ولعله لم يجمع بينهما فيقول : ﴿إن كنتم آمنتم وأسلمتم فتوكلوا﴾ لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعاً محرزاً منهم ، وأما الإسلام فهو من كمال الإيمان ، وليس من الواجب الضروري أن يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام .

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون أحدهما واجباً واقعاً منهم ، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ـ وقد آمنتم ـ وكنتم مسلمين له ـ وينبغي أن تكونوا كذلك ـ فتوكلوا على الله ؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ إلى آخر الآيتين ، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون وملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم : ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ الخ ، سؤال منهم نتيجة توكلهم وهو أن ينزع الله منهم لباس الضعف والذلّة ، وينجيهم من القوم الكافرين .

أما الأول فقد أشاروا إليه بقولهم : ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ وذلك أن الذي يغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنة للقوي الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندها من جاذبة الحب فتنة للإنسان، قال تعالى : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[1] . والدنيا فتنة لطالبها فسؤالهم ربّهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف والذلّة بسلب الغرض منه وهو سلب الشيء بسلب سببه .

وأما الثاني أعني التنجية فهو الذي ذكره حكاية عنهم في الآية الثانية :

---

(١) التغابن : ١٥ .

﴿ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ .

قوله تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً﴾ الخ ، التبوّي أخذ المسكن والمنزل ، ومصر بلد فرعون ، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل . أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي وجهة واحدة وكان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ ويتمكنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدل عليه أو يشعر به قوله بعده : ﴿وأقيموا الصلاة﴾ لوقوعه بعده .

وأما قوله : ﴿وبشّر المؤمنين﴾ فالسياق يدل على أن المراد به البشارة بإجابة ما سألوه في دعائهم المذكور آنفاً : ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ إلى آخر الآيتين .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتّخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر ـ وكأنهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلا كهيئة البدويين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها ـ واجعلا أنتما وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات ، وأقيموا الصلاة وبشّر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجّيهم من فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿وقال موسى ربّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً﴾ الخ ، الزينة بناء نوع من الزين وهي الهيئة التي تجذب النفس إلى الشيء ، والنسبة بين الزينة والمال العموم من وجه فبعض الزينة ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه واعتدال القامة ، وبعض المال ليس بزينة كالأنعام والأراضي ، وبعض المال زينة كالحلي والتقابل الواقع بين الزينة والمال يعطي أن يكون المراد بالزينة جهة الزينة من غير نظر إلى المالية كالحلي والرياش والأثاث والأبنية الفاخرة وغيرها .

وقوله : ﴿ربّنا ليضلوا عن سبيلك﴾ قيل اللام للعاقبة ، والمعنى وعاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك ، ولا يجوز أن يكون لام الغرض لأنّا قد علمنا بالأدلة الواضحة أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال ولا يريد

أيضاً منهم الضلال ، وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا . انتهى .

وهو حقّ لكن في الإضلال الابتدائي المستحيل عليه تعالى . وأما الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبته كلامه في موارد كثيرة ، وقد كان فرعون وملؤه مصرّين على الاستكبار والإفساد ملحّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينة وأموالاً ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا .

وربما قيل : إن اللام في ﴿ليضلّوا﴾ للدعاء ، وربما قيل : إن الكلام بتقدير لا أي لئلا يضلوا عن سبيلك ، والسياق لا يساعد على شيء من الوجهين .

والطمس ـ كما قيل ـ تغيّر إلى الدثور والدروس فمعنى **﴿اطمس على أموالهم﴾** غيّرها إلى الفناء والزوال ، وقوله : **﴿واشدد على قلوبهم﴾** من الشد المقابل للحل أي أقس قلوبهم واربط عليها ربطاً لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب ، وقول بعضهم : إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم وآلم ، وكذا قول آخرين : إنه كناية عن إماتتهم وإهلاكهم من الوجوه البعيدة .

فمعنى الآية : وقال موسى ـ وكان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون وملئه ويقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال والإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه ـ ربّنا إنك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوّهم جزاء السوء فآتيتهم زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا إرادة منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك ، وإرادتك لا تبطل وغرضك لا يلغو ربّنا أدم على سخطك عليهم واطمس على أموالهم وغيّرها عن مجرى النعمة إلى مجرى النقمة ، واجعل قلوبهم مشدودة مربوطة فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفاً لا ينفعهم الإيمان وهو زمان يرون فيه العذاب الإلهي .

وهذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم ، وعلمه أنه لا يترقّب منهم في الحياة إلا أن يضلوا ويضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله : ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً

إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً﴾(١) ، وحاشا ساحة الأنبياء عليهم السلام أن يتكلموا على الخرص والمظنّة في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه وعز شأنه .

قوله تعالى : ﴿قال قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ الخطاب ـ على ما يدل عليه السياق ـ لموسى وهارون ولم يحك الدعاء في الآية السابقة إلا عن موسى ، وهذا يؤيد ما ذكره المفسّرون : أنَّ موسىٰ عليه السلام كان يدعو ، وكان هارون يؤمّن له وآمين دعاء فقد كانا معاً يدعوان وإن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده .

والاستقامة هو الثبات على الأمر ، وهو منهما عليهما السلام الثبات على الدعوة إلى الله وعلى إحياء كلمة الحق ، والمراد بالذين لا يعلمون الجهلة من شعب إسرائيل وقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله : ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾(٢) .

والمعنى : ﴿قال﴾ الله مخاطباً لموسى وهارون ﴿قد أُجيبت دعوتكما﴾ من سؤال العذاب الأليم لفرعون وملئه ، والطمس على أموالهم والشد على قلوبهم ﴿فاستقيما﴾ واثبتا على ما أمرتما به من الدعوة إلى الله وإحياء كلمة الحق ، ﴿ولا تتبعان﴾ البتّة ﴿سبيل الذين لا يعلمون﴾ بإجابة ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم ودواعي شهواتهم ، وفيه نوع تلويح إلى أنهم سيسألون أموراً فيها إحياء سنّتهم القومية وسيرتهم الجاهلية .

وبالجملة فالآية تذكر إجابة دعوتهما المتضمنة لعذاب فرعون وملئه وعدم توفيقهم للإيمان ووعدهما بذلك ، ولذلك ذكر في الآية التالية وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التي فيه .

ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب وعلى ذلك جرى أيضاً سياق الآية الدالة على القبول والإجابة . وكذا الآية المخبرة عن كيفية إنجازه ، وقد نقل في المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة قال : وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه عنه عليه السلام في الاحتجاج وكذا في الكافي وتفسير

---

(١) نوح : ٢٧ .
(٢) الأعراف : ١٣٨

العياشي عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وفي تفسير القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عنه عليه السلام .

قوله تعالى : **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً﴾** إلى آخر الآية ، البغي والعدو كالعدوان الظلم وإدراك الشيء اللحوق به والتسلط عليه كما أن اتّباع الشيء طلب اللحوق به .

وقوله : **﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾** أي آمنت بأنه وقد وصف الله بالذي آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم وهو مجاوزة البحر والأمان من الغرق ، ولذلك أيضاً جمع بين الإيمان والإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصرّ عليه من المعصية وهو الشرك بالله والاستكبار على الله ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : **﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾** آلآن بالمد أصله ءألآن أي أتؤمن بالله الآن وهو حين أدركك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت من كل مكان ، وقد عصيت قبل هذا وكنت من المفسدين ، وأفنيت أيامك في معصيته ، ولم تقدم التوبة لوقتها فماذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته وهذا هو الذي كان موسى وهارون سألاه ربهما أن يأخذه بعذاب أليم ويسد سبيله إلى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئاً .

قوله تعالى : **﴿فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** التنجية والإنجاء تفعيل وإفعال من النجاة كالتخليص والإخلاص من الخلاص وزناً ومعنى .

وتنجيته ببدنه تدل على أن له أمراً آخر وراء البدن فقده بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمى أيضاً روحاً ، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفاها الله ويأخذها حين موتها كما قال تعالى : **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾**[١] ، وقال : **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾**[٢] ، وهي التي يخبر عنها الإنسان بقوله : **﴿أنا﴾** وهي التي بها تتحقق للإنسان إنسانيته ، وهي التي تدرك وتريد وتفعل الأفعال الإنسانية بواسطة البدن بما له

---

(١) الزمر : ٤٢ .   (٢) السجدة : ١١ .

من القوى والأعضاء المادية ، وليس للبدن إلا أنه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها المادية .

ولمكان الاتحاد الذي بينها وبين البدن يسمى بأسمها البدن وإلا فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم ، وناهيك في ذلك التغيّر المستمر الذي يعرض للبدن مدة الحياة ، والتبدل الطبيعي الذي يطرأ عليه حيناً بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه إلى أجزاء أخر تتركب بدناً آخر فلو كان زيد هو البدن الذي ولدته امه يوم ولدته والاسم له لكان غيره وهو ذو سبعين وثمانين قطعاً والاسم لغيره حتماً ، ولم يثب ولم يعاقب الإنسان وهو شائب على ما عمله وهو شابّ لأن الطاعة والمعصية لغيره .

فهذه وأمثالها شواهد قطعية على أن إنسانية الإنسان بنفسه دون بدنه ، والأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الإنسان ويعرفها إجمالاً وإن كان ربما أنكرها في مقام التفصيل .

وبالجملة فالآية : ﴿اليوم ننجيك ببدنك﴾ كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان ، وأن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد .

فمعنى ﴿ننجيك ببدنك﴾ نخرج بدنك من اليم وننجيه ، وهو نوع من تنجيتك ـ لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاضي بكون العمل الواقع على أحدهما واقعاً بنحو على الآخر ـ لتكون لمن خلفك آية ، وهذا بوجه نظير قوله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾[1] فإن الذي يعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد .

وقد ذكر المفسّرون أن الإنجاء والتنجية لما كان دالاً بلفظه على سلامة الذي أنجي إنجاء كان مفاد قوله : ﴿ننجيك﴾ أن يكون فرعون خارجاً من اليم حياً وقد أخرجه الله ميتاً فالمتعين أخذ قوله : ﴿ننجيك﴾ من النجوة وهي الأرض المرتفعة التي لا يعلوها السيل ، والمعنى اليوم نخرج بدنك إلى نجوة من الأرض .

---

(١) طه : ٥٥ .

وربما قال بعضهم : إن المراد بالبدن الدرع ، وقد كان لفرعون درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه ليكون لمن خلفه آية وعبرة ، وربما قال بعضهم إن التعبير بالتنجية تهكم به .

والحق أن هذا كله تكلف لا حاجة إليه ، ولم يقل : ﴿ننجيك﴾ وإنما قيل ﴿ننجيك ببدنك﴾ ومعناه ننجي بدنك ، والباء للآلية أو السببية ، والعناية هي الاتحاد الذي بين النفس والبدن .

على أن جعل ﴿ننجيك ببدنك﴾ بمعنى نجعلك على نجوة من الأرض لا يفي بدفع الإشكال من أصله فإن الذي جعل على نجوة هو بدن فرعون على قولهم ، وهو غير فرعون قطعاً وإلا كان حياً سالماً ، ولا مناص إلا أن يقال : إن ذلك بعناية الاتحاد الذي بين الانسان وبدنه ، ولو صححت هذه العناية إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غير نفس لكان لها أن تصحح نسبة التنجية إلى الإنسان من جهة وقوع التنجية ببدنه ، وخاصة مع وجود القرينة الدالة على أن المراد بالتنجية هي التي للبدن دون التي للإنسان المستتبع لحفظ حياته وسلامته نفساً وبدناً ، والقرينة هي قوله : ﴿ببدنك﴾ .

قوله تعالى : ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق ورزقناهم من الطيّبات﴾ أي أسكناهم مسكن صدق ، وإنما يضاف الشيء إلى الصدق نحو وعد صدق وقدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق للدلالة على أن لوازم معناه وآثاره المطلوبة منه موجودة فيه صدقاً من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعدها بلسان دلالته الالتزامية لطالبه فوعد صدق مثلاً هو الوعد الذي سيفي به واعده ، ويسر بالوفاء به موعوده ، ويحق أن يطمع فيه ويرجى وقوعه . فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه ولوازم معناه .

وعلى هذا فقوله : ﴿مبوّأ صدق﴾ يدل على أن الله سبحانه بوّأهم مبوءاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء والهواء وبركات الأرض ووفور نعمها والاستقرار فيها وغير ذلك ، وهذه هي نواحي بيت المقدس والشام التي أسكن الله بني إسرائيل فيها وسماها الأرض المقدسة المباركة وقد قص القرآن دخولهم فيها .

وأمـا قول بعضهم : إن المـراد بهذا المبوّأ مصـر دخلهـا بنـو إسرائيـل واتخذوا فيها بيوتاً فأمر لم يذكره القرآن . على أنهم لو فرض دخولهم فيها ثانياً لم يستقروا فيها استقـراراً مستمراً ، وتسمية ما هـذا شأنـه مبوأ صـدق مما لا يساعد عليه معنى اللفظ .

والآية أعني قوله : ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿من الـطيبات﴾ مسوقة سوق الشكوى والعتبى ، ويشهد به تذييلها بقـوله : **﴿فمـا اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾** وقولـه : ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ إلى آخـر الآية بيـان لعاقبة اختلافهم عن علم وبمنزلة أخذ النتيجة من القصة .

والمعنى : أنـا أتممنا على بني إسـرائيل النعمـة وبوأنـاهم مبوّأ صـدق ورزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مدة طـويلة كانـوا فيها في أسـارة القبط فوحدنا شعبهم وجمعنا شملهم فكفروا النعمة وفرّقوا الكلمة واختلفوا في الحق ، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل وإنما اختلفـوا عن علم ﴿إن ربك يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .

* * *

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْـرَؤُنَ الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَـآءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَـلَا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّـذِينَ كَذَّبُـوا بِآيَـاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـاسِـرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّـــذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّـكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلَّا قَـوْمَ يُونُسَ لَمَّـآ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيوٰةِ ٱلـدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ

إلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوآ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) .

(بيـان)

تتضمن الآيات الاستشهاد على حقيقة ما أنزله الله في السورة من المعارف الراجعة إلى المبدأ والمعاد وما قصه من قصص الأنبياء وأممهم - ومنهم نوح وموسى ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام وأممهم - إجمالاً بما قرأه أهل الكتب السماوية فيها قبل نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم تذكر ما هو كالفذلكة والمعنى المحصّل من البيانات السابقة وهو أن الناس لن يملكوا من أنفسهم أن يؤمنوا بالله وآياته إلا بإذن الله ، وإنما يأذن الله في إيمان من لم يطبع على قلبه ولم يجعل الرجس عليه وإلا فمن حقّت عليه كلمة الله لن يؤمن بالله وآياته حتى يرى العذاب .

فالسنّة الجارية أنّ الناس منذ خلقوا واختلفوا بين مكذّب بآيات الله ومصدّق لها ، وقد جرت سنّة الله على أن يقضي فيهم بالحق بعد مجيء رسلهم إليهم فينجّي الرسل والمؤمنين بهم ، ويأخذ غيرهم بالهلاك .

قوله تعالى : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ إلى آخر الآية الشك الريب ، والمراد بقوله : ﴿مما أنزلنا إليك﴾ المعارف الراجعة إلى المبدأ والمعاد والسنّة الإلهية في القضاء على الأمم مما تقدّم في السورة ، وقوله : ﴿يقرءون الكتاب من قبلك﴾ ﴿يقرءون﴾ فعل مضارع استعمل في الاستمرار و ﴿من قبلك﴾ حال من الكتاب عامله متعلّقة المقدّر ، والتقدير منزلاً من قبلك . كل ذلك على ما يعطيه السياق .

والمعنى ﴿فإن كنت﴾ أيها النبي ﴿في ريب﴾ وشك ﴿مما أنزلنا إليك﴾ من المعارف الراجعة إلى المبدأ والمعاد وما قصصنا عليك إجمالاً من قصص الأنبياء الحاكية لسنّة الله الجارية في خلقه من الدعوة أولاً ثم القضاء بالحق ﴿فاسأل﴾ أهل الكتاب ﴿الذين﴾ لا يزالون ﴿يقرءون﴾ جنس ﴿الكتاب﴾ منزلاً من السماء ﴿من قبلك﴾ أقسم ﴿لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين﴾ المتردّدين .

وهذا لا يستلزم وجود ريب في قلب النبي ﷺ ولا تحقّق شك منه فإنّ هذا النوع من الخطاب كما يصحّ أن يخاطب من يجوز عليه الريب والشك كذلك يصحّ أن يخاطب به من هو على يقين من القول وبيّنة من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبر ممّا تعاضدت عليه الحجج وتجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شكّ في واحدة منها كان له أن يأخذ بالأخرى .

وهذه طريقة شائعة في عرف التخاطب والتفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جرياً على ما تدعوهم إليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجة على أمر من الأمور ثم يقول : فإن شككت في ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجّة أخرى على ذلك وهي أنّ كذا كذا ، وذلك كناية عن أنّ الحجج متوفرة متعاضدة كالدعائم المضروبة على ما لا يحتاج إلى أزيد من واحد منها لكنّ الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكل والبعض .

فيؤول معنى الكلام إلى أن هذه معارف بيّنها الله لك بحجج تضطر العقول إلى قبولها وقصص تحكي سنّة الله في خلقه والآثار تدل عليها ، بيّنها في كتاب لا ريب فيه ، فعلى ما بيّنه حجّة وهناك حجة أخرى وهي أنّ أهل الكتب السماوية الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرأونه من الكتاب فهناك مبدأ ومعاد ، وهناك دين إلهي بعث به رسله يدعون إليه ، ولم يدعوا أمّة من الأمم إلا انقسموا قبيلين مؤمن ومكذّب فأنزل الله آية فاصلة بين الحق والباطل وقضى بينهم .

وهذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه ، وإنما كانوا ينكرون بشارات

النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعض ما يختص به الإسلام من المعارف وما غيّروه في الكتب من الجزئيات ، ومن لطيف الإشارة أن الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصّة هود وصالح لعدم تعرّض التوراة الموجودة عندهم لقصّتهما وكذا قصة شعيب وقصة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها وليس إلا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه .

فهذه الآية في إلقاء الحجّة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزانها وزان قوله تعالى : ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾[1] في إلقاء الحجة إلى الناس .

على أنّ السورة من أوائل السور النازلة بمكّة ، ولم تشتد الخصومة يومئذ بين المسلمين وأهل الكتاب وخاصة اليهود اشتدادها بالمدينة ، ولم يركبوا بعد من العنا واللجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ونشوب الحروب بينهم وبين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا : ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[2] .

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى ، وأظنك إن أمعنت في تدبر الآية وسائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحقية ما نزل إليه من ربه ، ويتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله ، وما يصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه على بصيرة من أمره ، وأنه على بينة من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى ، وأغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها والبحث عنها .

قوله تعالى : ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ نهي عن الارتياب والامتراء أولاً ثم ترقى إلى النهي عن التكذيب بآيات الله وهو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها وظهور بيانها وتكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنياً إلا على العناد واللجاج .

وقوله : ﴿فتكون من الخاسرين﴾ تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته وعاقبته فهو المنهي عنه بالحقيقة . والمعنى : ولا تكن من الخاسرين ، والخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه ، وهو الإيمان بالله وآياته

---

(١) الشعراء : ١٩٧ .　　(٢) الأنعام : ٩١ .

الذي هو رأس مال الإنسان في سعادة حياته في الدنيا والآخرة على ما يستفاد من الآية التالية حيث يعلل خسرانهم بأنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : **﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾** الخ ، تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهي عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال : لا تكونن من المكذّبين لأن المكذّبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله ﴿الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ موضع ﴿المكذّبين﴾ للدلالة على سبب الحكم وأن المكذّبين إنما يخسرون لأن كلمة الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه .

والكلمة الإلهية التي حقت على المكذّبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة العامة لآدم وزوجته فمن بعدهما من ذريتهما : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ إلى قوله ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1] .

وهذا هو الذي يريده بقوله في مقام بيان سبب خسران المكذّبين : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ وهم المكذّبون حقت عليهم كلمة العذاب فهم ﴿لا يؤمنون﴾ ولذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم وهو الإيمان فحرموه وحرموا بركاته في الدنيا والآخرة ، وإذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم إلى الإيمان ولو جاءتهم كل آية **﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾** ولا فائدة في الإيمان الاضطراري .

وقد كرر الله سبحانه في كلامه هذا القول واستتباعه للخسران وعدم الإيمان كقوله : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾[2] وقوله : ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾[3] أي بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم ، وقوله : ﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾[4] إلى غير ذلك .

وقد ظهر من الآيات **أولاً** : أن العناد مع الحق والتكذيب بآيات الله يحق

---

(١) البقرة : ٣٩ .
(٢) يس : ٧ .
(٣) يس : ٧٠ .
(٤) فصلت : ٢٥ .

كلمة العذاب الخالد على الإنسان .

وثانياً : أن رأس مال سعادة الحياة للإنسان هو الإيمان .

وثالثاً : أن كل إنسان فهو مؤمن لا محالة إما إيماناً اختيارياً مقبولاً يسوقه إلى سعادة الحياة الدنيا والآخرة ، وإما إيماناً اضطرارياً غير مقبول حيثما يرى العذاب الأليم .

قوله تعالى : **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾** الخ ، ظاهر السياق أن لولا للتحضيض ، وأن المراد بقوله : **﴿آمنت﴾** الإيمان الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده : **﴿فنفعها إيمانها﴾** ولوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفي فاستقام الاستثناء الذي في قوله : **﴿إلا قوم يونس﴾** .

والمعنى : هلّا كانت قرية ـ من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم ـ آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها . لا ولم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزي **﴿في الحياة الدنيا ومتعناهم﴾** بالحياة **﴿إلى حين﴾** آجالهم العادية الطبيعية . ومنه يعلم أن الاستثناء متصل .

وذكر بعضهم أن المعنى : لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلّا كانت القرى كلها هكذا .

وفيه أنه في نفسه معنى لا بأس فيه إلا أن الآية بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات وهو ظاهر .

وذكر بعض آخر : أن المعنى لم يكن معهوداً من حال قرية من القرى أن يكفر ثم يؤمن فينفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب ومتعناهم . والإشكال عليه كالإشكال على سابقه .

قوله تعالى : **﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً﴾** أي لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم ولا يؤمن فالمشيئة في ذلك إلى الله سبحانه ولم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه ولا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم وإجبارهم على الإيمان ، والإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه وإجبار .

ولذلك قال بعد ذلك في صورة الاستفهام الإنكاري : ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي بعد ما بيّنا أن أمر المشيئة إلى الله وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة لم يبق لك إلا أن تكره الناس وتجبرهم على الإيمان ، وأنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك ولا أنا أقبل الإيمان الذي هذا نعته .

قوله تعالى : ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ لما ذكر في الآية السابقة أن الأمر إلى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآية في بيان ذلك ما محصله أن الملك ـ بالكسر ـ لله فله أصالة التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات .

والإيمان بالله عن اختيار والاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج في تحققه إلى سبب يخصه ، ولا يؤثر هذا السبب ولا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكنّ الله سبحانه بجعل الرجس والضلال على أهل العناد والجحود لم يأذن في إيمانهم ، ولا رجاء في سعادتهم .

ولو أنه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أولئك المكذبين فقوله : ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ حكم عام حقيقي ينيط تملك النفوس للإيمان إلى إذن الله ، وقوله : ﴿ويجعل الرجس﴾ الخ ، يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم .

وقد أريد في الآية بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان ، وقد عرِّف في قوله تعالى : ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[١] .

وقد أريد أيضاً بقوله : ﴿الذين لا يعقلون﴾ أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقّت عليه كلمة العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال : ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾[٢] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) التوبة : ٩٣ .

قوله تعالى : ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ أي من المخلوقات المختلفة المتشتة التي كل واحد منها آية من آيات الله تعالى تدعو إلى الإيمان ، وقوله : ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ ظاهره أن « ما » إستفهامية والجملة مسوقة بداعي الإنكار وإظهار الأسف كقول الطبيب : بماذا أعالج الموت ؟ أي إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا : ﴿قل انظروا في السماوات﴾ الخ ، لكن أي تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم وهم لا يؤمنون أي عازمون مجموعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذي على قلوبهم وربما قيل : إن ما نافية .

قوله تعالى : ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ تفريع على ما في الآية السابقة من قوله : ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي إذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئاً وهم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، وإنما يحبسون نفوسهم لآية العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضي عليهم لأنهم حقّت عليهم كلمة العذاب .

ولذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلّغهم ذلك بقوله : ﴿قل فانتظروا﴾ أي مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعني يوم العذاب الذي يفصل بيني وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ .

وقد تبيّن بما مرّ أن الاستفهام في الآية إنكاري .

قوله تعالى : ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ الجملة تتمة صدر الآية السابقة وقوله : ﴿قل فانتظروا﴾ الخ ، جملة معترضة والنظم الأصلي بحسب المعنى ﴿فهل ينتظرون﴾ أي قومك هؤلاء ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ من الأمم الذين كانت تحق عليهم كلمة العذاب فنرسل إليهم آية العذاب ﴿ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا﴾ .

وإنما اعترض بقوله : ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذي يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جواباً لهم ، وهو يتضمن انتظار النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقضاء بينه وبينهم ، وأما تنجيته وتنجية المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون لا هو وحده ، ولا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاة من العذاب ، وهو مع

ذلك لا يتعلق به غرض في المقام الذي سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فافهم ذلك .

وأما قوله : ﴿كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ فمعناه كما كنا ننجي الرسل والذين آمنوا في الأمم السابقة عند نزول العذاب كذلك ننجي المؤمنين بك من هذه الأمة حقٌ علينا ذلك حقاً ، فقوله : ﴿حقاً علينا﴾ مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف ، واللام في ﴿المؤمنين﴾ للعهد والمراد به مؤمنو هذه الأمة ، وهذا هو الوعد الجميل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من هذه الأمة بالإنجاء .

وليس من البعيد أن يستفاد من قوله : ﴿ننج المؤمنين﴾ أن فيه تلويحاً إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يدرك هذا القضاء ، وإنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون ولم يذكر معهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى في كلامه : ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينّك فإلينا يرجعون﴾ أو ما في معناه .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن محمد بن سعيد الأسدي أن موسى بن محمد بن الرضا أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل : أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ من المخاطب بالآية ؟ فإن كان المخاطب فيها النبي فقد شكَّ فيما أنزل الله ، وإن كان المخاطب بها غيره فعلى غيره إذاً نزل الكتاب .

قال موسى : فسألت أخي عن ذلك . قال : فأما قوله : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ فإن المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن في شك مما أنزل الله ، ولكن قالت الجهلة : كيف لم يبعث إلينا نبياً من الملائكة ؟ إنه لم يفرّق بينه وبين غيره في الاستغناء في المأكل والمشرب والمشي في الأسواق فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم : فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك بمحضر الجهلة هل بعث الله رسولاً من قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشي في الأسواق ؟ ولك بهم أسوة .

وإنما قال : فإن كنت في شك ، ولم يكن ولكن ليتبعهم كما قال له :

﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ ، ولو قال : تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيئون للمباهلة ، وقد عرف أن نبيّه مؤدّ عنه رسالته وما هو من الكاذبين ، كذلك عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه صادق فيما يقول ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن موسى بن محمد بن علي ، وهو يرجع إلى ما قدمناه ، وقد ورد في بعض الروايات أن الآية نزلت ليلة المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك ، وهم الذين أرادهم بقوله : ﴿الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ وروي الوجه ايضاً عن الزهريّ لكن في انطباقه على لفظ الآية خفاء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : لا أشك ولا أسأل .

وفي تفسير العياشي عن معمّر قال : قال ابو الحسن الرضا عليه السلام : إن يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه فأظلهم العذاب ففرقوا بينهم وبين أولادهم وبين البهائم وأولادها ثم عجّوا إلى الله وضجّوا فكفّ الله العذاب عنهم . الحديث .

أقول : وسيأتي إن شاء الله قصة يونس وقومه في ذيل بعض الآيات المتعرضة لتفصيل قصته عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم واللالكائيّ في السنّة عن علي بن أبي طالب قال : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء يردّ القدر ، وذلك في كتاب الله : ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾ الآية .

أقول : وروى ما في معناه عن ابن النجار عن عائشة عن النبي ﷺ .

وفي الكافي والبصائر مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الرجس هو الشك ولا نشك في ديننا أبداً .

* * *

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) .

(بيان)

الآيات ، ختام السورة تفرغ المحصل من بياناتها فتشير إجمالاً إلى التوحيد والمعاد والنبوة ، وتأمر باتباع القرآن والصبر في انتظار حكم الله بينه وبين امته .

قوله تعالى : ﴿**قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني**﴾ الخ ، قد تقدم غير مرة أن الدين هو السنّة المعمول بها في الحياة لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعة كما في قوله تعالى : ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾[1] وربما استعمل بمعنى الجزاء .

وقوله : ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ أي في طريقتي التي أسلكها وأثبت عليها وشك الإنسان في دين غيره وطريقته المعمولة له إنما يكون في ثباته عليه هل يستقر عليه ويستقيم ؟ وقد كان المشركون يطمعون في دينه صلى الله عليه وآله وسلم وربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته إلى التوحيد ورفض الشرك بالآلهة .

فالمعنى : إن كنتم تشكون فيما أدين به وأدعو إليه هل أستقيم عليه ؟ أو شككتم في ديني ما هو ؟ ولم تحصّلوا الأصل الذي يبتني عليه فإني أصرح لكم

(١) النساء : ١٤٦ .

القول فيه وأبينه لكم وهو أني لا أعبد آلهتكم وأعبد الله وحده .

وقد أخذ في قوله : **﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾** له تعالى وصف توفيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجة إليه في دفع الضرر وجلب النفع ، والتوفي أمر لا يشكون أنه سيصيبهم وأنه لله وحده فمساس الحاجة إلى الأمن من ضرره يوجب عبادة الله سبحانه .

على أن اختيار التوفي للذكر ليكون في الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعداً قطعياً ، ووفاة المشركين ميعاد عذابهم ، ويؤيد ذلك إتباع قوله : ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ بقوله : **﴿أمرت أن أكون من المؤمنين﴾** فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذي ذكره الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية : ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبل﴾ إلى قوله ﴿ننج المؤمنين﴾ .

والمعنى : فاعلموا واستيقنوا أني لا أعبد آلهتكم ولكن أعبد الله الذي وعد عذاب المكذبين منكم وإنجاء المؤمنين وأمرني أن أكون منهم كما أمرني أن أجتنب عبادة الآلهة .

قوله تعالى : **﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾** عطف على موضع قوله : ﴿وأمرت أن﴾ الخ ، فإنه في معنى وكن من المؤمنين ، وقد مر الكلام في معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير مرة .

قوله تعالى : **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾** نهي بعد نهي عن الشرك ، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعد الله به الظالمين في كلامه .

ومن لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء : ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ وحين ذكر العبادة : ﴿الذين تعبدون من دون الله﴾ فإن العبادة بالطبع تعطي للمعبود شعوراً وعقلاً فناسب أن يعبر عنه بنحو ﴿الذين﴾ المستعمل في ذوي العلم والعقل ، والدعاء وإن كان كذلك لمساوقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع ولا يضر ، وربما توهم أن ذوي العلم والعقل يصح أن تنفع وتضر ، عبّر بلفظة « ما » ليلوّح إلى أنها جماد لا يتخيل في حقهم إرادة نفع أو ضرر .

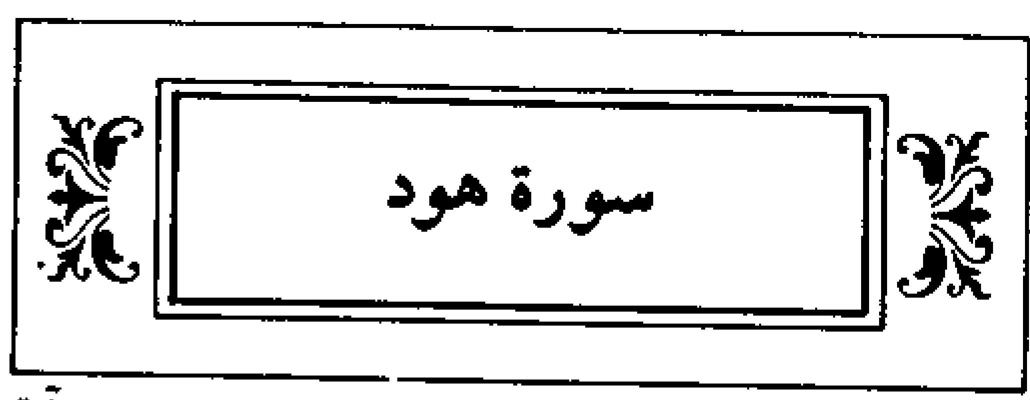
وفي التعبير نفسه أعني قوله : ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ إعطاء الحجة على النهي عن الدعاء .

قوله تعالى : ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ الخ ، الجملة حالية وهي تتمة البيان في الآية السابقة ، والمعنى : ولا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده ولا ضرر ، والحال أن ما مسّك الله به من ضر لا يكشفه غيره وما أرادك به من خير لا يرده غيره فهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته وإرادته ، وهو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده ويرحمهم ، واتصافه بهذه الصفات الكريمة وكون غيره صفر الكف منها يقتضي تخصيص العبادة والدعوة به .

قوله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ وهو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوة الحقة ، وقوله : ﴿فمن اهتدى﴾ إلى آخر الآية ، إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيرة ببيان حقيقة هي أن الحق ـ وقد جاءهم ـ من حكمه أن من اهتدى إليه فإنما يهتدي ونفعه عائد إليه ، ومن ضل عنه فإنما يضل وضرره على نفسه فلهم أن يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع أو ضرر ، وليس هو صلى الله عليه وآله وسلم وكيلاً لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآية كناية عن وجوب اهتدائهم إلى الحق لأن فيه نفعهم .

قوله تعالى : ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ أمر باتباع ما يوحى إليه والصبر على ما يصيبه في جنب هذا الاتباع من المصائب والمحن ، ووعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه وبين القوم ، ولا يحكم إلا بما فيه قرة عينه فالآية تشتمل على أمره بالاستقامة في الدعوة وتسليته فيما يصيبه ، ووعده بأن العاقبة الحسنى له .

وقد اختتمت الآية بحكمه تعالى ، وهو الذي عليه يعتمد معظم آيات السورة في بيانها . والله أعلم .



سورة هود

مكيّة ، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) .

(بيـان)

السورة كما يظهر من مفتتحها ومختتمها والسياق الذي يجري عليه آياتها تبيّن غرض الآيات القرآنية على كثرتها وتشتتها ، وتصف المحصّل من مقاصدها على اختلافها والملخّص من مضامينها .

فتذكر أنها على احتوائها معارف الدين المختلفة من أُصول المعارف الإلهية والأخلاق الكريمة الإنسانية ، والأحكام الشرعية الراجعة إلى كلّيات العبادات والمعاملات والسياسات والولايات ثم وصف عامة الخليقة كالعرش والكرسي واللوح والقلم والسماء والأرض والملائكة والجن والشياطين والنبات

والحيوان والإنسان ، ووصف بدء الخليقة وما ستعود إليه من الفناء والرجوع إلى الله سبحانه .

وهو يوم البعث بما يتقدمه من عالم القبر وهو البرزخ ثم القيام لرب العالمين والحشر والجمع والسؤال والحساب والوزن وشهادة الأشهاد ثم فصل القضاء ثم الجنة أو النار بما فيهما من الدرجات والدركات .

ثم وصف الرابطة التي بين خلقة الإنسان وبين عمله ، وما بين عمله وما يستتبعه من سعادة أو شقاوة ونعمة أو نقمة ودرجة أو دركة ، وما يتعلق بذلك من الوعد والوعيد والإنذار والتبشير بالموعظة والمجادلة الحسنة والحكمة .

فالآيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية والحقائق الحقة تعتمد على حقيقة واحدة هي الأصل وتلك فروعه ، وهي الأساس الذي بني عليه بنيان الدين وهو توحيده تعالى توحيد الإسلام بأن يعتقد أنه تعالى هو رب كل شيء لا رب غيره ويسلم له من كل وجهة فيوفي له حق ربوبيته ، ولا يخشع في قلب ولا يخضع في عمل إلا له جلّ أمره .

وهذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها وشرائعها بالتحليل ، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب .

فالسورة تبين ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمة الإنذار والتبشير بذكر ما لله من السنّة الجارية في عباده ، وإيراد أخبار الأمم الماضية ، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابة الدعوة الإلهية والإفساد في الأرض والإسراف في الأمر ، ووصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أوعد الله به الذين كفروا وكذبوا بالآيات ، وتبين في خلال ذلك أموراً من المعارف الإلهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والمعاد .

ومما تقدم يظهر ما في قول بعضهم عند ما ذكر غرض هذه السورة : أنها في معنى سورة يونس وموضوعها ، وهو أصول عقائد الإسلام في الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات ، وقد فصل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرسل عليهم السلام . انتهى .

وقد عرفت أن السورتين مسوقتان لغرضين مختلفين لا يرجع أحدهما إلى

الآخر البتة فسورة يونس تبين أن السنّة الإلهية جارية على القضاء بين الرسل وبين أممهم المكذّبين لهم ، ثم توعد هذه الأمة بما جرى مثله على الذين من قبلهم ، وسورة هود تبين أن المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أن التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية والفرعية .

والسورة ـ على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها ـ مكية نازلة دفعة واحدة ، وقد روي عن بعضهم استثناء قوله تعالى : ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحىٰ إليك﴾[1] فذكر أنها مدنية .

واستثنى بعضهم قوله : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾[2] ، وبعضهم قوله تعالى : ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾[3] ، ولا دليل على شيء من ذلك من طريق اللفظ ، وظاهر اتصالها أنها جميعاً مكية .

قوله تعالى : ﴿الرٓ كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ المقابلة بين الإحكام والتفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض ، والتفرقة بين الأمور المندمجة كل منها في آخر تدل على أن المراد بالإحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر وإرجاع طرف منه إلى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذي أجزاء وأبعاض .

ومن المعلوم أن الكتاب إذا اتصف بالإحكام والتفصيل بهذا المعنى الذي مرّ فإنما يتصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه أو غير ذلك ، وأن حال المعاني في الإحكام والتفصيل والاتحاد والاختلاف غير حال الأعيان فالمعاني المتكثرة إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع وهو بعينه على إجماله هذه التفاصيل ، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال وهذا كله ظاهر لا ريب فيه .

وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة أولاً ثم مفصلة ثانياً معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وتشتت مقاصدها وأغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط ، وغرض فارد أصلي لا تكثّر فيه ولا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصداً من المقاصد ولا ترمي إلى هدف إلا والغرض الأصلي هو الروح الساري في جثمانه والحقيقة المطلوبة منه .

---

(١) هود : ١٢ . (٢) هود : ١٧ . (٣) هود : ١١٤ .

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته وتفرّق أبعاضه إلا غرض واحد متوحّد إذا فصّل كان في مورد أصلاً دينياً وفي آخر أمراً خلقياً وفي ثالث حكماً شرعياً وهكذا كلما تنزّل من الأصول إلى فروعها ومن الفروع إلى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ ، ولا يخطي غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد والأخلاق والأعمال ، وهي بتحليلها وإرجاعها إلى الروح الساري فيها الحاكم على أجسادها تعود إلى ذاك الأصل الواحد .

فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزّه وكبريائه مثلاً في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وفي مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا والتسليم والشجاعة والعفّة والسخاء ونحو ذلك والاجتناب عن الصفات الرذيلة ، وفي مقام الأعمال والأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة والورع عن محارم الله .

وإن شئت فقل : إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يبيّنه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلاً من هذه المراتب وكذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص .

فقد تبيّن أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف والشرائع القرآنية إلى أصل واحد هو بحيث إذا ركب في كل مورد من موارد العقائد والأوصاف والأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكماً يخصه من الأحكام القرآنية ؛ وبذلك يظهر :

أولاً : أن قوله : ﴿كتاب﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هذا كتاب ، والمراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسّم إلى السور والآيات ، ولا ينافي ذلك ما ربما يذكر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو في اللوح فإن هذا الكتاب المقروّ متحد مع ما في اللوح اتحاد التنزيل مع التأويل .

وثانياً : أنّ لفظة ﴿ثمّ﴾ في قوله : ﴿ثم فصّلت﴾ الخ ، لإفادة التراخي بحسب ترتيب الكلام دون التراخي الزماني إذ لا معنى للتقدم والتأخر الزماني بين المعاني المختلفة بحسب الأصلية والفرعية أو بالإجمال والتفصيل .

ويظهر أيضاً ما في بعض ما ذكره أرباب التفاسير في معنى الآية كقول

بعضهم : إن معناها أُحكمت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب والشرائع ثم فصلت ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام .

وفيه : أن الواجب على هذا المعنى أن يقيّد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنية نفسها مما لا ينبغي الارتياب فيه . والتقييد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية .

وكقول بعضهم : إن المراد أُحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصّلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وفيه أنه تحكّم لا دليل عليه أصلاً .

وكقول بعضهم : إن المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزاً ، وتفصيلها بالشرح والبيان . والكلام في هذا الوجه كسابقه .

وكقول بعضهم : المراد بإحكام آياته جعلها محكمة متقنة لا خلل فيها ولا باطل ، والمراد بتفصيلها جعلها متابعة بعضها إثر بعض . وفيه : إن التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغة إلا أن يفسّر بمعنى التفرقة والتكثير ويرجع حينئذ إلى ما قدمناه من المعنى .

وكقول بعضهم : إن المراد أُحكمت آياته جملة ثم فرقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلّف أمكن من النظر والتأمل .

وفيه : أن الأحرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[١] ، وقوله : ﴿وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً﴾[٢] وما في هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن للقرآن مرتبة عند الله هي أعلى من سطح الأفهام ثم نزل إلى مرتبة تقبل التفهم والتفقه رعاية لحال الأفهام العادية كما يشير إليه أيضاً قوله : ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم﴾[٣] .

وأما آيتنا التي نحن فيها : ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت﴾ الخ ، فقد علّق فيها الإحكام والتفصيل معاً على الآيات ، وليس ذلك إلا من جهة معانيها فتفيد أن الإحكام والتفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثرة فلها جهة وحدة

---

(١) الدخان : ٣ . (٢) الإسراء : ١٠٦ . (٣) الزخرف : ٤ .

وبساطة وجهة كثرة وتركّب ، وينطبق على ما قدمناه من المعنى لا على ما ذكره الراجع إلى مسألة التأويل والتنزيل فافهم ذلك .

وكقول بعضهم : إن المراد بالإحكام والتفصيل إجمال بعض الآيات وتبيين البعض الآخر ، وقد مثّل لذلك بقوله تعالى في هذه السورة : ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع﴾[١] ، فإنه مجمل محكم يتبين بما ورد فيها من قصة نوح وهود وصالح . وهكذا .

وفيه : أن ظاهر الآية أن الإحكام والتفصيل متحدان من حيث المورد بمعنى أن الآيات التي ورد عليها الإحكام بعينها هي التي ورد عليها التفصيل لا أن الإحكام وصف لبعض آياته والتفصيل وصف بعضها الآخر كما هو لازم ما ذكره .

وقوله تعالى : ﴿من لدن حكيم خبير﴾ الحكيم من أسمائه الحسنى الفعلية يدلّ على إتقان الصنع ، وكذا الخبير من أسمائه الحسنى يدلّ على علمه بجزئيات أحوال الأمور الكائنة ومصالحها ، وإسناد إحكام الآيات وتفصيلها إلى كونه تعالى حكيماً خبيراً لما بينهما من النسبة .

قوله تعالى : ﴿**ألاَّ تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه**﴾ الآية ، وما بعدها تفسير لمضمون الآية الأولى : ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ وإذ كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله إلى . . . له آيات محكمة ثم مفصلة كانت العناية في تفسيرها متوجهة إلى إيضاح هذه الجهات .

ومن المعلوم أن هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى من عنده إلى رسوله ليتلوه على الناس ويبلّغهم له وجه خطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووجه خطاب إلى الناس بوساطته أما وجه خطابه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يتلقاه الرسول من وحي الله فهو ان أنذر وبشّر وادع الناس إلى كذا وكذا ، وهذا الوجه هو الذي عني به في أول سورة يونس حيث قال تعالى : ﴿أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾[٢] .

وأما وجه خطابه إلى الناس وهو الذي يتلقاه الناس من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو ما

---

(١) هود : ٢٤ .

(٢) يونس : ٢ .

يلقيه إلى الناس من المعنى في ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أني أدعوكم إلى الله دعوة نذير وبشير ، وهذا الوجه من الخطاب هو الذي عني به في قوله : ﴿أن لا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير﴾ الخ .

فالآية من كلام الله تفسّر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوة الرسول إياهم بتلاوة كتاب الله عليهم ، وليس كلاماً للرسول بطريق الحكاية ولا بتقدير القول ولا من الالتفات في شيء ، ولا أن التقدير : أمركم بأن لا تعبدوا أو : ﴿فصّلت آياته لأن لا تعبدوا إلا الله﴾ بأن يكون قوله : ﴿لا تعبدوا﴾ نفياً لا نهياً فإن قوله بعد : ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ معطوف على قوله : أن لا تعبدوا إلا الله ، وهو يشهد بأن ﴿لا تعبدوا﴾ نهي لا نفي . على أن التقدير لا يصار إليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعة البلاغة في الآية .

وعلى هذا فقوله : ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ دعوة إلى توحيد العبادة بالنهي عن عبادة غير الله من الآلهة المتخذة شركاء لله ، وقصر العبادة فيه تعالى ، وقوله : ﴿وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أمر بطلب المغفرة من الله وقد اتخذوه رباً لهم برفض عبادة غيره ثم أمر بالتوبة والرجوع إليه بالأعمال الصالحة ، ويتحصّل من الجميع سلوك الطريق الطبيعي الموصل إلى القرب والزلفى منه تعالى ، وهو رفض الآلهة دون الله ثم طلب المغفرة والطهارة النفسانية للحضور في حظيرة القرب ثم الرجوع إليه تعالى بالأعمال الصالحة .

وقد جيء بأن التفسيرية ثانياً في قوله : ﴿وأن استغفروا﴾ الخ ، لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله : ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ وهي مرحلة التوحيد بالعبادة مخلصاً ، وقوله : ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ وهي مرحلة العمل الصالح وإن كانت الثانية من نتائج الأولى وفروعها .

ولكون التوحيد هو الأصل الأساسي والاستغفار والتوبة نتيجة وفرعاً متفرعاً عليه أورد النذر والبشارة بعد ذكر التوحيد ، والوعد الجميل الذي يتضمنه قوله : ﴿يمتعكم﴾ الخ ، بعد ذكر الاستغفار والتوبة فقال : ﴿أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير﴾ فبيّن به أن النذر والبشرى كائنين ما كانا يرجعان إلى التوحيد ويتعلقان به ثم قال : ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً

حسناً﴾ الخ فإن الآثار القيمة والنتائج الحسنة المطلوبة إنما تترتب على الشيء بعد ما تم في نفسه وكمل بصفاته وفروعه ونتائجه ، والتوحيد وإن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها وتتفرع عليها فروعها وأغصانها ، ﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ .

والظاهر أن المراد بالتوبة في الآية الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾[١] فيستقيم الجمع بين الاستغفار والتوبة مع عطف التوبة عليه بثمّ ، والمعنى اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصية ثم آمنوا بربكم .

وقيل : إن المعنى اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليه بالتوبة وهو غير جيد ومن التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى : استغفروا من ذنوبكم الماضية ثم توبوا إليه كلما أذنبتم في المستقبل وكذا قول آخر : إن ﴿ثم﴾ في الآية بمعنى الواو لأن التوبة والاستغفار واحد .

وقوله : ﴿يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي إليه الحياة لا تتخطاه البتة ، فالمراد هو التمتيع في الحياة الدنيا بل بالحياة الدنيا لأن الله سبحانه سماها في مواضع من كلامه متاعاً ، فالمتاع الحسن إلى أجل مسمى ليس إلا الحياة الدنيا الحسنة .

فيؤول معنى قوله : ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ على تقدير كون ﴿متاعاً﴾ مفعولاً مطلقاً إلى نحو من قولنا ، يمتعكم تمتيعاً حسناً بالحياة الحسنة الدنيوية ، ومتاع الحياة إنما يكون حسناً إذا ساق الإنسان إلى سعادته الممكنة له ، وهداه إلى أماني الإنسانية من التنعم بنعم الدنيا في سعة وأمن ورفاهية وعزة وشرافة فهذه الحياة الحسنة تقابل المعيشة الضنك التي يشير إليها في قوله : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾[٢] .

ولا حسن لمتاع الحياة الدنيا ولا سعة في المعيشة لمن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه فإن البعض من الناس وإن أمكن أن يؤتى سعة من المال وعلواً في الأرض ثم يحسب أن لا أمنية من أماني الإنسانية إلا وقد أوتيها لكنه في غفلة عن

---

(١) المؤمنون : ٧ .   (٢) طه : ١٢٤ .

ابتهاج من تحقق بحقيقة الإيمان بالله ودخل في ولاية الله فآتاه الله الحياة الطيبة الإنسانية ، وآمنه من ذلة الحياة الحيوانية التي لا حكومة فيها إلا للحرص والشره والافتراس والتكلّب والجهالة ، فالنفس الحرة الإنسانية تذم من الحياة ما تستأثره النفوس الرذيلة الخسيسة وإن استتبع الذلة والمسكنة وكل شناعة .

فالحياة الحسنة لمجتمع صالح حر أن يشتركوا في التمتع من مزايا النعم الأرضية التي خلقها الله لهم اشتراكاً عن تراحم بينهم وتعاون وتعاضد من غير تعدّ وتزاحم بحيث يطلب كل خير نفسه ونفعها في خير مجتمعه ونفعه من غير أن يعبد نفسه ويستعبد الآخرين .

وبالجملة التمتع بالحياة الحسنة إلى أجل مسمى هو تمتع الفرد بالحياة على ما تستحسنه الفطرة الإنسانية وهو الاعتدال في التمتعات المادية في ضوء العلم النافع والعمل الصالح هذا إذا نسب إلى الفرد ، وأما إذا نسب إلى المجتمع فهو الانتفاع العام من نعم الحياة الأرضية الطيبة بتخصيص ما يناله الأفراد بكدّهم وسعيهم بالمجتمع الملتئم الأجزاء من غير تضاد بين أبعاضه أو تناقض .

وقوله : ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ الفضل هو الزيادة وإذ نسب الفضل في قوله : ﴿كل ذي فضل﴾ إلى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينة على كون الضمير في ﴿فضله﴾ راجعاً إلى ذي الفضل دون اسم الجلالة كما احتمله بعضهم والفضل والزيادة من المعاني النسبية التي إنما تتحقق بقياس شيء إلى شيء وإضافته إليه .

فالمعنى : ويعطي كل من زاد على غيره بشيء من صفاته وأعماله وما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر وخصوص موهبة السعادة تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه أو يغصب فضله أو يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينية وإن كانت مدنية راقية فلم تزل البشرية منذ سكنت الأرض وكونت أنواع المجتمعات الهمجية أو الراقية أو ما هي أرقى تنقسم إلى طائفتين مستعلية مستكبرة قاهرة ، ومستذلة مستعبدة مقهورة ، وليس يعدّل هذا الإفراط والتفريط ولا يسوي هذا الاختلاف إلا دين التوحيد .

فدين التوحيد هو السنّة الوحيدة التي تقصر المولوية والسيادة في الله سبحانه وتسوي بين القوي والضعيف والمتقدم والمتأخر والكبير والصغير والأبيض

والأسود والرجل والمرأة وتنادي بمثل قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] ، وقوله : ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾[2] .

ثم إن وقوع قوله : ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ الحاكي عن الاعتناء بفضل كل ذي فضل بعد قوله : ﴿يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ الدال على تمتيع الجميع مشعر :

أولاً : بأن المراد بالجملة الأولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع وبعبارة أخرى حياة المجتمع العامة الحسنة ، وبالجملة الثانية المزايا التي يؤتاها بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل .

وثانياً : أن الجملة الأولى تشير إلى التمتيع بمتاع الحياة الدنيا والثانية إلى إيتاء ثواب الآخرة قبال الأعمال الصالحة القائمة بالفرد أو ايتاء كل ذي فضل فضله في الدنيا والآخرة معاً بتخصيص كل من جاء بزيادة في جهة دنيوية بما تقتضيه زيادته من المزية في جهات الحياة بإقامة كل ذي فضيلة في صفة أو عمل مقامه الذي تقتضيه صفته أو عمله ووضعه موضعه من غير أن يسوي بين الفاضل والمفضول في دينهما أو تزاح الخصوصيات وتبطل الدرجات والمنازل بين الأعمال والمساعي الاجتماعية فلا يتفاوت حال الناشط في عمله والكسلان ، ولا يختلف أمر المجتهد في العمل الدقيق المهم في بابه واللاعب بالعمل الحقير الهين وهكذا .

وقوله : ﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ أي فإن تتولوا الخ بالخطاب ، والدليل عليه قوله : ﴿عليكم﴾ وما تقدم في الآيتين من الخطابات المتعددة فلا يصغي إلى قول من يأخذ قوله : ﴿تولوا﴾ جمعاً مذكراً غائباً من الفعل الماضي فإنه ظاهر الفساد .

وقد أغرب بعض المفسرين حيث قال في قوله تعالى : ﴿يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ : والآية تتضمن نجاة هذه الأمة المحمدية من عذاب الاستئصال كما بيناه في تفسير سورة يونس أيضاً انتهى ، ولست أدري كيف

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) آل عمران : ١٩٥ .

استفاد من الآية ما ذكره ولعله بنى ذلك على أن الآية اشترطت لـلأمة الحياة الحسنة من غير استئصال إن آمنوا بالله وآياته ثم إنهم آمنوا وانتشر الإسلام في الدنيا ، لكن من المعلوم أن الرسول ﷺ مرسل إلى أهل الدنيا عامة ولم يؤمن به عامتهم ، ولا أن المؤمنين به أخلصوا جميعاً إيمانهم من النفاق وسرى الإيمان من ظاهرهم إلى باطنهم ومن لسانهم إلى جنانهم .

ولو كان مجرّد إيمان بعض الأمة مع كفر الآخرين كافياً في تحقق الشرط وارتفاع عذاب الاستئصال لكفى في أمة نوح وهود عليهما السلام وغيرهما وقد دعوا أممهم إلى ما دعا إليه محمد ﷺ ، واشترطوا لهم مثل ما اشترط لأمته ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال وكان حقاً عليه نصر المؤمنين .

وقد حكى الله سبحانه عن نوح قوله لقومه في ضمن دعوته : ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً﴾[1] وحكى عن هود قولهُ : ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولّوا مجرمين﴾[2] ، وحكى جملة عن نوح وهود وصالح والذين من بعدهم قولهم : ﴿أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى﴾[3] .

وأما قوله : وقد بيّناه في سورة يونس أيضاً فلم يأت هناك إلا بدعوى خالية وقد قدّمنا هناك أنّ آيات سورة يونس صريحة في أن الله سيقضي بين هذه الأمة وبين نبيّها ﷺ فيعذبهم وينجي المؤمنين سنّة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنّة الله تبديلاً .

قوله تعالى : ﴿إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾ في مقام التعليل لما يفيده قوله : ﴿فإن تولّوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ من المعاد ، وذيل الآية ، مسوق لإزاحة ما يمكن أن يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت ، والمعنى وإن تتولوا عن إخلاص العبادة له ورفض الشركاء فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه وهو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله والله على كل شيء قدير فلا يعجز عن

---

(١) نوح : ١٢ .　(٢) هود : ٥٢ .　(٣) إبراهيم : ١٠ .

إحيائكم بعد الإماتة فإياكم أن تستبعدوا ذلك .

فالآية قرينة على أنّ المراد باليوم الكبير يوم القيامة ، وروى القمي في تفسيره مضمراً أنّ المراد بعذاب يوم كبير : الدخان والصيحة .

* * *

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥) وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوآ إِنْ هٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنْتَ نَذِيرٌ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) .

(بيـان)

جمل وفصول من أعمال المشركين وأقوالهم في الردّ على نبـوّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما نزّل عليه من الكتاب تذكرها الآيات وتجيبَ عنهـا بإلقـاء الحجة كـاستخفائهم من الله ، وقولهم : ما يحبس العذاب عنا ، وقولهم : لولا أُنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وقولهم : إنه افترى القرآن . وفيها بعض معارف أخر .

قوله تعالى : ﴿**ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منـه**﴾ إلى آخر الآيـة ، ثنى الشيء يثناه ثنياً كفتح يفتح فتحاً أي عطفـه وطواه وردَّ بعضـه على بعض قال في المجمع : أصل الثني العطف تقول : ثنيته عن كذا أي عطفته ، ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى ، ومنه الثناء لعطف المناقب في المـدح ، ومنه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخـراج منه ، انتهى . وقـال أيضاً : الاستخفـاء طلب خفـاء الشيء يقال : استخفى وتخفى بمعنى ، وكـذلك استغشى وتغشّى ، انتهى .

فالمراد بقوله : ﴿**يثنون صدورهم ليستخفـوا منه**﴾ أنهم يميلون بصـدورهم إلى خلف ويطأطئون رؤوسهم ليتخفـوا من الكتاب أي من استمـاعه حين تـلاوته وهـو كناية عن استخفـائهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن حضـر عنـده حين تـلاوة القـرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة .

وقـوله : ﴿**ألا حين يستغشـون ثيابهم يعلم**﴾ الـخ ، كأنهم كـانوا يستـرون رؤوسهم ايضاً بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فذكر الله سبحانه ذلك وأخبـر أنـه تعالى يعلم عنـد ذلك ﴿**ما يسـرّون ومـا يعلنـون**﴾ فمـا يغنيهم التخفي عن

استماع القرآن والله يعلم سرّهم وعلانيتهم .

وقيل : إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلاً عند أخذ المضاجع للنوم ، وهو أخفى ما يكون فيه الإنسان وأخلى أحواله ، والمعنى : أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم ، والله يعلم سرّهم وعلانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال وهو حال تغشيهم بثيابهم للنوم ، ولا يخلو الوجه من ظهور .

هذا ما يفيده السياق في معنى الآية ، وربما ذكر لها معان أُخر بعيدة من السياق منها قولهم : إن الضمير في ﴿ليستخفوا منه﴾ راجع إليه تعالى أو إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها قول بعضهم : ﴿يثنون صدورهم﴾ أي يطوونها على الكفر ، وقول آخرين : أي يطوونها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى غير ذلك من المعاني المذكورة وهي جميعاً معان بعيدة .

قوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ إلى آخر الآية ، الدابّة على ما في كتب اللغة كل ما يدبّ ويتحرّك ، ويكثر استعماله في النوع الخاص منه ، وقرينة المقام تقتضي كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعة علمه تعالى ، ولذلك عقّب به قوله : ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ .

وهذا المعنى أعني كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعة علمه لكل دابة في جميع أحوالها يستوجب أن يكون قوله : ﴿ويعلم مستقرّها ومستودعها﴾ بمنزلة عطف التفسير لقوله : ﴿على الله رزقها﴾ فيعود المعنى إلى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها ـ ولن تبقى بغير رزق ـ فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالحوت في الماء وكالصدف فيما وقعت واستقرت فيه من الأرض رزقها هناك وإن كانت خارجة من مستقرها وهي في مستودع ستتركه إلى مستقرّها كالطير في الهواء أو كالمسافر الغارب عن وطنه أو كالجنين في الرحم رزقها هناك وبالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق وخبرة منه بما حلّ فيه من محل دائم أو معجّل ومستقر أو مستودع .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمستقر والمستودع المحل الذي تستقر فيه الدابة ما دامت دابة تدب في الأرض وتعيش عيشة دنيوية والمحل الذي تحل فيه ثم تودعه وتفارقه ، وأما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر والمستودع أماكنها في الحياة وبعد الممات أو أن المراد بهما الأصلاب والأرحام أو أن المراد بهما مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقارّ حين كانت بعد بالقوة فمعان بعيدة عن سياق الآية اللهم إلا أن يجعل قوله : ﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ كلاماً مستأنفاً بحياله غير مفسر لما قبله .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾[1] ما يناسب هذا المقام فليراجع إليه من شاء .

وأما قوله : ﴿على الله رزقها﴾ فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى وقد تكرر في القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصة به وأنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى : ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[3] وقال تعالى : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[4] .

ولا ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره إذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره ، ولذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال : ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾[5] ، وقال : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات .

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده وإذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله ، وإذ لا شريك له تعالى في إيجاده لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق .

وقد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين فليراجع[7] .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما

---

(١) الأنعام : ٩٨ .
(٢) الملك : ٢١ .
(٣) الذاريات : ٥٨ .
(٤) الذاريات : ٢٣ .
(٥) الأنعام : ١٢ .
(٦) الروم : ٤٧ .
(٧) في سورة الأنعام آية : ٥٩ وفي سورة يونس آية : ٦١ .

يظهر من كلامه تعالى ويفسره ما ورد في ذلك عن أهل العصمة عليهم السلام موكول إلى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

وإجمال القول الذي يظهر به معنى قوله : ﴿ستة أيام﴾ وقوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات ـ بلفظ الجمع ـ ويقارنها بالأرض ويصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكل ما علاك وأظلك فهو سماء على ما قيل والعلو والسفل من المعاني الإضافية .

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا وتحيط بها فإن الأرض كروية الشكل على ما يفيده قوله تعالى : ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾[1] .

والسماء الأولى هي التي تزيّنه مصابيح النجوم والكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها أو هي فوقها وتتزين بها كالسقف يتزين بالقناديل والمشاكي وأما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى : ﴿سبع سماوات طباقاً﴾[2] ، وقوله : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾[3] حيث يدل على مطابقة بعضها بعضاً .

وقد ذكر الله سبحانه في صفة خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها ومتفرقة متلاشية فجمعها وركمها وأنها كانت دخاناً فصيرها سماوات ، قال تعالى : ﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[4] وقال : ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾[5] فأفاد أن خلق السماوات إنما تمّ في يومين ، واليوم مقدار معتد به من الزمان وليس من الواجب أن يطابق اليوم في كل ظرف ووعاء يوم أرضنا الحاصل من دورة واحدة من حركتها الوضعية كما أن اليوم الواحد في القمر الذي لهذه الأرض يعدل تسعة وعشرين يوماً ونصفاً تقريباً من

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الملك : ٣ .
(٣) نوح : ١٦ .
(٤) الأنبياء : ٣٠ .
(٥) فصلت : ١٢ .

أيام الأرض واستعمال اليوم في البرهة من الزمان شائع في الكلام .

فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في الأرض : ﴿خلق الأرض في يومين﴾ إلى أن قال ﴿وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾[1] فأنبأ عن خلقها في يومين وهما عهدان وطوران وجعل الأقوات في أربعة أيام وهي الفصول الأربعة .

فالمتحصّل من الآيات **أولاً** : أنّ خلق السماوات والأرض على ما هي عليه اليوم من الصفة والشكل لم يكن عن عدم بحت بل هي مسبوقة الوجود بمادة متشابهة مركومة مجتمعة ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضاً في برهتين من الزمان وقد كانت السماء دخاناً ففصلت وقضيت سبع سماوات في برهتين من الزمان .

وثانياً : أن ما نراه من الأشياء الحية إنما جعلت من الماء فمادة الماء هي مادة الحياة .

وبما قدمنا يظهر معنى الآية التي نحن فيها فقوله : ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ المراد بخلقها جمع أجزائها وفصلها وفتقها من سائر ما يختلط بها من المادة المتشابهة المركومة ، وقد تم أصل الخلق والرتق في السماوات في يومين وفي الأرض أيضاً في يومين ويبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك .

وأما قوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ فهو حال والمعنى وكان عرشه يوم خلقهن على الماء وكون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقراً يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه ، واستقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما أن استواءه على العرش احتواؤه على الملك وأخذه في تدبيره .

وقول بعضهم : إن المراد بالعرش البناء أخذاً من قوله تعالى : ﴿مما يعرشون﴾[2] أي يبنون كلام بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ اللام للغاية والبلاء الامتحان

---

(١) فصلت : ١٠ . (٢) النحل : ٦٨ .

والاختبار ، وقوله : ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بيان للاختبار والامتحان في صورة الاستفهام والمراد أنه تعالى خلق السماوات والأرض على ما خلق لغاية امتحانكم وتمييز المحسنين منكم من المسيئين .

ومن المعلوم أن البلاء والامتحان أمر مقصود لغيره وهو تمييز الجيد من الردي والحسن من السيء ، وكذلك الحسنة والسيئة إنما يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء ، وكذلك الجزاء إنما يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق ولذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة فقال في كون الابتلاء غاية للخلقة : ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾[١] ، وقال في معنى التمييز والتمحيص : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾[٢] ، وقال في خصوص الجزاء : ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾[٣] وقال في كون الإعادة لإنجاز الوعد : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات ، وقال في كون العبادة غرضاً في خلق الثقلين : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[٥] .

وعد العمل الصالح أو الإنسان المحسن غاية للخلقة لا ينافي اشتمال الخلقة على غايات أخرى بعد ما كان الإنسان أحد تلك الغايات حقيقة لأن الوحدة والاتصال الحاكم على العالم يصحح كون كل واحد من أنواع الموجودات غاية للخلقة بما أنه محصول الارتباط ونتيجة الازدواج العام بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كل نوع من أنواع الخليقة أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات والأرض بما أنها تؤدي إليه .

على أن الإنسان أكمل وأتقن المخلوقات الجسمانية من السماوات والأرض وما فيهما صنعاً ولئن نمي في جانب العلم والعمل نماء حسناً كان أفضل ذاتاً مما سواه وأرفع مقاماً وأعلى درجة من غيره وإن كان بعض الخليقة كالسماء أشد منه خلقاً كما ذكره الله تعالى ومن المعلوم أن كمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل على ناقص ولذا كنا نعد مراحل وجود الإنسان المختلفة من المنوية والجنينية والطفولية وغيرها مقدمة لوجود الإنسان السوي الكامل وهكذا .

---

(١) الكهف : ٧ .
(٢) الأنفال : ٣٧ .
(٣) الجاثية : ٢٢ .
(٤) الأنبياء : ١٠٤ .
(٥) الذاريات : ٥٦ .

وبهذا البيان يظهر أن أفضل أفراد الإنسان ـ إن كان فيهم من هو أفضل مطلقاً ـ غاية لخلق السماوات والأرض ، ولفظ الآية أيضاً لا يخلو عن إشارة أو دلالة على ذلك فإن قوله : ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ يفيد أن القصد إلى تمييز من هو أحسن عملاً من غيره سواء كان ذلك الغير محسناً أو مسيئاً فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين وأعمالهم دون عمله أو مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقة ، وبذلك يستصح ما ورد في الحديث القدسي من خطابه تعالى لنبيه ﷺ : ﴿لولاك لما خلقت الأفلاك﴾ فإنه ﷺ أفضل الخلق .

وفي المجمع : قال الجبائي : وفي الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السماوات والأرض والملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلّف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من حيّ مكلّف ، وقال علي بن عيسى : لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائي وهو الذي اختاره المرتضى قدّس الله روحه . انتهى .

أقول : وما ذكراه مبني على ما ذهب إليه المعتزلة : أن أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض وتابعة للمصالح وجهات الحسن ولو كان ذلك بأن يخلق خلقاً ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به ويؤمنوا له فيتم بذلك مصلحة من مصالحهم ، وقد تقدّم في أبحاثنا السابقة أن الله سبحانه لا يحكم عليه ولا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أي شيء آخر مفروض وأن غيره أي شيء فرض مخلوق له مدبّر بأمره إن كان أمراً ذا واقعية ووجود إن الحكم إلا لله والله خالق كل شيء .

فجهات الحسن والمصلحة وهي التي تحكم علينا وتبعثنا نحو أفعالنا أُمور خارجة عن أفعالنا مؤثرة فينا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادة الحياة ، وأما هو سبحانه فإنه أجلّ من ذلك . وذلك أن جهات الحسن والمصلحة هذه إنما هي قوانين عامة مأخوذة من نظام الكون والروابط الدائرة بين أجزاء الخلقة ، ومن الضروري أن الكون وما فيه من النظام الجاري فعله سبحانه ، ومن الممتنع جداً أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه ولا يقنع حتى يتقدم على فاعله الموجد له .

وأما ما في الآية من تعليل خلق السماوات والأرض بقوله : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ونظائره الكثيرة في القرآن فإنما هو وأمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة والمصالح المتفرعة وقد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال : ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾(١) ، فهو سبحانه هو الخير لا شرّ فيه وهو الحسن لا قبح عنده وما كان كذلك لم يصدر عنه شرٌ ولا قبيح البتة .

وليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذي أمر به وإن استقبحه العقل ، ومعنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذي نهى عنه وإن استحسنه العقل واستصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى : ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ لما كان قوله : ﴿ليبلوكم﴾ الخ ، يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه به الكفار ذكره ﷺ للمعاد برميه بأنه سحر من القول .

فظاهر الآية أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة وبلاغة النظم سحراً ، كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن أو النبي ﷺ من حقائق المعارف التي لا تصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً ، وعلى هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله والتعنت والعناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمي اللفظ لفصاحته وبلاغته بالسحر إلى رمي المعنى لصحته واستقامته بالسحر .

ومن الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة والتمويه بإظهار الباطل في صورة الحق على نحو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير المورد : ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنّى تسحرون﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أُمة معدودة ليقولن ما يحبسه﴾ إلى آخر الآية . اللام في صدر الآية للقسم ولذلك أكد الجواب أعني قوله : ﴿ليقولن﴾ باللام والنون والمعنى : واقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين : ما الذي يحبس هذا العذاب الموعود عنا

---

(١) السجدة : ٧ .　　(٢) الأعراف : ٢٨ .　　(٣) المؤمنون : ٨٩ .

ولماذا لا ينزل علينا ولا يحل بنا .

وفي هذا إشارة أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ﷺ ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه وأن الله أخر ذلك تأخيراً رحمة لهم فاستهزأوا به وسخروا منه بقولهم : ﴿ما يحبسه﴾ ويؤيده قوله تعالى عقيب ذلك : ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ الخ .

وبهذا يتأيد أن السورة ـ سورة هود ـ نزلت بعد سورة يونس لمكان قوله تعالى فيها : ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط﴾ إلى آخر الآيات .

وقوله : ﴿إلى أمة معدودة﴾ الأمة الحين والوقت كما في قوله تعالى : ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة﴾(١) أي بعد حين ووقت .

وربما أمكن أن يراد بالأمة الجماعة فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً ويمكّن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم قال : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾(٢) ، وقال : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ إلى أن قال ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾(٣) . وهذا وجه لا بأس به .

وقيل : إن المراد بالأمة الجماعة وهم قوم يأتي الله بهم بعد هؤلاء فيصرّون على الكفر فيعذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح ، أو هم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرّون على معصية الله فتقوم عليهم القيامة .

والوجهان سخيفان لبنائهما على كون المعذبين غير هؤلاء المستهزئين من الكفار وظاهر قوله تعالى : ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ الخ ، أن المعذبين هم المستهزئون بقولهم : ﴿ما يحبسه﴾ .

وقوله : ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ بمنزلة الجواب عن قولهم : ﴿ما يحبسه﴾ الواقع موقع الاستهزاء فإنه

---

(١) يوسف : ٤٥ . (٢) المائدة : ٥٤ . (٣) النور : ٥٥ .

في معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب ، ومحصله أن هذا العذاب الذي يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب فإنا كافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب .

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف ويحيق بهم هذا العذاب الذي كانوا به يستهزئون .

وبما تقدم يظهر أن هذا العذاب الذي يهددون به عذاب دنيوي سيحيق بهم وينزل عليهم دون عذاب الآخرة ، وعلى هذا فهذه الآية والتي قبلها يذكر كل منهما شيئاً من ما تهوّس به الكفار بجهالتهم فالآية السابقة تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث وأنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا : إن هذا إلا سحر مبين ، وهذه الآية تذكر أن الله إذا أخر عنهم العذاب إلى أمة وأخبروا بذلك قالوا مستهزئين : ما يحبسه .

قوله تعالى : ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾ قال في المجمع : الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم ، وسمى الله سبحانه إحلال اللذّات بالإنسان إذاقة لسرعة زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل : أحلام نوم أو كظل زائل والنزع قلع الشيء عن مكانه ، واليؤس فعول من يئس ـ صيغة مبالغة ـ واليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون ونقيضه الرجاء . انتهى .

وقد وضعت الرحمة في الآية مكان النعمة للإشعار بأن النعم التي يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمة وهي رفع حاجة الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق وإيجاب والمعنى : إنا إن آتينا الإنسان شيئاً من النعم التي يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها واشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها إليه ثانياً ممكناً وكفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمة من حقه الثابت علينا ويرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه والكفران ، وقد أخذ في الآية لفظ الإنسان ـ وهو لفظ دال على نوعه ـ للدلالة على أن الذي يذكر من صفته من طبع نوعه .

قوله تعالى : ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسّته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ قال في المجمع : النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضرّاء مضرّة يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء

وعيناء مع ما فيهما من المبالغة ، والفرح والسرور من النظائر وهو انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغمّ ـ إلى أن قال : ـ والفخور الذي يكثر فخره وهو التطاول بتعديد المناقب وهي صفة ذم إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه . انتهى .

والمراد بالسيئات بقرينة المقام المصائب والبلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه ، والمعنى : ولئن أصبناه بالنعمة بعد الضرّاء ليقولنّ ذهب الشدائد عني ، وهو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد والنوازل لا تعود بعد زوالها ولا تنزل بعد ارتفاعها ثانياً .

وقوله : ﴿إنه لفرح فخور﴾ بمنزلة التعليل لقوله : ﴿ذهب السيئات عني﴾ فإنه يفرح ولا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضرّاء ، ولو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقائه ولا اعتماد على دوامه ، وأن الأمر ليس إليه بل إلى غيره ومن الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنه لا فرح في أمر مستعار غير ذي قرار .

وانه ليفخر بما أُوتي من النعماء على غيره ، ولا فخر إلا بكرامة أو منقبة يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمراً بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه وينزعه منه ويعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات ولذلك يفخر ويكثر من الفخر .

قوله تعالى : **﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾** ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشدة والبلاء من اليأس والكفر وعند الرخاء والنعماء من الفرح والفخر ، ومغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضرة ، ويذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمة لم ير لها عودة وأنها كانت من عند الله سبحانه ، وله تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه ويتعلق قلبه به بالرجاء والمسألة ، وإن عادت إليه نعمة بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح وفخر ولم ير لله تعالى صنعاً في ذلك حتى يشكره عليها ويكف عن الفرح وعن التطاول على غيره بالفخر .

استثنى سبحانه طائفة من الإنسان ووصفهم بقوله ﴿الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ ثم وعدهم وعداً حسناً بقوله : ﴿أُولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين

يصبرون عند الضرّاء فلا يحملهم الجزع على اليأس والكفر ، ويعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء وأعقب بالنعماء وصرف نعمه في ما يرضيه ويريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح والفخر .

وهؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلك الطبع المذموم ووضع الخصال المحمودة موضعه ولهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير .

وفي الآية دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة وأجراً كبيراً ، والمغفرة لا تنال المشركين ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾[1] .

وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآية أعني المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين في قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾[2] وقوله تعالى : ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾[3] .

واتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان في الآيات السابقة مسوقاً في كفر الكافرين ورميهم الوعد بالبعث بالسحر ومقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالاستهزاء ، فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبعي لا يرون لما عندهم من نعمة الله زوالاً بنزول العذاب ولا لما بهم من رث الحال تبدلاً إلى العيش الهنيء والمتاع الحسن الذي وعدهم الله به في صدر السورة .

قوله تعالى : ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ إلى آخر الآية ، لما كانت رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أيدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذي عقل إنكارها ولا لإنسان صحيح المشاعر ردها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين وإنكار المشركين أمراً مستبعداً بحسب الطبع ، وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعداً أخذ الإنسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلباً للمخرج من نسبة الوقوع إلى ما يستبعده الطبع .

ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام وكان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين وإنكار المشركين لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم من الحق الصريح

---

(١) النساء : ١١٦ . (٢) فاطر : ٧ . (٣) الملك : ١٢ .

وما أُنزل اليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج مما لا ينبغي أن يذعن به لبعده طبعاً بيّن تعالى لذلك وجهاً بعد وجه على سبيل الترجي فقال : ﴿ولعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ الخ ، ﴿أم يقولون افتراه﴾ الخ .

فكأنه قيل : من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح ويسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك ويكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وغير داعيهم إليه ولذلك جبّهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله ولذلك لم يؤمنوا به . فإن كنت تركت بعض الوحي خوفاً من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلا ما شاء الله ، وأن يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات « الخ » .

ومما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجي والاحتمال لرعاية ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد ومقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير في الحادثة المستبعدة ، اعتبر ذلك في ملك ينتهي إليه تمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع والطاعة ويكتب في ذلك كتاباً يأمره أن يقرأه عليهم ويلومهم على تمردهم واستكبارهم على ما بهم من الضعف والذلة ولمولاهم من القوة والسطوة والعزة ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله ، ويكتب إليه كتاباً ثانياً يأمره بقراءته عليهم وإذا فيه : لعلك لم تقرأ كتابي عليهم مخافة أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي وإنما افتريته علي افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ وإن كان الثاني فإن الكتاب بخطي كتبته بيدي وختمت عليه بخاتمي ولا يقدر أحد غيري أن يقلدني في ذلك .

والتأمل في هذا المثال يعطي أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثاني من الخطاب مقام الاستبعاد وأن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الإبلاغ وزعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جداً أو احتمال زعمهم الكذب والفرية جداً ، وإنما ذكر الوجهان لداعي أن يكونا كالمقدمة لذكر ما يزول به الشبهتان وهو أن الرسول ليس له من الأمر شيء حتى يقترح عليه بما يقترح ، وأن الكتاب للملك ليس فيه ريب ولا شك .

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى : ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ الخ ، ليس يفيد الترجي الجدي ولا مسوقاً لتوبيخ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا

مراداً به تسليته وتطييب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والأسى بكفرهم وجحودهم لما أتى به من الحق الصريح بل الكلام مسوق ليتوصل به إلى ذكر قوله : ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ .

فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الحزن وضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر والجحود ، والنهي نهي تسلية وتطييب للنفس نظير ما في قوله : ﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾[1] ، وقوله : ﴿لعلّك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾[2] كلام ليس في محله .

ويظهر أيضاً أن قوله : ﴿فلعلّك تارك﴾ الخ ، وقوله : ﴿أم يقولون افتراه﴾ الخ ، كشقّي الترديد ويتصلان معاً بما قبلهما من وجه واحد كما ذكرناه .

وقوله : ﴿تارك بعض ما يوحى إليك﴾ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنة لتبليغ الوحي في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا إليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبّهوك بما جبّهوك به من الرد والجحود ، وذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضاً وشطر منه يقرّب شطراً منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتملة على الدعاوي ، وآيات الثواب والعقاب تقرّب الحق من القبول بالتطميع والتخويف ، وآيات القصص والعبر تستميل النفوس وتليّن القلوب .

وقوله : ﴿وضائق به صدرك أن يقولوا﴾ الخ ، قال في المجمع : ضائق وضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين : أحدهما : أنه عارض والآخر أنه أشكل بقوله تارك . انتهى .

والظاهر أن ضمير ﴿به﴾ راجع إلى قوله : ﴿بعض ما يوحى﴾ وإن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم : ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ الخ ، أو إلى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله ﴿أن يقولوا﴾ الخ ، بدلاً من الضمير في ﴿به﴾ وما ذكرناه أوفق بكونه مفعولاً له لقوله : ﴿تارك﴾ والتقدير : لعلك تارك ذلك مخافة ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ .

وقوله : ﴿إنما أنت نذير﴾ جواب عن اقتراحهم بقولهم : لولا أُنزل عليه

---

(١) النحل : ١٢٧ .	(٢) الشعراء : ٤ .

كنز أو جاء معه ملك ، وقد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيء الملك وزيد في بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة وأن يكون له جنّة يأكل منها وأن ينزل من السماء كتاباً يقرأونه . وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعاً بمثل ما أجاب به ههنا وهو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فليس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله في ذلك شيئاً ويأذن في إتيان آية كما قال : ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾[١] .

ثم عقب قوله : ﴿إنما أنت نذير﴾ بقوله : ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعجزات ومحصّله : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشر مثلهم ولم يؤمر إلا بالإنذار وهو الرسالة بإعلام الخطر ، والقيام بالأمور كلها وتدبيرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما ليس إليه .

وذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها وفاطرها وهو القائم على كل شيء فيما يجري عليه من النظام فما من شيء إلا وهو تعالى المبدأ في أمره وشأنه والمنتهى سواء الأمور الجارية على العادة والخارقة لها فهو تعالى الذي يسلم إليه أمره ويدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذي يسلم إليه الأمر وينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل .

وبذلك يظهر أن قوله : ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ بمعونة من قوله : ﴿إنما أنت نذير﴾ يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمراً ليس إليه وإنما هو إلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور﴾ قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ ﴿أم﴾ متصلة لكون قوله : ﴿فلعلك تارك﴾ الخ ، في معنى الاستفهام ، والتقدير : أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفاً من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به وقيل : إن أم منقطعة والمعنى : بل يقولون افتراه .

وقوله : ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ في الكلام تحدّ ظاهر

---

(١) غافر : ٧٨ .

والضمير راجع إلى القرآن أو إلى السورة بما أنها قرآن والفاء في ﴿فأتوا﴾ تفيد تفريع الأمر على قوله : ﴿افتراه﴾ وفي الكلام حذف وإيصال رعاية للإيجاز ، والتقدير : قل لهم : إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندي وكان من الجائز أن يأتي بمثله غيري فإن كنتم صادقين في دعواكم ومجدّين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات واستعينوا في ذلك بدعوة كل من تستطيعون من دون الله من أوثانكم الذين تزعمون أنهم آلهة تتسرعون إليهم في الحاجات وغيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الأسباب والوسائل ولا يبقى أحد ممن يطمع في تأثير إعانته ويرجى نفعه في ذلك فلو كان من عندي لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله .

وقد بان بهذا البيان أن التحدي بالقرآن في الآية الكريمة ليس من حيث نظمه وبلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء في ذلك آلهتهم وغير آلهتهم وفيهم من لا يعرف الكلام العربي أو جزالة نظمه وصفة بلاغته فالتحدي عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقية والحجج والبراهين الساطعة والمواعظ الحسنة والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والأخبار الغيبية والفصاحة والبلاغة نظير ما في قوله تعالى : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[1] وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الأول من الكتاب .

وبذلك يظهر فساد ما قيل إن جهة إعجاز القرآن إنما هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص لأنه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق لأن البلاغة ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز وأدناها وأوسطها ممكن فالتحدي في الآية إنما وقع في الطبقة العليا منها ، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز .

والمثل المذكور في الآية لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس لأن مثله في الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدي ، وإنما يرجع في ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدي بعضهم بعضاً كما اشتهر من مناقضات امرىء

---

(١) الإسراء : ٨٨ .

القيس وعلقمة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وجرير والفرزدق وغيرهم . انتهى .

فإن فيه أولاً : أن لو كانت جهة الإعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب وهي أمر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتشريك غيرهم في التحدي معنى ، ولم يرجع قوله : ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ على ما فيه من العموم وكذا قوله : ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن﴾ الآية إلى معنى محصّل ولكان من الواجب أن يقال : ﴿لئن اجتمعت العرب﴾ وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لغتكم .

وثانياً : أنه لو كانت جهة الإعجاز هي البلاغة فقط لم يصح الاحتجاج بمثل قوله : ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[١] ، الظاهر في نفي مطلق الاختلاف فإن أكثر الاختلافاتِ وهي التي ترجع إلى المعاني لا تضرّ بلاغة اللفظ .

وثالثاً : أنه تعالى يتحدى بمثل قوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾[٢] ، وبقوله : ﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾[٣] ، وقد استفدنا فيما تقدم أن سورة يونس قبل سورة هود في ترتيب النزول ويؤيده الأثر ، ثم بقوله في هذه السورة : **﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله﴾** ولو كان جهة الإعجاز هي البلاغة خاصة لكانت هذه التحديات خارجة عن النظم الطبيعي إذ لا يصح أن يكلّف البلغاء من العرب المنكرين لكون القرآن من عند الله بإتيان مثل سورة منه ثم بعده بإتيان عشر سور مفتريات بل مقتضى الطبع أن يتحدى بتكليفهم بإتيان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فبإتيان عشر سور مثله مفتريات فإن عجزوا فبإتيان سورة مثله .

وقد ذكر بعضهم في التقصّي عن هذا الإشكال أن الترتيب بين السور ونزول بعضها قبل بعض لا يستلزم الترتيب بين آيات السور فكم من آية مكيّة موضوعة في سورة مدنية وبالعكس فمن الجائز حينئذ أن تكون آيات التحدي بتمام القرآن نازلة قبل غيرها مطلقاً ثم تكون آية التحدي بعشر سور مفتريات نازلة بعدها ، وآية التحدي بسورة واحدة نازلة بعد الجميع .

---

(١) النساء : ٨٢ . (٢) الطور : ٣٤ . (٣) يونس : ٣٨ .

وفيه : أنه إنما ينفع لو صح نزول الآيات على ما صوره وإلا فالإشكال على حاله والحق أن القرآن معجز في جميع صفاته المختصة به من بلاغة وفصاحة وما فيه من المعارف الحقيقية والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والقصص والعبر والأخبار بالمغيبات وما له من السلطان على القلوب والجمال الحاكم في النفوس .

وأما الوجه في التحدي بعشر سور مع ما في سورة يونس من التحدي بواحدة فقد قال في المجمع : فإن قيل : لم ذكر التحدي مرة بعشر سور ومرة بسورة ومرة بحديث مثله ؟ فالجواب : أن التحدي إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدى مرة بالأقل ومرة بالأكثر . انتهى .

أقول : وهو يصلح وجهاً لأصل التحدي بالواحد والكثير وأما التحدي بالعشر بعد الواحدة ولا سيما على ما يراه من كون إعجازه بالبلاغة فحسب فلا .

وذكر بعضهم في توجيه ذلك أن القرآن الكريم معجز في جميع ما يتضمنه من المعارف والأخلاق والأحكام والقصص وغيرها وينعت به من الفصاحة والبلاغة وانتفاء الاختلاف ، وإنما يظهر صحة المعارضة والإتيان بالمثل عند إتيان عدة من السور يظهر به ارتفاع الاختلاف وخاصة من بين القصص المودعة فيها مع سائر الجهات كالفصاحة والبلاغة والمعارف وغيرها .

وإنما يتم ذلك بإتيان أمثال السور الطويلة التي تشتمل على جميع الشؤون المذكورة وتتضمن المعرفة والقصة والحجة وغير ذلك كسورتي الأعراف والأنعام .

والتي نزلت من السور الطويلة القرآنية مما يشتمل على جميع الفنون المذكورة قبل سورة هود على ما ورد في الرواية هي سورة الأعراف وسورة يونس وسورة مريم وسورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة القمر وسورة ص فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود ، وهذا هو الوجه في التحدي بأمرهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، انتهى بتلخيص منا وقد أطنب في كلامه .

أقول : فيه أولاً : أن لا تعويل على الأثر الذي عوّل عليه في ترتيب نزول السور فإنما هو من الآحاد التي لا تخلو عن ضعف ولا ينبغي بناء البحث

التفسيري على أمثالها .

وثانياً : أن ظاهر قوله : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ أن رميهم النبي ﷺ بالافتراء على الله سبحانه قول تقوّلوه بالنسبة إلى جميع السور القرآنية طويلتها وقصيرتها من غير أن يخصوا به سورة دون سورة فمن الواجب أن يجابوا بما يحسم مادة الشبهة بالنسبة إلى كل سورة قرآنية ، والتحدي بما يفي بذلك ، وعجزهم عن إتيان عشر سور مفتريات طويلة تجمع الفنون القرآنية لا يثبت به كون الجميع حتى السور القصار كسورتي الكوثر والعصر من عند الله اللهم إلا ببيان آخر يضم إليه واللفظ خال من ذلك .

وثالثاً : أن قوله : ﴿بعشر سور مثله﴾ إن كان ما فيه من الضمير راجعاً إلى القرآن كما هو ظاهر كلام هذا القائل أفاد التحدي بإتيان عشر سور مفتريات مثله مطلقاً سواء في ذلك الطوال والقصار فتخصيص التحدي بعشر سور طويلة جامعة تقييد للفظ الآية من غير مقيّد وهو تحكم وأشد منه تحكماً القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التي عدها .

وإن كان الضمير راجعاً إلى سورة هود كان مستبشعاً من القول وكيف يستقيم أن يقال لمن يقول : إن سورة الكوثر والمعوذتين من الافتراء على الله : ائت بعشر سور مفتريات مثل سورة هود ويقتصر على ذلك ؟ اللهم إلا أن يهذروا بأن سورة هود وحدها من الافتراء على الله تعالى فيتحدى عندئذ بأن يأتوا بمثلها ، ولم نسمع أحداً منهم تفوّه بذلك .

ويمكن أن يقال في وجه الاختلاف الذي يلوح من آيات التحدي كقوله : ﴿فأتوا بسورة مثله﴾[1] الظاهر في التحدي بسورة واحدة وقوله : ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ الظاهر في التحدي بعدد خاص فوق الواحد وقوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾[2] الظاهر في التحدي بحديث يماثل القرآن وإن كان دون السورة أن كل واحدة من الآيات تؤم غرضاً خاصاً في التحدي .

بيان ذلك : **أن جهات القرآن وشؤونه التي تتقوّم بها حقيقته وهو كتاب إلهي** مضافاً إلى ما في لفظه من الفصاحة وفي نظمه من البلاغة إنما ترجع إلى معانيه ومقاصده لست أعني من المعنى ما يقصده علماء البلاغة في قولهم : إن البلاغة

---

(١) يونس : ٣٨ .　　(٢) الطور : ٣٤ .

من صفات المعنى والألفاظ مطروحة في الطريق يعنون به المفاهيم من جهة ترتبها الطبعي في الذهن فإن الذي يعنون به من المعنى موجود في الكذب الصريح من الكلام وفي الهزل وفي الفحش والهجو والفرية إذا جرت على أسلوب البلاغة وتوجد في الكلام الموروث من البلغاء نظماً ونثراً شيء كثير من هذه الأمور .

بل المراد من معنى القرآن ومقصده ما يصفه تعالى بأنه كتاب حكيم ، ونور مبين ، وقرآن عظيم ، وفرقان ، وهاد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقول فصل وليس بالهزل ، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر وأنه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأنه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، وأنه تبيان لكل شيء ولا يمسه إلا المطهرون .

فمن البيّن أن هذه كلها صفات لمعنى القرآن . وليست صفات لما يقصده علماء البلاغة بالمعنى البليغ الذي ربما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذي يسميه القرآن الكريم لغواً من القول وإثماً وينهى الإنسان عن تعاطيه والتفوّه به وإن كان بليغاً بل المعنى المتصف بهذه الصفات هو شيء من المقاصد الإلهية التي تجري على الحق الذي لا يخالطه باطل ، وتقع في صراط الهداية ، ويكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعته وغرض هذا شأنه هو الذي تتعلق العناية الإلهية بتنزيله وجعله رحمة للمؤمنين وذكراً للعالمين .

وهذا هو الذي يصح أن يتحدى به بمثل قوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ فإنا لا نسمي الكلام حديثاً إلا إذا اشتمل على غرض هام يتحدث به فينقل من ضمير إلى ضمير ، وكذا قوله : ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ فإن الله لا يسمي جماعة من آيات كتابه وإن كانت ذات عدد سورة إلا إذا اشتملت على غرض إلهي تتميز بها من غيرها .

ولولا ذلك لم يتم التحدي بالآيات القرآنية وكان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عدداً ذا كثرة كقوله تعالى : ﴿والضحى﴾ ﴿والعصر﴾ ﴿والطور﴾ ﴿في كتاب مكنون﴾ ﴿مدهامّتان﴾ ﴿الحاقة ما الحاقّة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاقّة﴾ ﴿الرحمن﴾ ﴿ملك الناس﴾ ﴿إله الناس﴾ ﴿وخسف القمر﴾ ﴿كلا والقمر﴾ ﴿سندع الزبانية﴾ إلى غير ذلك من مفردات الآيات ثم يقابل كلاً منها بما يناظرها من الكلام العربي من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض واشتمالها على غرض

يجمعها ويخرجها في صورة الوحدة .

فالذي كلّف به الخصم في هذه التحديات هو أن يأتي بكلام يماثل القرآن مضافاً إلى بلاغة لفظه في بيان بعض المقاصد الإلهية المشتملة على أغراض منعوتة بالنعوت التي ذكرها الله سبحانه .

والكلام الإلهي مع ما تحدّي به في آيات التحدّي يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج إليه نوع الإنسان إلى يوم القيامة من معارف أصلية وأخلاق كريمة وأحكام فرعية ، والسورة من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الأغراض الإلهية المتعلقة بالهدى ودين الحق على بلاغتها الخارقة ، وهذه خاصّة غير الخاصة التي يختص بها مجموع القرآن الكريم ، والعدة من السور كالعشر والعشرين منها تختص بخاصة أخرى وهي بيان فنون من المقاصد والأغراض والتنوع فيها فإنها أبعد من احتمال الاتفاق فإن الخصم إذا عجز عن الإتيان بسورة واحدة كان من الممكن أن يختلج في باله أن عجزه عن الإتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الإتيان بمثلها لا على كونها نازلة من عند الله موحاة بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات والأعمال الإنسانية التي من الممكن في كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتفاقاً لتصادف أسباب موجبة لذلك كفرد من الإنسان موصوف بأنه أطول الأفراد أو أكبرهم جثة أو أشجعهم أو أسخاهم أو أجبنهم أو أبخلهم .

وهذا الاحتمال وإن كان مدفوعاً عن السورة الواحدة من القرآن أيضاً التي يقصدها الخصم بالمعارضة فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حقة ذات صفات كريمة خالية عن مادة الكذب ، وما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق والصدفة من غير أن يكون مقصوداً في نفسه ذا غرض يتعلق به الإرادة .

إلا أنه أعني ما مرّ من احتمال الاتفاق والصدفة عن السور المتعددة أبعد لأن إتيان السورة بعد السورة وبيان الغرض بعد الغرض والكشف عن خبيء بعد خبيء لا يدع مجالاً لاحتمال الاتفاق والصدفة وهو ظاهر .

إذا تبين ما ذكرنا ظهر أن من الجائز أن يكون التحدي بمثل قوله : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيراً﴾(١) وارداً مورد التحدي بجميع القرآن لما جمع فيه من الأغراض الإلهية ويختص بأنه جامع لعامة ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ؛ وقوله : ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ لما فيها من الخاصة الظاهرة وهي أن فيها بيان غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهي بياناً فصلاً من غير هزل ؛ وقوله : ﴿قل فأتوا بعشر سور﴾ تحدياً بعشر من السور القرآنية لما في ذلك من التفنن في البيان والتنوع في الأغراض من جهة الكثرة ، والعشرة من ألفاظ الكثرة كالمأة والألف قال تعالى : ﴿يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة﴾(٢) .

فالمراد بعشر سور ـ والله أعلم ـ السور الكثيرة الحائزة لبعض مراتب الكثرة المعروفة بين الناس فكأنه قيل : فأتوا بعدة من سورها ولتكن عشراً ليظهر به أن تنوّع الأغراض القرآنية في بيانه المعجز ليس إلا من قبل الله .

وأما قوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ فكأنه تحد بما يعم التحديات الثلاثة السابقة فإن الحديث يعم السورة والعشر سور والقرآن كله فهو تحد بمطلق الخاصة القرآنية وهو ظاهر .

بقي هنا أمران **أحدهما** : أنه لم يقع في شيء من آيات التحدي المذكورة توصيف ما يأتي به الخصم بالافتراء إلا في هذه الآية إذ قيل فيها : ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ بخلاف قوله : ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ فلم يقل فيه : ﴿فأتوا بسورة مثله مفتراة﴾ وكذا في سائر آيات التحدي .

ولعل الوجه في ذلك أن نوع العناية في الآية المبحوث عنها غير نوع العناية في سائر آيات التحدي فإن العناية في سائر الآيات متعلقة بأنهم لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن أو بمثل السورة لما أنه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلق بها قدرة الإنسان ولا يظهر عليها غيره تعالى وقد أطلق القول فيها إطلاقاً .

وأما هذه الآية فلما عقبت بقوله : ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ دل ذلك على أن التحدي فيها إنما هو بكون القرآن متضمناً لما يختص علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه ، وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته فكأنه قيل : إن هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لأمور من العلم الإلهي الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه ، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله

---

(١) الإسراء : ٨٨ .

(٢) البقرة : ٩٦ .

مفتريات تدعون أنها افتراء ، واستعينوا بمن استطعتم من دون الله فإن لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من العلم المخصوص به تعالى . فافهم ذلك .

وثانيهما : معنى التحدي بالمثل حيث قيل : ﴿بمثل هذا القرآن﴾ ﴿بحديث مثله﴾ ﴿بسورة مثله﴾ ﴿بعشر سور مثله﴾ والوجه الظاهر فيه أن الكلام لما كان آية معجزة فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى في إبطال كونه آية معجزة ولم يحتج إلى الإتيان بما يترجح عليه في صفاته ويفضل عليه في خواصه . .

وربما يورد عليه أن عدم قدرة غيره ﷺ على ذلك لا يدل على كونه معجزة غير مستندة إليه لأن صفات الكمال التي توجد في النوع الإنساني كالبلاغة والكتابة والشجاعة والسخاء وغيرها لها مراتب متفاوتة مختلفة يفضل بعضها على بعض ، وإذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع وهو غاية ما يمكن أن ترتقي إليه النفس الإنسانية البتة .

فكل صفة من صفات الكمال يوجد بين الأفراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجة العليا والغاية القصوى منها بحيث لا يعدله غيره ولا يعارضه أحد ممن سواه فبالضرورة بين أفراد الإنسان عامة من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامة وأكبرهم جثة ، ولم لا يجوز أن يكون النبي ﷺ أفصح الناس جميعاً وأبلغهم والقرآن من كلامه الذي لا يسع لأحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفاً ليس لغيره فيه موضع قدم ؟ فلا يكون عندئذ عجز غيره عن الإتيان دليلاً على كونه كلاماً إلهياً غير بشري لجواز كونه كلاماً بشرياً مختصاً به ﷺ مضنوناً عن غيره . هذا .

ويدفعه أن الصفات الإنسانية التي يقع فيها التفاضل وإن كانت على ما ذكر لكنها أياً ما كانت فهي مما تسمح بها الطبيعة الإنسانية بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق ومن غير سبب يمكّن الفرد الموصوف من الاتصاف بها .

وإذا كان كذلك وفرض فرد من الإنسان اختص بصفة فاضلة لايعدله غيره ولا يفوقه سواه كان لغيره أن يسلك ما مهده من السبيل ويتعود بالتمرن والتدرب والارتياض بما يأتيه من الأعمال التي تصدر عما عنده من صفة الكمال فيأتي بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال ويقلده في نبذة من أعماله وإن لم يقدر

على أن يزاحمه في الجميع ويماثله في الكل ، ويبقى للفرد النابغ المذكور مقام الأصالة والسبقة والتقدم في ذلك فالحاتم مثلاً وإن كان هو المتفرد غير المعارض في سخائه وجوده من غير أن يسع غيره أن يتقدم عليه ويسبقه لكن من الممكن أن يرتاض مرتاض في سبيله فيتمرن ويتدرب فيه فيأتي بشيء من نوع سخائه وجوده وإن لم يقدر على مزاحمته في الجميع وفي أصل مقامه ، والكمالات الإنسانية التي هي منابع للأعمال سبيلها جميعاً هذا السبيل ، ويتمكن الإنسان بالتمرن والتدرب على سلوك سبيل السابقين المبدعين فيها والإتيان بشيء من أعمالهم وإن لم يسع مزاحمتهم في أصل موقفهم .

فلو كان القرآن من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فرض أنه أبلغ إنسان وأفصحه كان من الجائز أن يهتم غيره فيتمرن على سلوك ما أبدعه في كلامه من النظم البديع فيقدر على تقليده في شيء من الكلام وإتيان شيء من القول بسورة مثله وإن لم يقدر على تقليد القرآن كله والإتيان بجميعه .

ولم يقل فيما تحدى به : فليأتوا بحديث أبلغ منه أو أحسن أو بسورة هي أبلغ أو أحسن حتى يقال : إن القرآن أبلغ كلام بشري أو أحسنه ليس هناك ما هو أبلغ أو أحسن منه حتى يأتي به آت فلا يدل عدم القدرة على الإتيان بذلك على كونه كلاماً لغير البشر ، بل إنما قال : ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ وهكذا وفي وسع البشر الإتيان بمثل كلام غيره من البشر وإن فرض كون ذلك الغير ذا موقف من الكلام لا يعارضه غيره على ما بيناه فالشبهة مندفعة بقوله تعالى ﴿بمثله﴾ .

قوله تعالى : **﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾** إجابة الدعوة واستجابتها بمعنى .

والظاهر من السياق أن الخطاب في الآية للمشركين ، وأنه من تمام كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أمر بقوله تعالى : ﴿قل﴾ أن يلقيه إليهم ، وعلى هذا فضمير الجمع في قوله : ﴿لم يستجيبوا﴾ راجع إلى الآلهة وكُلّ من استعانوا به المدلول عليهم بقوله : ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ .

والمعنى : فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء أهل الكتاب

الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والأمم والكهنة المستمدين من إلقاء شياطين الجن ، وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الإنسانية بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يختلق عن علمي أنا ولا غيري ممن تزعمون أنه يعلمني ويملي علي ، واعلموا أيضاً أن ما أدعوكم إليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه إليه فهل أنتم أيها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره ؟

فقوله تعالى : ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ في معنى قولنا : فإن لم تقدروا على المعارضة بعد الاستعانة والاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله ، وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد ، ولهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم ، وأيضاً ما عند غير آلهتهم من المدد ، وإذا لم يستجبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية .

وقوله : ﴿فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله﴾ الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو الغيب الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بإذنه كما قال تعالى : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾[١] ، وقال : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾[٢] ، وقال : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾[٣] ، وقال : ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين﴾[٤] .

فالمعنى : فإن لم تقدروا على معارضته بأي سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذي يختص به تعالى فهو الذي أنزله علي وكلمني به وأراد تفهيمي وتفهيمكم بما فيه من المعارف الحقة وذخائر الهداية .

---

(١) النساء : ١٦٦ .
(٢) يوسف : ١٠٢ .
(٣) الجن : ٢٧ .
(٤) الواقعة : ٨٠ .

وذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أُنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له ، وذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بنظمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك ، وهذه معان واهية بعيدة عن الفهم .

والجملة أعني قوله : ﴿أنما أُنزل بعلم الله﴾ إحدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابة شركائهم لهم . والنتيجة الأخرى قوله : ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ ولزوم هذه النتيجة من وجهين : **أحدهما** : أنهم إذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهة فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه وخاصة إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذي أتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقطع دابرهم ويميت ذكرهم ويصرف الناس عن التوجه إليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم إذا دعوهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفي ألوهيتهم .

وثانيهما : أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به ، ومما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه .

وقوله : ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي لما علمتم واتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائكم من دون الله وعجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلّمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه وكون هذا القرآن كتاباً نازلاً بعلمه ؟ وهو أمر بالإسلام في صورة الاستفهام . هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية .

وقيل : إن الخطاب في قوله : ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ الخ ، للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خوطب بلفظ الجمع تعظيماً له وتفخيماً لشأنه وضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي إليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله وأن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره .

وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم وأما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع .

مضافاً إلى أن استناد الوحي الإلهي والتكليم الرباني إليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم دلالته على كونه كلاماً من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه

بعدم إجابة المشركين إلى معارضة القرآن وعجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الإنسان والجن والملك وأي هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده إلى متكلمه إلى دليل خارجي من حسن أو عقل ، وقد تقدمت إشارة إلى ذلك في قصة زكريا من سورة آل عمران ، وسيجيء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء الله تعالى .

على أن خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل قوله : ﴿وأنه لا إله إلا هو﴾ ، وقوله : ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ لا يخلو عن بشاعة . على أن نفس الاستدلال أيضاً غير تامّ كما سنبين .

وقيل : إن الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين جميعاً أو للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة الدينية والتحدّي بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى : فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله ؟

ولما تفطّن بعضهم أن لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه إلى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله وازدادوا به إيماناً ويقيناً وأنه لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والإخلاص فيه ؟

وفيه أنه تقييد للآية من غير مقيّد والحجة غير تامة وذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه من الجن والإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلاً واضحاً يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر وتمّت بذلك الحجة عليهم ، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتمروا بما أُمروا به بقوله : ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق وإنما كان قولهم : ﴿افتراه﴾ قولاً ناشئاً عن العناد واللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه ، أو لأنهم كانوا آئسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة ، أو لأنهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذراً .

وبالجملة عدم استجابة المشركين للنبي ﷺ أو للمؤمنين أو لهم جميعاً لا يدلّ بنفسه على كون القرآن نازلاً من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابة المذكورة بعد تحقق دعوتهم شركاءهم إلى المعارضة وعدم استجابتهم لهم ، ولم يتحقق من المشركين دعوة على هذه الصفة ، ومجرد عدم استجابة المشركين أنفسهم لا ينفع شيئاً ، ولا يبقى إلا أن يقال : إن معنى الآية : فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشركون لكم أيها النبي ومعاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله الخ ، وهذا هو الذي أومأنا إليه آنفاً أنه تقييد للآية من غير مقيّد .

على أن فيه أمراً للمؤمنين أن يهتدوا في إيمانهم ويقينهم بأمر فرضيّ غير واقع وكلامه تعالى يجلّ عن ذلك ، ولو أريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك وإن دعوا شركاءهم إلى المعارضة كان من حق الكلام أن يقال : فإن لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا الخ ، كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ التوفية إيصال الحق إلى صاحبه وإعطاؤه له بكماله ، والبخس نقص الأجر .

وفي الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم ولا يسلمون له إيثاراً للحياة الدنيا ونسياناً للآخرة ، وبيان لشيء من سنّة الأسباب القاضية عليهم باليأس من نعيم الحياة الآخرة .

وذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغاية التي أرادها به وعمله لأجلها ، فإن كانت غاية دنيوية تصلح شؤون الحياة الدنيا من مال وجمال وحسن حال ساقه العمل ـ إن أعانته سائر الأسباب العاملة ـ إلى ما يرجوه بالعمل وأما الغايات الأخروية فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع ، ومجرد صلاحية العمل لأن يقع في طريق الآخرة وينفع في الفوز بنعيمها كالبر والإحسان وحسن

---

(١) البقرة : ٢٤ .

الخلق لا يوجب الثواب وارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله ودار ثوابه .

ولذلك عقبه بقوله تعالى : **﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾** فأخبر أنهم إذا وردوا الحياة الآخرة وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياة كما تأكل النار الحطب وتبير وتهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود ، وتحبط جميع ما صنعوا فيها وتبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا ، ولذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أي الهلاك فقال تعالى : ﴿ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها﴾[1] ، وبذلك يظهر أن كلًا من قوله : ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وقوله : ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ يفسر قوله : ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ نوعاً ما من التفسير .

وبما تقدم يظهر **أولاً** : أن المراد من توفية أعمالهم إليهم توفية نتائجها وإيصال الآثار التي لها بحسب نظام الأسباب والمسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله ويرجوه بمسعاه فإن الذي يناله الفاعل في هذه النشأة بفعله هو نتيجة الفعل الذي تعينه سائر الأسباب العاملة عليها لا ما يؤمه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وقد عبر تعالى عن هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله : ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[2] فقال تعالى : ﴿نؤته منها﴾ ولم يقل : نؤته إياها ، وقال في موضع آخر : ﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[3] فذكر ما يريده الإنسان من الدنيا ويناله منها وزاد بياناً أنه ليس كل من يريد أمراً يناله ولا كل ما يراد ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ويقدم من يريد ويؤخر من يريد على ما تجري عليه سنّة الأسباب .

وثانياً : أن الآيتين أعني قوله : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم﴾ إلى آخر الآيتين تبينان حقيقة من الحقائق الإلهية .

---

(١) إبراهيم : ٢٩ .　　(٢) الشورى : ٢٠ .　　(٣) الإسراء : ١٨ .

(بحث روائي)

في الكافي في قوله تعالى : ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ الآية بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال : أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا إذا مروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حول البيت طأطأ أحدهم رأسه وظهره هكذا وغطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله : ﴿ألا إنهم يثنون﴾ الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه .

وفي المجمع روي عن علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليهم السلام يثنوني على يفعوعل .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل من أهل البادية فقال : يا رسول الله إن لي بنين وبنات وإخوة وأخوات وبني بنين وبني بنات وبني إخوة وبني أخوات والمعيشة علينا خفيفة فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا .

قال : وبكى فرق له المسلمون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ من كفل بهذه الأفواه المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صبّاً كالماء المنهمر إن قليل فقليلاً وإن كثير فكثيراً . قال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمن له المسلمون .

قال : قال أبو جعفر عليه السلام : فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن حاله فقال : من أحسن من خوّله حلالاً وأكثرهم مالاً .

وفي الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض اتيحت له إليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني .

أقول : والرواية غير ظاهرة في تفسير الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع : ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله فإن الله تعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسّمها حراماً فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه ، ومن هتك حجاب ستر الله عز وجل وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه .

أقول : الرواية من المشهورات رواها العامة والخاصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير العياشي عن أبي الهذيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله قسَّم الأرزاق بين عباده وأفضل فضلاً كبيراً لم يقسّمه بين أحد قال الله : ﴿واسألوا الله من فضله﴾ .

أقول : والرواية مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد تقدمت بعض ما في هذا المعنى من الأخبار في ذيل قوله تعالى : ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿واسألوا الله من فضله﴾[٢] .

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول : اعلموا علماً يقيناً أن الله جل وعز لم يجعل للعبد وإن اشتدَّ جهده ، وعظمت حيلته وكثرت مكايده أن يسبق ما سمّي له في الذكر الحكيم . أيها الناس إنه لن يزداد امرؤ نقيراً بحذقه ، ولن ينقص امرؤ نقيراً لحمقه فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعته والعالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلاً في مضرّته ، ورب منعم عليه مستدرج بالإحسان إليه ورب مغرور في الناس مصنوع له .

فاتّق الله أيها الساعي عن سعيك ، وقصّر من عجلتك ، وانتبه من سنَة غفلتك وتفكّر فيما جاء عن الله عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم . الحديث .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد الله بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن محمد بن المنكدر كان يقول : ما كنت أظن أن علي بن الحسين يدع خلفاً أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي فأردت أن أعظه

---

(١) آل عمران : ٢٧ . (٢) النساء : ٣٢ .

فوعظني فقال له أصحابه : بأي شيء وعظك ؟ فقال : خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة فلقيني أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكىء على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي : سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا أما إني لأعظنه .

فدنوت منه وسلّمت عليه فردّ عليّ بنهر وهو ينصاب عرقاً فقلت : أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ؟ فقال : لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عز وجل أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس ، وإنما كنت أخاف إن جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني .

وفيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال : استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت : جعلت فداك حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم ؟ فقال : يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني به عن مثلك .

أقول : ولا منافاة بين القضاء بالرزق وبين الأمر بطلبه . وهو ظاهر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وأحمد والترمذيّ وحسّنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقيّ في الأسماء والصفات عن أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله اين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء .

أقول : العماء الغيم الذي يمنع نفوذ البصر فيه ، و﴿ما﴾ في قوله : ﴿ما تحته هواء وما فوقه هواء﴾ موصولة والمراد بالهواء هو الخالي من كل شيء كما في قوله تعالى : ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أو أنها نافية والمراد بالهواء معناه المعروف ، والمراد به أنه كان عماء لا يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات .

والرواية من أخبار التجسم ولذا وجه بأن قوله : في عماء « الخ » كناية عن غيب الذات الذي تكل عنه الأبصار وتتحير فيه الألباب .

وفيه أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض . فنادى مناد : ذهبت ناقتك يابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني تركتها .

أقول : وروى عدة من رجال الحديث هذه الرواية عن بريدة وقال بريدة في آخرها : ﴿ثم أتاني آت فقال : هذه ناقتك قد ذهبت فخرجت والسراب ينقطع دونها فلوددت أني كنت تركتها﴾ وهذا مما يوهن الحديثين .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أخرج داود بن المحبّر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً . ثم قال : وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله وأعلمكم[1] بطاعة الله .

وفي الكافي مسنداً عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال : قال : ليس أكثر [كم ظ] عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة .

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص : الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل والنية أفضل من العمل ألا إن النية هي العمل ثم تلا قوله عز وجل : ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يعني على نيته .

أقول : قوله ألا إن النية هي العمل يعني ليس للعمل أثر إلا لما معه من النية .

وفي تفسير النعماني بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿لئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ قال : العذاب خروج

---

(١) اعملكم ظ .

القائم عليه السلام والأمة المعدودة أهل بدر وأصحابه .

أقـول : وروى هـذا المعنى الكليني في الكـافي والقمي والعيـاشي في تفسيريهما عن علي والباقر والصادق عليهم السلام .

وفي المجمـع قيل : إن الأمـة المعدودة هم أصحـاب المهدي ثـلاثمـائـة وبضعة عشر رجلاً كعدة أهـل بدر يجتمعـون في ساعـة واحدة كمـا يجتمع قـزع الخريف قال : وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ قال : قال : صبروا في الشدة وعملوا الصالحات في الرخاء .

وفي الدر المنثور في قوله : ﴿من كان يريد الحياة الـدنيا﴾ أخـرج البيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامـة صارت امتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصاً ، وفرقـة يعبدون الله ريـاء ، وفرقـة يعبدون الله يصيبون به دنيـا فيقول للذي كـان يعبد الله للدنيـا : بعزتي وجـلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : الـدنيا فيقـول : لا جرم لا ينفعـك ما جمعت ولا تـرجع إليـه انـطلقوا بـه إلى النار ، ويقـول للذي يعبد الله ريـاء : بعـزتي وجـلالي مـا أردت بعبادتي ؟ قال : الرياء فيقول : إنما كانت عبادتك التي كنت ترائي بهـا لا يصعد إليّ منها شيء ولا ينفعك اليوم انطلقوا به إلى النار .

ويقـول للذي كان يعبـد الله خالصـاً : بعزتي وجـلالي ما أردت بعبـادتي ؟ فيقول : بعزتك وجلالك لأنت أعلم به مني كنت أعبـدك لوجهـك ولدارك قـال : صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة .

* * *

أَفَمَنْ كَـانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّـهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِـدٌ مِنْـهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَـاماً وَرَحْمَـةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُـونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَـكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُـونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى

ٱللهِ كَذِباً أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) .

(بيـــان)

ظاهر الآيات أنها واقعة موقع التطييب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقوية إيمانه بكتاب الله وتأكيد ما عنده من البصيرة في أمره فالكلام جار على ما كان عليه من خطابه صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء على الله سبحانه فأمره أن يتحدى عليهم بإتيان عشر سور مثله مفتريات ثم أمره أن يطيب نفساً ويثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله فإنما هو على الحق وليس بمفتر فلا يستوحش من إعراض الأكثرين ولا يرتاب .

قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ الجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذي هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله سبحانه ، و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف والتقدير : كغيره ، أو ما يؤدي معناه ، والدليل عليه قوله تلواً : ﴿أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ .

والاستفهام إنكاري والمعنى : ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن .

وقوله : ﴿على بيّنة من ربه﴾ البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الأمور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما ينضم إليها ويتعلق بها كالنور الذي هو بيّن ظاهر ويظهر به غيره ، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة والآية ، ويقال للشاهد على دعوى المدّعي بينة .

وقد سمّى الله تعالى الحجة بيّنة كما في قوله : ﴿ليهلك من هلك على بيّنة﴾[١] وسمّى آيته بيّنة كما في قوله : ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾[٢] وسمّى البصيرة الخاصة الإلهية التي أوتيها الأنبياء بيّنة كما في قوله حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده﴾[٣] أو مطلق البصيرة الإلهية كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم﴾[٤] وقد قال تعالى في معناه : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[٥] .

والظاهر أن المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقرينة قوله بعد : ﴿أولئك يؤمنون به﴾ وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن الكلام مسوق ليتفرّع عليه قوله : ﴿فلا تك في مرية منه﴾ .

فالمراد بها البصيرة الإلهية التي أوتيها النبي عليه السلام لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهراً أن يتفرع عليه قوله : ﴿فلا تك في مرية منه﴾ وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بيّنة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله : ﴿قل اني على بيّنة من ربي وكذّبتم به﴾[٦] ، فإن المقام غير المقام .

وبما مرَّ يظهر أن قول من يقول : إن المراد بمن كان الخ ، النبي خاصة إرادة استعمالية ليس في محله وإنما هو مراد بحسب انطباق المورد . وكذا قول من قال : إن المراد به المؤمنون من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا دليل على التخصيص .

---

(١) الأنفال : ٤٢ .
(٢) الأعراف : ٧٣ .
(٣) هود : ٢٨ .
(٤) سورة محمد : ١٤ .
(٥) الأنعام : ١٢٢ .
(٦) الأنعام : ٥٧ .

ويظهر أيضاً فساد القول بأن المراد بالبيّنة هو القرآن ، وكذا القول بأنها حجة العقل وأضيفت إلى الرب تعالى لأنه ينصب الأدلة العقلية والنقلية . ووجه فساده أنه لا دليل على التخصيص ولا تقاس البينة القائمة للنبي عليه السلام من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهي القائم لنا من ناحية العقول .

وقوله تعالى : ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ المراد بالشهادة تأدية الشهادة التي تفيد صحة الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقّية القرآن وهو إنما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمُّل .

والظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقّية القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره فآمن به عن بصيرته وشهد بأنه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرُّد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرَّد فيه ربما أوحشه التفرُّد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به أما إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جأشه وقد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله : ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾[١] .

وعلى هذا فقوله : ﴿يتلوه﴾ من التلو لا من التلاوة ، والضمير فيه راجع إلى ﴿من﴾ أو إلى ﴿بيّنة﴾ باعتبار أنه نور أو دليل ، ومآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذي يلي صاحب البينة يلي بيّنته كما يلي نفسه والضمير في قوله : ﴿منه﴾ راجع إلى ﴿من﴾ دون قوله : ﴿ربه﴾ وعدم رجوعه إلى البينة ظاهر ومحصّل المعنى : من كان على بصيرة إلهية من أمر ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة أمره واستقامته .

وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين أن المراد بالشاهد عليٌّ عليه السلام إن أريد به أنه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الإرادة الاستعمالية .

وللقوم في معنى الجملة أقوال شتى فقيل : إن ﴿يتلو﴾ من التلاوة كما قيل : إنه من التلو ، وقيل : إن الضمير في ﴿يتلوه﴾ راجع إلى ﴿البينة﴾ كما قيل : إنه راجع إلى ﴿من﴾ .

---

(١) الأحقاف : ١٠ .

وقيل : المراد بالشاهد القرآن : وقيل : جبرائيل يتلو القرآن على النبي ﷺ ولعله مأخوذ من قوله تعالى : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾[١] ، وقيل : الشاهد ملك يسدّد النبي ﷺ ويحفظه القرآن ، ولعله لنوع من الاستناد إلى الآية المذكورة .

وقيل : الشاهد هو النبي ﷺ وقد قال تعالى : ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾[٢] ، وقيل : شاهد منه لسانه أي يتلو القرآن بلسانه .

وقيل : الشاهد علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقد وردت به عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنّة .

والتأمل في سياق الآية وظاهر جملها يكفي مؤونة إبطال هذه الوجوه غير ما قدمناه من معنى الآية فلا نطيل الكلام بالبحث عنها والمناقشة فيها .

وقوله تعالى : ﴿ومن قبله كتاب موسىٰ إماماً ورحمة﴾ الضمير راجع إلى الموصول أو إلى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير ﴿يتلوه﴾ والجملة حال بعد حال أي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها أن القرآن حقّ منزل من عند الله والحال أن معه شاهداً منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذي هو على بينة سبقه كتاب موسى إماماً ورحمة أو قبل بينته التي منها القرآن أو هي القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهادية إلى الحق كتاب موسى إماماً فليس هو أو ما عنده من البينة بدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوك من قبل يهدي إليه كتاب موسى .

ومن هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى وهو التوراة بالإمام والرحمة فإنه مشتمل على معارف حقة وشريعة إلهية يؤتم به في ذلك ويتنعم بنعمته ، وقد ذكره الله بهذا الوصف في موضع آخر من كلامه فقال : ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ إلى أن قال ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾[٣] .

والآيات ـ كما ترى ـ أقرب الآيات مضموناً من الآية المبحوث عنها تذكر

---

(١) النساء : ١٦٦ .　　(٢) الأحزاب : ٤٥ .　　(٣) الأحقاف : ١٢ .

أولاً : أن القرآن بينة إلهية أو أمر قامت عليه بينة إلهية ثم تذكر شهادة الشاهد من بني إسرائيل عليه وتؤيده بها ثم تذكر أنه مسبوق فيما يتضمنه من المعارف والشرائع بكتاب موسى الذي كان إماماً ورحمة يأتم به الناس ويهتدون ، وطريقاً مسلوكاً مجرَّباً ، والقرآن كتاب مثله مصدّق له منزل من عند الله لإنذار الظالمين وتبشير المحسنين .

ومن هنا يظهر أيضاً : أن قوله : ﴿إماماً ورحمة﴾ حال من كتاب موسى لا من قوله : ﴿شاهد منه﴾ على ما ذكره بعضهم .

قوله تعالى : ﴿أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ المشار إليهم بقوله : ﴿أولئك﴾ بناء على ما تقدم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا على بينة من ربهم المدلول عليهم بقوله : ﴿أفمن كان﴾ الخ ، وأما إرجاع الإشارة إلى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم .

وكذا الضمير في قوله : ﴿به﴾ راجع إلى القرآن من جهة أنه بينة منه تعالى أو أمر قامت عليه البينة ، وأما إرجاعه إلى النبي ﷺ فلا يلائم ما قررناه من معنى الآية فإن في صدر الآية بيان حال النبي ﷺ بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله : ﴿فلا تك في مرية منه﴾ كأنه قيل : إنك على بينة كذا ومعك شاهد وقبلك كتاب موسى ، ومن كان على هذه الصفة يؤمن بما أوتي من كتاب الله ، ولا يصح أن يقال : ومن كان على هذه الصفة يؤمن بك ، والكلام في الضمير في ﴿ومن يكفر به﴾ كالكلام في ضمير ﴿يؤمنون به﴾ .

وأمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى إلى ألوف من المحتملات بعضها صحيح وبعضها خلافه .

قوله تعالى : ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ المرية كجلسة النوع من الشك ، والجملة تفريع على صدر الآية ، والمعنى أن من كان على بينة من ربه في أمر وقد شهد عليه شاهد منه وقبله إمام ورحمة ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله ولا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده ، وأنت كذلك فإنك على بينة من ربك ويتلوك شاهد ومن قبلك كتاب موسى إماماً ورحمة وإذا كان كذلك فلا تك في مرية من أمر ما أنزل إليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله

ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

وقوله : ﴿إنه الحق من ربك﴾ تعليل للنهي وقد أكد بأن ولام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهي قيام البينة وشهادة الشاهد وتقدم كتاب موسى إماماً ورحمة .

قوله تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ إلى آخر الآية ، من الممكن أن يكون ذيلاً للسياق السابق من حيث كان تطييباً لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيؤول المعنى إلى أنك إذ كنت على بينة من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفترياً على الله الكذب لأن المفتري على الله كذباً من أظلم الظالمين ، ولهم من وبال كذبهم كذا وكذا .

وكيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه أو نسبة شيء إليه بغير الحق أو بغير علم ، والافتراء من أظهر أفراد الظلم والإثم ، ويعظم الظلم بعظم متعلقه حتى إذا انتهى إلى ساحة العظمة والكبرياء كان من أعظم الظلم .

والكلام واقع موقع قلب الدعوى عليهم إذ كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنه افترى على الله كذباً بنسبة القرآن إليه فقلب القول عليهم أنهم هم الذين افتروا على الله كذباً إذ أثبتوا له شركاء بغير علم وهو الله لا إله إلا هو ، وإذ صدّوا عن سبيل الله ومعناه نفي كونه سبيلاً لله وهو افتراء ، وإذ طلبوا سبيلاً أخرى فاستنّوا بها في حياتهم وكان ذلك تغييراً لسبيل الله التي تهدي إليها الفطرة والنبوة ، وإذ كفروا بالآخرة فنفوها وذلك إثبات مبدأ من غير معاد ونسبة اللغو وفعل الباطل إليه تعالى وهو افتراء عليه .

وبالجملة انتحالهم بغير دين الله ونحلته ، وأخذهم بالعقائد الباطلة في المبدأ والمعاد واستنانهم بغير سنّة الله في حياتهم الدنيوية الاجتماعية ـ والذي من الله إنما هو الحق ولا سنّة عند الله إلا دين الحق ـ افتراء على الله ، وسيشهد عليهم الأشهاد بذلك يوم يعرضون على ربهم .

وقوله تعالى : ﴿**أولئك يعرضون على ربهم**﴾ العرض إظهار الشيء ليرى ويوقف عليه ، ولما كان ارتفاع الحجب بينهم وبين ربهم يوم القيامة بظهور آياته ووضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضوراً اضطرارياً منهم لفصل

القضاء سماه عرضاً لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزاً منهم لله فقال : ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾[١] ، وقال : ﴿وبرزوا لله الواحد القهّار﴾[٢] فقال : ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ أي يأتي بهم الملائكة الموكّلون بهم فيوقفونهم موقفاً ليس بينهم وبين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء .

وقوله : ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ الأشهاد جمع شهيد كأشراف جمع شريف وقيل : جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب ، ويؤيد الأول قوله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد﴾[٣] ، وقوله : ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾[٤] .

وقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله أي سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادة الأشهاد عليهم بذلك في موقف لا يذكر فيه إلا الحق ولا مناص فيه عن الاعتراف والقبول كما قال تعالى : ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾[٥] وقال تعالى : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله﴾ الخ ، تتمة قول الأشهاد ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾[٧] .

وهذا القول منهم المحكي في كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد واللعن على الظالمين وتسجيل للعذاب ، وليس اللعن والرحمة يوم القيامة كاللعن والرحمة في الدنيا كما في قوله تعالى : ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[٨] وذلك أن الدنيا دار عمل ويوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنة أو رحمة هو إيصال ما ادّخر لهم إليهم فلعن اللاعن أحداً يوم القيامة طرده من رحمة الله الخاصة

---

(١) غافر : ١٦ .
(٢) إبراهيم : ٤٨ .
(٣) النساء : ٤١ .
(٤) ق : ٢١ .
(٥) النبأ : ٣٨ .
(٦) آل عمران : ٣٠ .
(٧) الأعراف : ٤٥ .
(٨) البقرة : ١٥٩ .

بالمؤمنين وتسجيل عذاب البعد عليه .

ثم فسّر سبحانه الظالمين بقوله حكاية عنهم : ﴿**الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ فهم الذين لا يذعنون بيوم الحساب حتى يعملوا له وإنما يعملون للدنيا ويسلكون من طريق الحياة ما يتمتعون به للدنيا المادية فحسب ، وهو السنّة الاجتماعية غير المعتنية بما يريده الله من عباده من دين الحق وملة الفطرة فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع وعملوا بسنّة محرفة منحرفة عن دين الفطرة وهو الإسلام أم لم يعتقدوا به ممن يقول : إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ظالمون مفترون على الله الكذب ، وقد تقدم بعض الكلام المتعلق بهذه المعاني في سورة الأعراف[1] .

وقد بان مما تقدم من البحث في الآيتين أولاً : أن الدين في عرف القرآن هو السنة الاجتماعية الدائرة في المجتمع .

وثانياً : أن السنن الاجتماعية إما دين حق فطري وهو الإسلام أو دين محرف عن الدين الحق وسبيل الله عوجاً .

قوله تعالى : ﴿**أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء**﴾ إلى آخر الآية . الإشارة إلى المفترين على الله الموصوفين بما مر في الآيتين السابقتين .

والمقام يدل على أن المراد من كونهم غير معجزين في الأرض أنهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الأرضية حيث خرجوا عن زي العبودية فأخذوا يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً فكل ذلك لا لأن قدرتهم المستعارة فاقت قدرة الله سبحانه ومشيئتهم سبقت مشيئته ، ولا لأنهم خرجوا من ولاية الله فدخلوا في ولاية غيره وهم الذين اتخذوهم أولياء من أصنامهم وكذا سائر الأسباب التي ركنوا إليها ، وذلك قوله : ﴿**وما كان لهم من دون الله من أولياء**﴾ .

وبالجملة لا قدرتهم غلبت قدرة الله سبحانه ولا شركاؤهم الذين يسمونهم أولياء لأنفسهم أولياء لهم بالحقيقة يدبرون أمرهم ويحملونهم على ما يأتون به من البغي والظلم بل الله سبحانه هو وليهم وهو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء

---

(١) آية ٤٤ ـ ٤٥ .

نياتهم وأعمالهم بما يجرهم إلى سوء العذاب ويستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[١] ، وقال ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[٢] .

وقوله : ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه أو لأنهم عصوا الله بأنفسهم وحملوا غيرهم على معصية الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصية قال تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾[٣] وقال : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾[٤] .

وقوله : ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ في مقام التعليل ولذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا ولم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله ولا لأن لهم أولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار والتبشير من ناحيته أو يذكر لهم من البعث والزجر من قبله وما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم في قوله : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[٥] ، وفي قوله : ﴿ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾[٦] ، وقوله : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾[٧] ، وآيات أخرى كثيرة تدل على أنه تعالى سلبهم عقولهم وأعينهم وآذانهم غير أنه تعالى يحكي عنهم مثل قولهم : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم﴾[٨] ، واعترافهم بأن عدم سمعهم وعقلهم كان ذنباً منهم مع أن ذلك مستند إلى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على أنهم أنفسهم توسلوا إلى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾[٩] وغيره .

وذكروا في معنى قوله : ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ وجوهاً أخرى :

منها : أن قوله : ﴿ما كانوا﴾ « الخ » ، في محل النصب بنزع الخافض

---

(١) الصف : ٥ .
(٢) البقرة : ٢٦ .
(٣) النحل : ٢٥ .
(٤) يس : ١٢ .
(٥) الأعراف : ١٧٩ .
(٦) الأنعام : ١١٠ .
(٧) البقرة : ٧ .
(٨) الملك : ١١ .
(٩) البقرة : ٢٦ .

وهو متعلق بقوله : يضاعف « الخ » ، والأصل : بما كانوا يستطيعون السمع وبما كانوا يبصرون ، والمعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون .

ومنها : أنه عنى بقوله : ﴿ما كانوا يستطيعون﴾ الخ ، نفي السمع والبصر عن آلهتهم وأوثانهم ، وتقدير الكلام أولئك الكفّار وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض ، وقال مخبراً عن الآلهة : ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون .

ومنها : أن لفظة ما في ﴿ما كانوا﴾ ليست للنفي بل تجري مجرى قولهم : لأواصلنّك ما لاح نجم ، والمعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء .

ومنها : أن نفي السمع والبصر بمعنى نفي الفائدة فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله والنظر فيها وكراهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع ولا يبصر فالكلام على الكناية .

وأعدل الوجوه آخرها وهي جميعاً سخيفة ظاهرة السخافة . والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : **﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾** أما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقة ـ وذلك بتمليك من الله تعالى ـ إلا نفسه وإذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها وضيَّعتها بالكفر والمعصية فقد خسر في هذه المعاملة التي أقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك ، وأما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذباً وافتراء ليس له وجود في الخارج من أوهامهم ومزاعمهم التي زيَّنتها لهم الأهواء والهوسات الدنيوية وبانطواء بساط الحياة الدنيا يزول وينمحي تلك الأوهام ويضلّ ما لاح واستقر فيها من الكذب والافتراء ويومئذ يعلمون أن الله هو الحق المبين ، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

قوله تعالى : **﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾** عن الفراء : أن ﴿لا جرم﴾ في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى ﴿حقاً﴾ ولهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا . انتهى ، وقد ذكروا أن ﴿جرم﴾ بفتحتين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظة ﴿لا محالة﴾ وتفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا

كذا كما يتصور نظير المعنى في ﴿لا محالة﴾ فمعنى الآية على هذا : حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون .

ووجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها وإضاعتها بالكفر والعناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا ويسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد ، قال تعالى : ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[١] . وقال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[٢] . وقال أيضاً في سبب عدم إمكان إيمانهم : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله﴾[٣] .

وإن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله حرموا سعادة الحياة التي يمهدها لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلدة وأما الدنيا فليست إلا قليلاً ، قال تعالى : ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[٤] .

على أن الأعمال تشتدُّ وتتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى : ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾[٥] ، وأحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآية حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا .

قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ إلى آخر الآية ، قال الراغب في المفردات : الخبت المطمئن من الأرض وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضع قال الله تعالى : وأخبتوا إلى ربهم ، وقال : وبشر المخبتين أي المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته ، وقوله : فتخبت له قلوبهم أي

---

(١) الأنعام : ١٢ .
(٢) يس : ١٠ .
(٣) الجاثية : ٢٣ .
(٤) الأحقاف : ٣٥ .
(٥) الإسراء : ٧٢ .

تلين وتخشع . انتهى .

فالمراد بإخباتهم إلى الله اطمئنانهم إليه بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون ولا يرتابون كالأرض المطمئنة التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل أن الأصل ، أخبتوا لربهم فإن ما في معنى الاطمئنان يتعدى بإلى دون اللام .

وتقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبات إليه يدل على أن المراد بهم طائفة خاصة من المؤمنين وهم المطمئنون منهم إلى الله ممن هم على بصيرة من ربهم ، وهو الذي أشرنا إليه في صدر الآيات عند قوله : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ الخ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس وهم أهل البصيرة الإلهية ومن عميت عين بصيرته .

ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعني قوله : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ إلى قوله ﴿أفلا تذكرون﴾ بيان لحال الفريقين وهم الذين يكفرون بالقرآن والذين يؤمنون به .

قوله تعالى : **﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾** المثل هو الوصف ، وغلب في المثل السائر وهو بيان معنى من المعاني الخفية على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه ويتلقاه فهمه لينتقل به إلى المعنى المعقول المقصود بيانه ، والمراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقة ، والباقي واضح .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر الخلال قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فقال : أمير المؤمنين عليه السلام هو الشاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسول الله على بينة من ربه .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين عن الحسن عليهم السلام في خطبة طويلة خطبها بمحضر معاوية ـ منها ـ فأدت الأمور وأفضت الدهور إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للنبوة واختاره للرسالة ، وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله عز وجل

فكان أبي أول من استجاب لله عز وجل ولرسله وأول من آمن وصدّق الله ورسوله ، وقد قال الله عز وجل في كتابه المنزل على نبيه المرسل : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي على بينة من ربه ، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه . الخطبة .

أقول : وكلامه عليه السلام أحسن شاهد على ما قدمناه في معنى الآية أن إرادته عليه السلام بالشاهد من باب الانطباق .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر ، والله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار إلا وقد علمت فيمن أنزلت ، ولا أحد ممن مر على رأسه المواسي إلا وقد أنزلت آية فيه من كتاب الله تسوقه إلى الجنة أو النار .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ما الآية التي نزلت فيك ؟ قال : أما سمعت الله يقول : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بينة من ربه وأنا الشاهد له ومنه .

أقول : وروى هذا المعنى المفيد في الأمالي مسنداً وفي كشف الغمة مرسلاً عن عباد بن عبد الله الأسدي عنه عليه السلام ، والعياشي في تفسيره مرسلاً عن جابر عن عبد الله بن يحيى عنه عليه السلام وكذا ابن شهر آشوب عن الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عنه عليه السلام وكذا عن الأصبغ وعن زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بينة من ربه ، وأنا شاهد منه .

أقول : وفي تفسير البرهان عن تفسير الثعلبي بإسناده عن الشعبي يرفعه إلى علي عليه السلام مثله وفيه عن ابن المغازلي يرفعه إلى عباد بن عبد الله عن علي

عليه السلام مثله وكذا عن كنوز الرموز للرسعني مثله .

وفيه أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أنا ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ قال : علي .

أقول : وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي في تفسير الآية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله .

وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي بإسناده عن علي بن حابس قال : دخلت أنا وأبو مريم على عبد الله بن عطاء قال أبو مريم : حدّث علينا الحديث الذي حدثتني به عن أبي جعفر قال : كنت عند أبي جعفر جالساً إذ مَر علينا ابن عبد الله بن سلام قلت : جعلت فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب ، قال : لا ولكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى : ﴿من عنده علم الكتاب﴾ ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ .

وفيه عن ابن شهر آشوب عن الحافظ أبي نعيم بثلاثة طرق عن ابن عباس قال : قال : سمعت عليّاً يقول : قول الله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ رسول الله ﷺ على بينة وأنا الشاهد .

وفيه أيضاً عن موفق بن أحمد قال : قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ قال ابن عباس : هو علي يشهد للنبي ﷺ وهو منه .

أقول : ورواه عن الثعلبي في تفسيره يرفعه إلى ابن عباس ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ علي خاصة .

أقول : قال صاحب المنار في تفسير الآية عند ذكر معاني الشاهد : ومنها : أنه علي رضي الله عنه ترويه الشيعة ويفسرونه بالإمامة ، وروي : أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره وفسره بأنه لسانه ﷺ ، وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا : إنه أبو بكر ، وهما من التفسير بالهوى . انتهى أما قوله : ﴿إن الشيعة ترويه﴾ فقد عرفت أن رواته من أهل السنّة أكثر من الشيعة ، وأما قوله : ﴿إنه مثل تفسيره بأبي بكر من التفسير بالهوى﴾ فيكفيك في ذلك ما تقدم في معنى الآية فراجع .

وفي الكافي بإسناده عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : إن عندنا رجلاً يقال له : كليب فلا يجيء عنكم شيء إلا قال : أنا أسلم فسميناه كليب تسليم قال : فترحّم عليه ثم قال : أتدرون ما التسليم ؟ فسكتنا فقال : هو والله الإخبات قول الله عز وجل : ﴿الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات وأخبتـوا إلى ربهم﴾ .

أقول : وروى مثله العياشي في تفسيره والكشي وكذا صاحب البصائر عن أبي أسامة زيد الشحام عنه عليه السلام .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرٰيكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرٰيكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرٰيكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِنْ شَآءَ

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) .

(بيـــان)

شروع في قصص الأنبياء عليهم السلام وقد بدأ بنوح وعقبه بجماعة ممن بعده كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام . وقد قسّم قصة نوح إلى فصول أولها احتجاجه عليه السلام على قومه في التوحيد فهو عليه السلام أول الأنبياء الناهضين للتوحيد على الوثنية على ما ذكره الله تعالى في كتابه ، وأكثر ما قصّ من احتجاجه عليه السلام مع قومه من المجادلة بالتي هي أحسن وبعضه من الموعظة وقليل منه من الحكمة وهو الذي يناسب تفكر البشر الأولي والإنسان القديم الساذج ، وخاصة تفكرهم الاجتماعي الذي لا ظهور فيه إلا للمركوم من أفكار الأفراد المتوسطين في الفهم .

قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ القراءة المعروفة ﴿إني﴾ بكسر الهمزة على تقدير القول وقرىء أني بفتح الهمزة بنزع الخافض والتقدير بأني لكم نذير مبين ، والجملة أعني قوله : ﴿إني لكم نذير مبين﴾ على أي حال بيان إجمالي لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه وارسل به إليهم إنذار مبين فهو نذير مبين .

فكما أنه لو قال : ما سألقيه إليكم من القول إنذار مبين كان بياناً لجميع ما أرسل به إليهم بأوجز كلمة كذا قوله : إني لكم نذير مبين بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه ببيان سمة نفسه وهي أنه رسول من الله إليهم لينذرهم بعذاب الله ، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطة يحمل الرسالة .

قوله تعالى : ﴿أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ . بيان ثانٍ لما أرسل به أو بيان لقوله : ﴿إني لكم نذير مبين﴾ ومآل الوجهين واحد ، وأن على أي حال مفسرة ، والمعنى أن محصل رسالته النهي عن عبادة غير الله تعالى

من طريق الإنذار والتخويف .

وذكر بعض المفسرين أن الجملة أعني قوله : ﴿أن لا تعبدوا﴾ الخ ، بدل من قوله : ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أو مفعول لقوله مبين . ولعل السياق يؤيد ما قدمناه .

والظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة أو الأعمّ من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم : ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ الآية ، فإنه ظاهر في عذاب الاستئصال .

فهو عليه السلام كان يدعوهم إلى رفض عبادة الأوثان ويخوّفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أي مؤلم ونسبة الإيلام إلى اليوم دون العذاب في قوله : ﴿عذاب يوم أليم﴾ من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف .

وبما تقدم يندفع ما ربما قيل : إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه في خوفه عليه السلام من تعذيبهم المقطوع ؟ والخوف إنما يستقيم في محتمل الوقوع لا مقطوعه .

وبالجملة كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب ، وإنما كان يخوّفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفاً من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم ودبّر شؤون حياتهم وأمور معاشهم بخلق السماوات والأرض وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإنبات الأرض وإنشاء الجنات وشق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام في سورة نوح .

وإذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه وليعبدوه وحده .

وهذه الحجة في الحقيقة حجة برهانية مبنية على اليقين لكنهم إنما كانوا يتلقونها حجة جدلية مبنية على الظن لأنهم لسذاجة أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الرب وعذابه على المخالفة لأنهم يرونه ولياً لأمرهم مصلحاً لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من الإنسان الحاكمين في من دونهم من أفراد المجتمع الذين يجب الخضوع لمقامهم والتسليم لإرادتهم ولو استكبر عن الخضوع لهم والتسليم

لإرادتهم من دونهم سخطوا عليهم وعاقبوهم بما أجرموا وتمردوا .

وعلى هذا القياس يجب إرضاء الرب أو الأرباب الذين يرجع إليهم أمر الكون وولاية النظام الجاري فيه فيجب إرضاؤه وإخماد نار غضبه بالخضوع له والتقرب إليه بتقديم القرابين والتضحية وسائر أنحاء العبادة فهكذا كانوا يعتقدون وهو مبني على الظن .

لكن مسألة نزول العذاب على الاستنكاف عن عبادة الله تعالى والاستكبار عن التسليم والخضوع لساحة الربوبية مسألة حقيقية يقينية فإن من النواميس الكلية الجارية في الكون لزوم خضوع الضعيف للقوي والمتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك في الله الواحد القهار الذي إليه مصير الأمور .

وقد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون وربط بعضها ببعض ثم أجرى الحوادث على نظام الأسباب وعلى ذلك يجري كل شيء في نظام وجوده فلو انحرف عما يخطّه له سائر الأسباب من الخط أدى ذلك إلى اختلال نظامها وكان ذلك منازعة منه لها وعند ذلك ينتهض سائر الأسباب الكونية من أجزاء الوجود لتعديل أمره وإرجاعه إلى خط يلائمها تدفع بذلك الشر عن نفسها فإن استقام هذا الجزء المنحرف عن خطّه المخطوط له فهو وإلا حطمتها حاطمات الأسباب ونازلات النوائب والبلايا ، وهذا أيضاً من النواميس الكلية .

والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون له في حياته خط خطّه له الصنع والإيجاد فإن سلكه هداه إلى سعادته ووافق بذلك سائر أجزاء الكون وفتحت له أبواب السماء ببركاتها وسمحت له الأرض بكنوز خيراتها ، وهذا هو الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى المدعو إليه بدعوة نوح ومن بعده من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

وإن تخطاه وانحرف عنه فقد نازع أسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري وزاحمها في شؤون حياتها فليتوقع مرّ البلاء ولينتظر العذاب والعناء فإن استقام في أمره وخضع لإرادة الله سبحانه وهي ما تحطمه من الأسباب العامة فمن المرجو أن تتجدد له النعمة بعد النقمة وإلا فهو الهلاك والفناء وإن الله لغني عن العالمين ، وقد تقدم هذا البحث في بعض أجزاء الكتاب السابقة .

قوله تعالى : **﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾**

إلى آخر الآية ، الفاء في صدر الآية لتفريع جوابهم عن قول نوح ﷺ، وفيه إشارة إلى أنهم بادروه بالرد والإنكار من دون أن يفكروا في أنفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم .

والمجيبون هم الملأ من قومه والأشراف والكبراء الذين كفروا به ولم يتعرضوا في جوابهم لما ألقى إليهم من حجة التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفي رسالته والاستكبار عن طاعته فإن قوله : ﴿إني لكم نذير مبين﴾ إلى آخر الآيتين ، كان مشتملاً على دعوى الرسالة وملوّحاً إلى وجوب الاتباع وقد صرح به فيما حكي عنه في موضع آخر ، قال تعالى : ﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾(١) .

ومحصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو في الحقيقة حجتان منظومتان على طريق الإضراب والترقي ولذلك أخر قولهم : ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ .

والحجة الأولى التي مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينة بطرق ثلاث هي قوله : ﴿ما نراك إلا بشراً﴾ الخ ، وقوله : ﴿وما نراك اتبعك﴾ الخ ، وقوله : ﴿وما نرى لكم علينا﴾ الخ .

والحجة بجميع أجزائها مبنية على إنكار ما وراء الحس كما سنبين ولذلك كرروا فيه قولهم : ما نراك وما نرى .

فقوله : ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ أول جوابهم عما يدعيه نوح ﷺ من الرسالة ، وقد تمسكوا فيه بالمماثلة كما هو دأب سائر الأمم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى في كتابه وتقريره : أنك مثلنا في البشرية ولو كنت رسولاً إلينا من عند الله لم تكن كذلك ولا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا ، وإذ كنت بشراً مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك .

ففي الكلام تكذيب لرسالته ﷺ بأنه ليس إلا بشراً مثلهم ثم استنتاج من ذلك أنه لا دليل على لزوم اتباعه ، والدليل على ما ذكرنا قول نوح ﷺ فيما سيحكيه الله تعالى من كلامه : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ الخ .

---

(١) نوح : ٣ .

وقد اشتبه الأمر على بعض المفسرين فقرر قولهم : ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ بأنهم ساووه بأنفسهم في الزنة الاجتماعية واستنتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له ، قال في تفسير الآية : أجابوه بأربع حجج داحضة . إحداها : أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة ، وهذا يدل على أنه ﷺ كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه وهكذا كان كل رسول من وسط قومه ، ووجه الجواب أن المساواة تنافي دعوى تفوّق أحد المتساويين على الآخر بجعل أحدهما تابعاً طائعاً والآخر متبوعاً مطاعاً لأنه ترجيح بغير مرجح . انتهى .

ولو كان المعنى ما ذكره لكان من حق الكلام أن يقال : أنت مثلنا أو نراك مثلنا دون أن يقال : ما نراك إلا بشراً مثلنا فيذكر أنه بشر ولا حاجة إلى الإشارة إلى بشريته ، ولكان معنى الكلام عائداً إلى المراد من قولهم بعد : وما نرى لكم علينا من فضل ، وكان فضلاً من الكلام .

ومن العجب استفادته من الكلام مساواته ﷺ لهم في البيت والشخصية ثم قوله : ﴿وهكذا كان كل رسول من وسط قومه﴾ وفي الرسل مثل إبراهيم وسليمان وأيوب عليهم السلام .

وقوله : ﴿**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾ قال في المفردات : الرذل ـ بفتح الراء ـ والرذال ـ بكسرها ـ المرغوب عنه لرداءته قال تعالى : ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ وقال : ﴿إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ وقال : ﴿قالوا انؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ جمع الأرذل .

وقال في المجمع : الرذل الخسيس الحقير من كل شيء والجمع أرذل ثم يجمع على أراذل كقولك : كلب وأكلب وأكالب ، ويجوز أن يكون جمع الأرذل فيكون مثل أكابر جمع أكبر .

وقال : والرأي الرؤية من قوله : ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ أي رؤية العين والرأي أيضاً ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء . انتهى .

وقال في المفردات : وقوله ﴿بادىء الرأي﴾ أي ما يبدأ من الرأي وهو الرأي الفطير ، وقرىء : بادي بغير همزة أي الذي يظهر من الرأي ولم يتروّ فيه . انتهى .

وقوله : ﴿بادي الرأي﴾ يحتمل أن يكون قيداً لقوله : ﴿هم أراذلنا﴾ أي

كونهم أراذل وسفلة فينا معلوم في ظاهر الرأي والنظر أو في أول نظرة .

ويحتمل كونه قيداً لقوله : ﴿اتبعك﴾ أي اتبعوك في ظاهر الرأي أو في أوله من غير تعمّق وتفكر ولو تفكروا قليلاً وقلبوا أمرك ظهراً لبطن ما اتبعوك ، وهذا الاحتمال لا يستغني عن تكرار الفعل ثانياً والتقدير : اتبعوك بادي الأمر وإلا اختلّ المعنى لو لم يتكرر وقيل : ما نراك اتبعك في بادي الرأي إلا الذين هم أراذلنا . وبالجملة معنى الآية : أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل والأخساء من القوم ولو اتبعناك ساويناهم ودخلنا في زمرتهم وهذا ينافي شرافتنا ويحط قدرنا في المجتمع ، وفي الكلام إيماء إلى بطلان رسالته عليه السلام بدلالة الالتزام فإن من معتقدات العامة أن القول لو كان حقاً نافعاً لتبعه الشرفاء والعظماء وأولو القوة والطول فلو استنكفوا عنه أو اتبعه الأخساء والضعفاء كالعبيد والمساكين والفقراء ممن لا حظ له من مال أو جاه ولا مكانة له عند العامة فلا خير فيه .

وقوله : ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل**﴾ المراد نفي مطلق الفضل من متاع دنيوي يختصون بالتنعم به أو شيء من الأمور الغيبية كعلم الغيب أو التأيد بقوة ملكوتية وذلك لكون النكرة ـ فضل ـ واقعة في سياق النفي فتفيد العموم .

وقد أشركوا أتباع نوح عليه السلام والمؤمنين به منهم في دعوته إذ قالوا : ﴿وما نرى لكم علينا﴾ ولم يقولوا : ﴿وما نرى لك﴾ لأنهم كانوا يحثونهم ويرغبونهم في اتباع ما اتبعوه من الطريقة .

والمعنى : أن دعوتكم إيانا ـ وعندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال والبنين والعلم والقوة ـ إنما يستقيم ويؤثر أثره لو كان لكم شيء من الفضل تفضلون به علينا من زينة الحياة الدنيا أو علم من الغيب أو قوة من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعاً منا لكم ولا نرى شيئاً من ذلك عندكم فأي موجب يوجب علينا اتباعكم ؟

وإنما عممنا الفضل في كلامه للفضل من حيث الجهات المادية وغيره كعلم الغيب والقوة الملكوتية خلافاً لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادي كالمال والكثرة وغيرهما ، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكرة في سياق النفي .

مضافاً إلى أن ما يحاذي قولهم هذا من جواب نوح عليه السلام يدل على ذلك

وهو قوله : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ الخ على ما سيأتي .

وقوله تعالى : ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ إضراب في الاحتجاج كما تقدمت الإشارة إليه فمحصله أنا لا نرى معكم أمراً يوجب اتباعنا لكم بل هناك أمر يوجب عدم الاتباع وهو أنا نظنكم كاذبين .

ومعناه على ما يعطيه السياق ـ والله أعلم ـ أنه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحة دعوتكم وأنكم تلحون علينا بالسمع والطاعة وأنتم صفر الأيدي من مزايا الحياة من مال وجاه وهذه الحال تستدعي الظن بأنكم كاذبون في دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من أماني الحياة بهذه الوسيلة وبالجملة هذه إمارة توجب عادة الظن بأنها أكذوبة يتوسل بها إلى اقتناء الأموال والقبض على ثروة الناس والاستعلاء عليهم بالحكم والرئاسة ، وهذا كما حكى الله سبحانه عنهم في مثل القصة إذ قال : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾[1] . وبهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم ، وأن المراد بالكذب الكذب المخبري دون الخبري .

قوله تعالى : ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ إلى آخر الآية بيان لما أجاب به نوح عليه السلام عن حجتهم إلى تمام أربع آيات ، والتعمية الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحية جهلكم وكراهتكم للحق . وقرىء : عميت بالتخفيف والبناء للفاعل أي خفيت عليكم تلك الرحمة .

لما كانت حجتهم مبنية على الحس ونفي ما وراءه وقد استنتجوا منها أولاً عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه ثم أضربوا عنه بالترقي إلى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم أجابهم عليه السلام بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه ، ونفي ما حاولوا إثباته باتهامه واتهام أتباعه بالكذب غير أنه استعطفهم بخطاب يا قوم ـ بالإضافة إلى ضمير التكلم ـ مرة بعد مرة ليجلبهم إليه فيقع نصحه موقع القبول منهم .

وقد أبدع الآيات الكريمة في تقرير حجته عليه السلام في جوابهم فقطّعت حجتهم

---

(١) المؤمنون : ٢٤ .

فصلاً فصلاً وأجابت عن كل فصل بوجهيه أعني من جهة إنتاجه أن لا دليل على اتباعه عليه السلام وأن الدليل على خلافه وذلك قوله : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة﴾ الخ ، وقوله : ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ الخ ، وقوله : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ الخ ، ثم أخذت من كل حجة سابقة شيئاً يجري مجرى التلخيص فإضافته إلى الحجة اللاحقة بادئة به فامتزجت الحجة بالحجة على ما لكل منها من الاستقلال والتمام .

فتمت الحجج ثلاثاً كل واحدة منها مبدوّة بالخطاب وهي قوله : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة﴾ الخ ، وقوله : ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ الخ ، وقوله : ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ الخ ، فتدبّر فيها .

فقوله : ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ جواب عن قولهم : ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ يريدون به أنه ليس معه إلا البشرية التي يماثلهم فيها ويماثلونه فبأي شيء يدعي وجوب اتباعهم له ؟ بل هو كاذب يريد بما يدّعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم ويترأس عليهم .

وإذ كان هذا القول منهم متضمناً لنفي رسالته وسندهم في ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة والاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقة في دعوى الرسالة وهو الآية المعجزة الدالّة على صدق الرسول في دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية لا طريق إلى العلم بتحققه إلا بوقوع أمر غيبي آخر خارق للعادة يوقن به كون الرسول صادقاً في دعواه الرسالة ، ولذلك أشار عليه السلام بقوله : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ إلى أن معه بينة من الله وآية معجزة تدل على صدقه في دعواه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالبينة الآية المعجزة التي تدل على ثبوت الرسالة لأن ذلك هو الذي يعطيه السياق فلا يعبأ بما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالبينة في الآية العلم الضروري الذي يعلم به النبيّ أنه نبيّ وذلك لكونه معنى أجنبياً عن السياق .

وقوله : ﴿**وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم**﴾ الظاهر أنه عليه السلام يشير به إلى ما آتاه الله تعالى من الكتاب والعلم ، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية

الكتاب وكذا تسمية العلم بالله وآياته رحمة قال تعالى : ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾[١] ، وقال : ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة﴾[٢] ، وقال : ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا﴾[٣] ، وقال : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾[٤] .

وأما قوله : ﴿فعمّيت عليكم﴾ فالظاهر أن ضميره راجع إلى الرحمة ، والمراد أن ما عندي من العلم والمعرفة أخفاها عليكم جهلكم وكراهتكم للحق بعد ما ذكّرتكم به وبثثته فيكم .

وقوله : ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفكّ منه ، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الإيمان بالله وآياته والتلبّس بما يستدعيه المعارف الإلهية من النور والبصيرة .

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدّق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم وكان عندي ما تحتاج إليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكم إلى الحق لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم واستكباركم أيجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها ؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته وقد أوقفتكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغياناً واستكباراً وليس عليّ أن اجبركم عليها ، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه .

ففي الكلام تعريض لهم أنه قد تمت عليهم الحجة وبانت لهم الحقيقة فلم يؤمنوا لكنهم مع ذلك يريدون أمراً يؤمنون لأجله وليس إلا الإجبار والإلزام على كراهية ، فهم في قولهم : لا نراك إلا بشراً مثلنا ، لا يريدون إلا الإجبار ، ولا إجبار في دين الله .

والآية ، من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين تدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع وهي شريعة نوح عليه السلام وهو باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ .

وقد ظهر مما تقدّم أن الآية ، أعني قوله : ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت﴾ الخ ،

---

(١) هود : ١٧ .
(٢) النحل : ٨٩ .
(٣) الكهف : ٦٥ .
(٤) آل عمران : ٨ .

جواب عن قولهم : ﴿لا نراك إلا بشراً مثلنا﴾ ويظهر بذلك فساد قول بعضهم : إنه جواب عن قولهم : ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ وقول آخرين : إنه جواب عن قولهم : ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ وقول طائفة أخرى إنه جواب عن قولهم : ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ ولا نطيل الكلام بالتعرض لتوضيحها وردها .

قوله تعالى : **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله﴾** يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب ولازمه أن تكون دعوته طريقاً إلى جلب أموالهم وأخذ ما في أيديهم طمعاً فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئاً من أموالهم لم يكن لهم أن يتهموه بذلك .

قوله تعالى : **﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾** جواب عن قولهم : ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ وقد بدل لفظة الأراذل ـ وهي لفظة إرزاء وتحقير ـ من قوله : الذين آمنوا تعظيماً لأمر إيمانهم وإشارة إلى ارتباطهم بربهم .

نفى في جوابه أن يكون يطردهم وعلل ذلك بقوله : ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ إيذاناً بأن لهم يوماً يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير أو شر فحسابهم على ربهم وليس لغيره من الأمر شيء ، فليس على نوح عليه السلام أن يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء والمساكين والضعفاء أن يطردوا من مجتمع الخير ويسلبوا النعمة والشرافة والكرامة .

فظهر أن المراد بقوله : ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ الإيمان إلى محاسبة الله سبحانه إياهم يوم يرجعون فيه إليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾[1] .

وأما قول من قال : إن معنى قوله : ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أنه لا يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازي من ظلمهم وطردهم ، أو أنهم ملاقوا ثواب ربهم

---

(١) الأنعام : ٥٧ .

فكيف يكونون أراذل وكيف يجوز طردهم وهم لا يستحقون ذلك ، فبعيد عن الفهم . على أن أول المعنيين يجعل الآية التالية أعني قوله : ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ الآية زائدة مستغنى عنها كما هو ظاهر .

وظهر أيضاً أن المراد بقوله : ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ جهلهم بأمر المعاد وأن الحساب والجزاء إلى الله لا إلى غيره ، وأما ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهالة المضادة للعقل والحلم أي تسفهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقة الامتياز بين إنسان وإنسان باتباع الحق وعمل البر والتحلي بالفضائل لا بالمال والجاه كما تظنون فهو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون﴾ النصر مضمَّن معنى المنع أو الإنجاء ونحوهما والمعنى من يمنعني أو من ينجيني من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم ، والله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منه ، والعقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوي بين الظالم والمظلوم ، ولا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوؤه ويشفي به غليل صدر المظلوم والله عزيز ذو انتقام .

قوله تعالى : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ جواب عن قولهم : ﴿ولا نرى لكم علينا من فضل﴾ يرد عليهم قولهم بأني لست أدّعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدّعيه بما أني أدّعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء .

وأن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه إلى نفسه ، ويدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه وبالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره .

وأن يرتفع عن درجة البشرية إلى مقام الملكية أي يكون ملكاً منزّهاً من ألواث الطبيعة ومبرى من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق واقتناء لوازم الحياة وأمتعتها .

فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها ويمتلكها

فيستقل بها ، وقد أخطأتم فليس للرسول إلا الرسالة وإني لست أدّعي شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، وبالجملة لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده ، وإنما أقول إني على بينة من ربي تصدق رسالتي وآتاني رحمة من عنده .

والمراد بقوله : ﴿خزائن الله﴾ جميع الذخائر والكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون إليه في وجودهم وبقائهم ويستعينون به على تتميم نقائصهم وتكميلها .

فهاتيك هي التي تزعم العامة أن الأنبياء والأولياء يؤتون مفاتيحها ويمتلكون بها من القدرة ما يفعلون بها ما يشاءون ويحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد حكاه الله تعالى إذ يقول : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾(١) .

وإنما قال : ﴿ولا أعلم الغيب﴾ ولم يقل : ولا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به ولا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل : لا أقول إني أعلم الغيب نافياً لوجوده عند القائل بل يحتاج إلى أن يقال : لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله : ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ وقوله : ﴿ولا أقول إني ملك﴾ ، ولم يكرر قوله : ﴿لكم﴾ لحصول الكفاية بالواحدة .

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح عليه السلام قومه ثم ذيّله بما يظهر به المراد إذ قال : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾(٢) .

أنظر إلى قوله : ﴿لا أقول لكم﴾ الخ ، ثم إلى قوله : ﴿إن أتّبع إلا ما

---

(١) الإسراء : ٩٣ . (٢) الأنعام : ٥٠ .

يوحى إليّ﴾ ثم إلى قوله : ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ الخ ، فهو ينفي أولاً الفضل الذي يتوقعه عامة الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادر إلى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة إليه كالأعمى بالنسبة إلى البصير وهذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتّبع الأعمى البصير ، وهو المجوّز له أن يدعوهم إلى اتباعه .

(كلام في قدرة الأنبياء والأولياء فلسفي قرآني)

الناس في جهل بمقام ربهم وغفلة عن معنى إحاطته وهيمنته فهم مع ما تهديهم الفطرة الإنسانية إلى وجوده وأحديته يسوقهم الابتلاء بعالم المادة والطبيعة والتوغل في الأحكام والقوانين الطبيعية ثم السنن والنواميس الاجتماعية والإنس بالكثرة والبينونة إلى قياس العالم الربوبي بما ألفوا من عالم المادة فالله سبحانه عندهم مع خلقه كجبار من جبابرة البشر مع عبيده ورعيته .

فهناك فرد من الإنسان نسميه مثلاً ملكاً أو جباراً دونه وزراء وأُمراء والجنديون والجلاوزة يُجرون ما يأمر به أو ينهي عنه وله عطايا ومواهب لمن شاء وإرادة وكراهة وأخذ وردٌ وقبض وإطلاق ورحمة وسخط وقضاء ونسخ إلى غير ذلك .

وكلٌ من الملك وخدمه وأياديه العمالة ورعاياه وما يدور بأيديهم من النعم وأمتعة الحياة أمر موجود محدود مستقل الوجود منفصلة عن غيره إنما يرتبط بعضهم ببعض بأحكام وقوانين وسنن اصطلاحية لا موطن لها سوى ذهن الذاهن واعتقاد المعتقد .

وقد طبّقوا العالم الربوبي أعني ما يخبر به النبوّة من مقام الرب تعالى وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله على هذا النظام فهو تعالى يريد ويكره ويعطي ويمنع ويدبّر نظام الخلقة كما يفعل ذلك الواحد منا المسمى ملكاً ، وهو محدود الوجود منعزل الكون وكلٌ من ملائكته وسائر خليقته مستقل الوجود يملك ما عنده من الوجود والنعم الموهوبة دون الله سبحانه ، وقد كان تعالى في أزل الزمان وحده لا شيء معه من خلقه ثم أبدع في جانب الأبد الخلق فكانوا معه .

فقد أثبتوا ـ كما ترى ـ موجوداً محدوداً منطبق الوجود على الزمان غير أن وجوده الزماني دائمي ، وله قدرة على كل شيء ، وعلم بكل شيء ، وإرادة لا تنكسر وقضاء لا تردّ ، يستقل بما عنده من الصفات والأعمال كما يستقل الواحد منا فيملك ما عنده من الحياة والعلم والقدرة وغير ذلك فحياته حياة له وليست لله ، وعلمه علمه لا علم الله ، وقدرته قدرته لا قدرة الله وهكذا ، وإنما يُقال لوجودنا أو حياتنا أو علمنا أو قدرتنا إنها لله كما يُقال لما عند الرّعية من النعمة إنها للملك بمعنى أنها كانت عنده فأخرجها من عنده ووضعها عندنا نتصرف فيها فجميع ذلك ـ كما ترى ـ يقوم على أساس المحدودية والانعزال .

لكن البراهين اليقينية تقضي بفساد ذلك كله فإنها تحكم بسريان الفقر والحاجة إلى الموجودات الممكنة في ذواتها وآثار ذواتها وإذا كانت الحاجة إليه تعالى في مقام الذات استحال الاستقلال عنه والانعزال منه على الإطلاق إذ لو فرض استقلال لشيء منه تعالى في وجوده أو شيء من آثار وجوده ـ بأي وجه فرض في حدوث أو بقاء ـ استغنى عنه من تلك الجهة وهو محال .

فكلٍ ممكن غير مستقل في شيء من ذاته وآثار ذاته ، والله سبحانه هو الذي يستقلّ في ذاته وهو الغني الذي لا يفتقر في شيء ولا يفقد شيئاً من الوجود وكمال الوجود كالحياة والقدرة والعلم فلا حدَّ له يتحدد به . وقد تقدم بعض التوضيح لهذه المسألة في ذيل تفسير قوله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾[1] .

وعلى ما تقدم كان ما للممكن من الوجود أو الحياة أو القدرة أو العلم متعلق الوجود به تعالى غير مستقل منه بوجه ، ولا فرق في ذلك بين القليل والكثير ما كانت خصيصة عدم الاستقلال محفوظة فيه فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شيء أو قدرة على كل شيء أو حياة دائمة ما دام غير مستقل الوجود عن الله سبحانه ولا منعزل الكون منه كما لا مانع من تحقق الممكن مع وجود موقت ذي أمد أو علم أو قدرة متعلّقين ببعض الأشياء دون بعض . نعم فرض الاستقلال يبطل الحاجة الإمكانية ولا فرق فيه بين الكثير والقليل كما عرفت ، هذا من جهة العقل .

---

(١) المائدة : ٧٣ .

وأما من جهة النقل فالكتاب الإلهي وإن كان ناطقاً باختصاص بعض الصفات والأفعال به تعالى كالعلم بالمغيبات والإحياء والإماتة والخلق كما في قوله : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[1] ، وقوله : ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾[2] ، وقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[3] ، وقوله : ﴿الله خالق كل شيء﴾[4] ، إلى غير ذلك من الآيات لكنها جميعاً مفسرة بآيات أخر كقوله : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾[5] ، وقوله : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾[6] ، وقوله عن عيسى عليه السلام : ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾[7] ، وقوله : ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فتكون طيراً بإذني﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات .

وانضمام الآيات إلى الآيات لا يدع شكّاً في أنّ المراد بالآيات النافية اختصاص هذه الأمور به تعالى بنحو الأصالة والاستقلال والمراد بالآيات المثبتة إمكان تحقّقها في غيره تعالى بنحو التبعيّة وعدم الاستقلال .

فمن أثبت شيئاً من العلم المكنون أو القدرة الغيبيّة أعني العلم من غير طريق الفكر والقدرة من غير مجراها العاديّ الطبيعي لغيره تعالى من أنبيائه وأوليائه كما وقع كثيراً في الأخبار والآثار ونفى معه الأصالة والاستقلال بأن يكون العلم والقدرة مثلاً له تعالى وإنما ظهر ما ظهر منه بالتوسيط ووقع ما وقع منه بإفاضته وجوده فلا حجر عليه .

ومن أثبت شيئاً من ذلك على نحو الأصالة والاستقلال طبق ما يثبته الفهم العاميّ وإن أسنده إلى الله سبحانه وفيض رحمته لم يخل من غلوّ وكان مشمولاً لمثل قوله : ﴿لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾[9] .

قوله تعالى : **﴿ولا أقول للّذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إنّي إذاً لمن الظالمين﴾** قال في المفردات : زريت عليه عبته وأزريت به قصدت به وكذلك ازدريت به وأصله افتعلت قال : تزدري أعينكم أي

---

(١) الأنعام : ٥٩ .
(٢) النجم : ٤٤ .
(٣) الزمر : ٤٢ .
(٤) الزمر : ٦٢ .
(٥) الجن : ٢٧ .
(٦) السجدة : ١١ .
(٧) آل عمران : ٤٩ .
(٨) المائدة : ١١٠ .
(٩) النساء : ١٧١ .

تستقلّهم تقديره تزدريهم أعينكم أي تستقلّهم وتستهين بهم . انتهى .

وهذا الفصل من كلامه ﷺ إشارة إلى ما كان يعتقده الملأ الذين كفروا من قومه وبنوا عليه سنّة الأشرافية وطريقة السيادة ، وهو أنّ أفراد الإنسان تنقسم إلى قسمين الأقوياء والضعفاء ، أمّا الأقوياء فهم أولو الطول وأرباب القدرة المعتضدون بالمال والعدّة ، وأمّا الضعفاء فهم الباقون . والأقوياء هم السادة في المجتمع الإنساني لهم النعمة والكرامة ، ولأجلهم انعقاد المجتمع ، وغيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحي منافعهم كالرعيّة بالنسبة إلى كرسيّ الحكومة المستبدّة ، والعبيد بالنسبة إلى الموالي ، والخدم والعملة بالنسبة إلى المخدومين والنساء بالنسبة إلى الرجال ، وبالأخرة كل ضعيف بالنسبة إلى القوي المستعلي عليه .

وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع إنسان منحطّ أو حيوان في صورة إنسان إنما يرد داخل المجتمع ويشاركهم في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامة مطرود عن حظيرة الشرافة آئس من الرحمة والعناية .

فهذا هو الذي كانوا يرونه وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم ، وقد ردّ نوح ﷺ ذلك إليهم بقوله : ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾ .

ثمّ بيّن خطأهم في معتقدهم بقوله : ﴿الله أعلم بما في نفوسهم﴾ أي إن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقرهم وتستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم وهوانهم ، وليس هو الملاك في إحراز الخير ونيل الكرامة بل الملاك في ذلك وخاصّة الكرامات والمثوبات الإلهية أمر النفس وتحلّيها بحليّ الفضيلة والمنقبة المعنوية ، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب إلا الله سبحانه فليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير والسعادة .

ثم بيّن بقوله : ﴿إنّي إذاً لمن الظالمين﴾ السبب في تحاشيه عن هذا القول ومعناه أنه قول بغير علم ، وتحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافاً من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه الإنسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين .

وهذا المعنى هو الذي يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطاباً لهؤلاء الطاغين إذ يقول : ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾[٢] .

وفي الكلام أعني قول نوح عليه السلام : ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ الخ ، تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرّمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيوية الاجتماعية كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامة الدينية ويقولون : إنهم لا يسعدون بدين وإنما يسعد به أشراف المجتمع وأقوياؤهم ، وفيه أيضاً تعريض بأنهم ظالمون .

وإنما عقّب نوح عليه السلام قوله : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ وهو ينفي فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه ، بقوله : ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾ الخ ، مع أنه راجع إلى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به في قولهم : ﴿ولا نرى لكم علينا من فضل﴾ .

وتوضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتّباعنا لك ولمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا ولا نرى لكم علينا من فضل أمّا أنت فليس معك ما يختصّ به الرسول من قدرة ملكوتية أو علم بالغيب أو أن تكون ملكاً منزّهاً من ألواث المادّة والطبيعة ، وأما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآئسون من كرامة الإنسانية المحرومون من الرحمة والعناية .

فأجاب عنهم نوح بما معناه : أمّا أنا فلا أدّعي شيئاً مما تتوقّعون من رسالتي فليست للرسول إلا الرسالة وأما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيراً فيؤتيهم خيراً وفضلاً فهو أعلم بأنفسهم ، وملاك الكرامة الدينيّة والرحمة الإلهيّة زكاء النفس وسلامة القلب دون الظاهر الذي تزدريه أعينكم فلست أقول : لن يؤتيهم الله خيراً ، فإنه ظلم يدخلني في زمرة الظالمين .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن

(١) الأعراف : ٤٩ .

كنت من الصادقين﴾ كلام ألقوه إلى نوح عليه السلام بعدما عجزوا عن دحض حجته وإبطال ما دعا إليه من الحق ، وهو مسوق سوق التعجيز والمراد بقولهم : ﴿ما تعدنا﴾ ما أنذرهم به في أوّل دعوته من عذاب يوم أليم .

وقد أورد الله سبحانه قولهم هذا فصلاً من غير تفريع لأنهم إنما قالوه بعد ما لبث فيهم أمداً بعيداً يدعوهم إلى التوحيد ويخاصمهم ويحاجُّهم بفنون الخصام والحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم وأنار الحقّ لهم كما يدلُّ عليه قوله تعالى فيما يحكي عنه عليه السلام في دعائه : ﴿قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ إلى أن قال ﴿ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً ثمّ إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾[1] وفي سورة العنكبوت : ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾[2] . فهذا الذي أورده الله من حجاجه قومه وجوابهم في شكل محاورة واحدة إنما وقع في مآت من السنين ، وهو كثير النظير في القرآن الكريم ولا بدع فيه فإن الذي يقتصّ ذلك هو الله سبحانه المحيط بالدهر وبكلّ ما فيه والذي يسمعها بالوحي هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أوتي من سعة النظر ما يجتمع عنده أشتات الأمم وأطراف الزمان .

والمعنى ـ والله أعلم ـ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا ومللنا وما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب ، وهم لا يعترفون بالعجز عن خصامه وجداله بل يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج ويطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعي الآئس من السمع والطاعة وهو الشر الذي يهدّدهم به ويذكره وراء نصحه .

قوله تعالى : ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ لمّا كان قولهم : ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ الخ ، طلباً منه أن يأتيهم بالعذاب وليس ذلك إليه فإنما هو رسول ، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضاً ـ في سياق قصر القلب ـ أن الإتيان بالعذاب ليس إليّ بل إنما هو إلى الله فهو الذي يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذي وعدتكموه بأمره فهو ربكم وإليه مرجع أمركم كلّه ، ولا يرجع إليّ من أمر التدبير شيء حتى إنّ وعدي إياكم بالعذاب واقتراحكم عليّ بطلبه لا يؤثّر في ساحة كبريائه شيئاً فإن يشأ يأتكم به وإن لم يشأ فلا .

ومن هنا يظهر أن قوله عليه السلام : ﴿إن شاء﴾ من ألطف القيود في هذا المقام

---

(١) نوح : ٩ . (٢) العنكبوت : ١٤ .

أُفيد به حق التنزيه وهو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شيء ولا يقهره قاهر يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتي في آخر السورة من الاستثناء في قوله : ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾[١] .

وقوله : ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ تنزيه آخر لله سبحانه وهو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزي الذي ألقوه إليه ﷺ فإن ظاهره أنهم لا يعبأون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ الخ ، قال في المفردات : النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ـ قال ـ وهو من قولهم : نصحت له الود أي أخلصته وناصح العسل خالصه أو من قولهم : نصحت الجلد خطته والناصح الخياط والنصاح الخيط .

وقال أيضاً : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً ، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا النحو الثاني يقال له غيّ قال تعالى : ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وقال : وإخوانهم يمدونهم في الغيّ . انتهى .

وعلى هذا فالفرق بين الإغواء والإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد في ذكر الضال ، والإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلاً .

والإرادة والمشيئة كالمترادفتين ، وهي من الله سبحانه تسبيب الأسباب المؤدية لوجود شيء بالضرورة فكون الشيء مراداً له تعالى أنه تمم أسباب وجوده وأكملها فهو كائن لا محالة ، وأما أصل السببية الجارية فهي مرادة بنفسها ولذا قيل : خلق الله الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها .

وبالجملة قوله : ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الخ ، كأحد شقي الترديد والشق الآخر قوله : ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ كأنه ﷺ يقول : أمركم إلى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب ولا يدفع عذابه ولا يقهر مشيئته شيء فلا أنتم معجزوه ،

(١) هود : ١٠٨ .

ولا نصحي ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمة العذاب ، وقيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم .

والإغواء كالإضلال وإن لم يجز نسبته إليه تعالى إذا كان إغواء ابتدائياً لكنه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان ويستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق ويخليه ونفسه فيغوي ويضل عن سبيل الحق ، قال تعالى : ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[١] .

وفي الكلام إشارة إلى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهي كما يلوح إليه قوله تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[٢] ، وقال : ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول﴾[٣] .

وقوله : ﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾ تعليل لقوله : ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الخ ، أو لقوله : ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ إلى قوله : ﴿يريد أن يغويكم﴾ جميعاً ومحصله أن أمر تدبير العباد إلى الرب الذي إليه ترجع الأمور ، والله سبحانه هو ربكم وإليه ترجعون فليس لي أن آتيكم بعذاب موعود ، وليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب به لاستئصالكم وليس لنصحي أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم .

وقد ذكروا في قوله : ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ وجوهاً من التأويل :

منها : أن المعنى يعاقبكم على كفركم ، وقد سمّى الله تعالى العذاب غياً في قوله : ﴿فسوف يلقون غياً﴾[٤] .

ومنها : أن المراد إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إياهم ومن عادة العرب أن تسمي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه ، ومن هذا الباب قوله : ﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي يعاقبهم على استهزائهم وقوله : ﴿ومكروا ومكر الله﴾[٥] أي عذبهم على مكرهم إلى غير ذلك .

---

(١) البقرة : ٢٦ .
(٢) الإسراء : ١٦ .
(٣) فصلت : ٢٥ .
(٤) مريم : ٥٩ .
(٥) آل عمران : ٥٤ .

ومنها : أن الإغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم : غوي الفصيل إذا فسد من كثرة شرب اللبن .

ومنها : أن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين ، وأن ما هم عليه بإرادة الله ، ولولا ذلك لغيره وأجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجب لقولهم والإنكار لذلك إن نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون .

وأنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الكلام في غنى من هذه التأويلات .

قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ أصل الجرم ـ على ما ذكره الراغب في مفرداته ـ قطع الثمرة من الشجرة وأجرم أي صار ذا جرم ، واستعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم وفتحها بمعنى الاكتساب المكروه وهو المعصية .

والآية ، واقعة موقع الاعتراض ، والنكتة فيه أن دعوة نوح واحتجاجاته على وثنية قومه وخاصة ما أورده الله تعالى في هذه السورة من احتجاجه أشبه شيء بدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واحتجاجه على وثنية أمّته .

وإن شئت زيادة تصديق في ذلك فارجع إلى سورة الأنعام ـ وهي في الحقيقة سورة الاحتجاج ـ وقابل ما حكاه الله تعالى عن نوح في هذه السورة ما أمر الله به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تلك السورة بقوله : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ إلى أن قال ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ﴾ إلى أن قال ﴿قل لا أتّبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين قل إني على بيّنة من ربي وكذّبتم به﴾ .

ولك أن تطبّق سائر ما ذكر من حججه عليه السلام في سورة نوح والأعراف على ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام وفي هذه السورة فتشاهد صدق ما أدّعيناه .

ولهذه المشابهة والمناسبة ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح عليه السلام في إنذاره قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورموه بالافتراء على الله ، وهو لا ينذرهم ولا يلقي إليهم من الحجج إلا كما أنذر به نوح عليه السلام وألقاه من الحجج إلى قومه ، وهذا كما ينذر رسول الملك قومه والمتمردين المستنكفين عن الطاعة ويلقي إليهم النصح ويتم عليهم الحجة فيرمونه بأنه مفتر على الملك

ولا طاعة ولا وظيفة فيرجع إليهم بالنصح ثانياً ، ويذكر لهم قصة رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هو لهم فلم يتبصّروا به فهلكوا فحيثما يذكر لهم حججه ومواعظه يبعثه الوجد والأسف إلى أن يتذكر رميهم إيّاه بالافتراء فيأسف لذلك قائلاً : إنكم ترمونني بالافتراء ولم أذكر لكم إلا ما بثّه هذا الرسول في قومه من كلمة الحكمة والنصيحة لا جرم إن افتريته فعليّ إجرامي ولا تقبلوا قولي غير أني بريء من عملكم .

وقد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباراة ثانياً في آخر السورة بعد إيراد قصص عدة من الرسل حيث قال : ﴿وكلّاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ إلى أن قال : ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون وانتظروا إنّا منتظرون﴾[1] .

وذكر بعض المفسرين أن الآية ، من تمام القصة والخطاب فيها لنوح ، والمعنى أم يقول قوم نوح افتراه نوح قل يا نوح إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ، وعلى هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبة إلى الخطاب وهذا بعيد عن سياق الكلام غايته .

وفي قوله : ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ إثبات إجرام مستمر لهم وقد أُرسل إرسال المسلّمات كما في قوله : ﴿فعليّ إجرامي﴾ من إثبات الجرم وذلك أن الذي ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذباً من حيث إن نوحاً عليه السلام لم يحتج بهذه الحجج وهي حقّة ، لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعة لا تقبل الكذب وهي تثبت لهؤلاء الكفار إجراماً مستمراً في رفض ما يهديهم إليه من الإيمان والعمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً وليس بمفتر .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قال الله في نوح عليه السلام ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان

---

(١) هود : ١٢٢ .

الله يريد أن يغويكم﴾ قال : الأمر إلى الله يهدي ويضل .

أقول : قد مرّ بيانه .

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه﴾ الآية ، الشيباني في نهج البيان عن مقاتل قال : إن كفار مكة قالوا : إن محمداً افترى القرآن . قال : وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

* * *

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ

فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

(بيان)

تتمة قصة نوح عليه السلام وهي تشتمل على فصول كإخباره عليه السلام بنزول العذاب على قومه ، وأمره بصنع الفلك ، وكيفية نزول العذاب وهو الطوفان ، وقصة ابنه الغريق ، وقصة نجاته ونجاة من معه لكنها جميعاً ترجع من وجه إلى فصل واحد وهو فصل القضاء بينه عليه السلام وبين قومه .

قوله تعالى : **﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾** الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانة .

وقوله : ﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ إيئاس وإقناط له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك ، ولذلك فرّع عليه قوله : ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ لأن الداعي إلى أمر إنما يبتئس ويغتمّ من مخالفة المدعوين وتمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته ، وأما إذا يئس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه في دعوتهم إلى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال إليه ولو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحجة وإبراز المعذرة .

وعلى هذا ففي قوله : ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ تسلية من الله لنوح عليه السلام وتطييب لنفسه الشريفة من جهة ما في الكلام من الإشارة إلى حلول حين فصل القضاء بينه وبين قومه ، وصيانة لنفسه من الوجد والغم لما كان يشاهد من فعلهم به وبالمؤمنين به من قومهم من إيذائهم إياهم في دهر طويل (مما يقرب من ألف سنة) لبث فيه بينهم .

ويظهر من كلام بعضهم أنه استفاد من قوله : ﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ أن من كفر منهم فليس يؤمن بعد هذا الحين أبداً كما أن الذين آمنوا به ثابتون على إيمانهم دائمون عليه . وفيه أن العناية في الكلام إنما تعلقت ببيان عدم إيمان الكفار بعد ذلك فحسب وأما إيمان المؤمنين فلم يعن به إلا بمجرد التحقق سابقاً ولا دلالة في الاستثناء على أزيد من ذلك ، وأما ثباتهم ودوامهم على الإيمان فلا دليل عليه .

ويستفاد من الآية **أولاً** : أن الكفار لا يعذبون ما كان الإيمان مرجواً منهم فإذا ثبتت فيهم ملكة الكفر ورجس الشرك حق عليهم كلمة العذاب .

وثانياً : أن ما حكاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله : ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[1] كان واقعاً بين قوله : ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ الخ ، وبين قوله : ﴿واصنع الفلك﴾ إلى قوله ﴿إنهم مغرقون﴾ .

وذلك لأنه ـ كما ذكر بعضهم ـ لا سبيل إلى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل من طريق العقل وإنما طريقة السمع بالوحي فهو عليه السلام علم أولاً من وحيه تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن أن أحداً منهم لا يؤمن بعد ذلك ولا في نسلهم من سيؤمن بالله ثم دعا عليهم بالعذاب وذكر في دعائه ما أوحي إليه فلما استجاب الله دعوته وأراد إهلاكهم أمره عليه السلام باتخاذ السفينة وأخبره أنهم مغرقون .

قوله تعالى : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ الفلك هي السفينة مفردها وجمعها واحد والأعين جمع قلّة للعين

---

(١) نوح : ٢٧ .

وإنما جمع للدلالة على كثرة المراقبة وشدتها فإن الجملة كناية عن المراقبة في الصنع .

وذكر الأعين قرينة على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعني قوله : ﴿واصنع الفلك﴾ الخ ، حتى يكون وحياً للحكم بل وحي في مقام العمل وهو تسديد وهداية عملية بتأييده بروح القدس الذي يشير إليه أن افعل كذا وافعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمة من آل إبراهيم عليهم السلام بقوله : ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1] ، وقد تقدمت الإشارة إليه في المباحث السابقة وسيجيء إن شاء الله في تفسير الآية .

وقوله : ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي لا تسألني في أمرهم شيئاً تدفع به الشر والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أن قوله : ﴿إنهم مغرقون﴾ في محل التعليل لقوله : ﴿ولا تخاطبني﴾ الخ ، أو لمجموع قوله : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ويظهر أيضاً أن قوله : ﴿ولا تخاطبني﴾ الخ ، كناية عن الشفاعة .

والمعنى : واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ولا تسألني صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضيٌّ عليهم الغرق قضاء حتم لا مردَّ له .

قوله تعالى : ﴿ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ قال في المجمع : السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل ، ومنه التسخير لتذليل يكون استضعافاً بالقهر ، والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة ، واستنقاصاً ولا تكون إلا في الحيوان وقد يكون اللعب بجماد ، انتهى .

وقال الراغب في المفردات : سخرت منه واستسخرته للهزء منه قال تعالى : ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون﴾ ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ وقيل : رجل سخرة ـ بالضم فالفتح ـ لمن سخر وسخرة ـ بالضم فالسكون ـ لمن يسخر منه ، والسخرية ـ بالضم ـ والسخرية ـ بالكسر ـ

---

(١) الأنبياء : ٧٣ .

لفعل الساخر ، انتهى .

وقوله : ﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية الحال الماضية يمثّل بها ما يجري على نوح عليه السلام من إيذاء قومه وقيام طائفة منهم بعد طائفة على إهانته والاستهزاء به في عمل السفينة وصبره عليه في جنب الدعوة الإلهية وإقامة الحجة عليهم من غير أن يفشل وينثني .

وقوله : ﴿كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ حال من فاعل يصنع والملأ ههنا الجماعة الذين يعبأ بهم ، وفي الكلام دلالة على أنهم كانوا يأتونه وهو يصنع الفلك جماعة بعد جماعة بالمرور عليه ساخرين ، وأنه عليه السلام كان يصنعها في مرأى منهم وممرّ عام .

وقوله : ﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ في موضع الجواب لسؤال مقدّر كأن قائلاً قال : فماذا قال نوح عليه السلام؟ فقيل : ﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم﴾ ولذا فصل الكلام من غير عطف .

ولم يقل عليه السلام : إن تسخروا مني فإني أسخر منكم ليدفع به عن نفسه وعن عصابة المؤمنين به وكأنه كان يستمد من أهله وأتباعه في ذلك وكانوا يشاركونه في عمل السفينة وكانت السخرية تتناولهم جميعاً فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحاً ومن معه في عمل السفينة بسخرية نوح ورميه عليه السلام بالخبل والجنون فيشمل هزؤهم نوحاً ومن معه وإن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلا نوحاً فقط .

على أن الطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضاً كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض وإن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة ، ولذا قيل : ﴿سخروا منه﴾ ولم يقل : سخروا منه ومن المؤمنين .

والسخرية وإن كانت قبيحة ومن الجهل إذا كانت ابتدائية لكنها جائزة إذا كانت مجازاة وبعنوان المقابلة وخاصة إذا كانت تترتب عليها فائدة عقلائية كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجة ، قال تعالى : ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾[1] ، ويدل على اعتبار المجازاة والمقابلة بالمثل في الآية قوله : ﴿كما تسخرون﴾ .

---

(١) التوبة : ٧٩ .

قوله تعالى : ﴿**فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم**﴾ السياق يقضي أن يكون قوله : ﴿فسوف تعلمون﴾ تفريعاً على الجملة الشرطية السابقة ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم﴾ وتكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح عليه السلام، ويكون قوله : ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ الخ ، متعلقاً بتعلمون على أنه معلوم العلم .

والمعنى : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم : سوف تعلمون من يأتيه العذاب ؟ نحن أو أنتم ؟ وهذه سخرية بقول حق .

وقوله : ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلهم ، والمراد بقوله : ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق ، هو عذاب النار في الآخرة ، والدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا والثاني هو عذاب الآخرة هو المقابلة وتكرر العذاب ـ منكّراً ـ في اللفظ وتوصيف الأول بالإخزاء والثاني بالإقامة .

وربما أخذ بعضهم قوله : ﴿فسوف تعلمون﴾ تاماً من غير ذكر متعلق العلم وقوله : ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ الخ ، ابتداء كلام من نوح عليه السلام وهو بعيد عن السياق .

قوله تعالى : ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور**﴾ إلى آخر الآية ، يقال : فار القدر يفور فوراً وفوراناً إذا غلا واشتدّ غليانه ، وفارت النار إذا اشتعلت وارتفع لهيبها ، والتنّور تنّور الخبز ، وهو مما اتفقت فيه اللغتان : العربية والفارسية أو الكلمة فارسية في الأصل .

وفوران التنّور نبع الماء وارتفاعه منه ، وقد ورد في الروايات : أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور ، وعلى هذا فاللام في التنّور للعهد يشار بها إلى تنور معهود في الخطاب ، ويحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم : ﴿حمي الوطيس﴾ إذا اشتدّ الحرب .

فقوله : ﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ : أي كان الأمر على ذلك حتى

إذا جاء أمرنا أي تحقّق الأمر الربوبيّ وتعلّق بهم وفار الماء من التنّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا وكذا .

وفي التنّور أقوال أُخر بعيدة من الفهم كقول من قال : إن المراد به طلوع الفجر وكان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان ، وقول بعضهم : إن المراد به أعلى الأرض وأشرفها أي انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة ونجود الأرض ، وقول آخرين : إن التنور وجه الأرض هذا .

وقوله : ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي أمرنا نوحاً عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين وهي الذكر والأُنثى .

وقوله : ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم المختصون به من زوج وولد وأزواج الأولاد وأولادهم إلا من سبق عليه قولنا وتقدّم عليه عهدنا أنّه هالك ، وكان هذا المستثنى زوجته الخائنة التي يذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾[1] . وابن نوح الذي يذكره الله تعالى في الآيات التالية وكان نوح عليه السلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بيّن الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله وأنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا .

وقوله : ﴿ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من قومك غير أهلك لأن من آمن به من أهله أُمر بحمله بقوله : ﴿وأهلك﴾ ولم يؤمن به من القوم إلا قليل .

في قوله : ﴿وما آمن معه﴾ دون أن يُقال : وما آمن به تلويح إلى أن المعنى : وما آمن بالله مع نوح إلا قليل ، وذلك أنسب بالمقام وهو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق ، والملاك فيه هو الإيمان بالله والخضوع لربوبيّته ، وكذا في قوله : ﴿إلا قليل﴾ دون أن يقال : إلا قليل منهم بلوغاً في استقلالهم أن من آمن كان قليلاً في نفسه لا بالقياس إلى القوم فقد كانوا في نهاية القلّة .

قوله تعالى : ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور

(١) التحريم : ١٠ .

رحيم﴾ قرىء مجراها بفتح الميم وهو مجرى السفينة وسيرها ، ومجراها بضم الميم وهو إجراء السفينة وسياقها ، ومرساها بضم الميم مصدر ميميّ مرادف الإرساء ، والإرساء الإثبات والإيقاف ، قال تعالى : ﴿والجبال أرساها﴾ (١) .

وقوله : ﴿وقال اركبوا فيها﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة : ﴿جاء أمرنا﴾ أي حتى إذا قال نوح الخ ، وخطابه لأهله وسائر المؤمنين أو لجميع من في السفينة .

وقوله : ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ تسمية منه عليه السلام يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها فإن في تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور على اسم الله تعالى وربطه به صيانة له من الهلاك والفساد واتقاء من الضلال والخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور والفناء والعيّ والعناء إليه فما تعلق به مصون لا محالة من تطرق عارض السوء .

فهو عليه السلام يعلق جري السفينة وإرساءها باسم الله وهذان هما السببان الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق ، وإنما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهية من ركبها ، وإنما تشمل العناية بشمول المغفرة الإلهية لخطايا ركابها والرحمة الإلهية لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض ، ولذلك علل عليه السلام تسميته بقوله : ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ أي إنما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنه ربي الغفور الرحيم ، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته ورحمته .

ونوح عليه السلام أول إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو عليه السلام أول فاتح فتح هذا الباب كما أنه أول من أقام الحجة على التوحيد ، وأول من جاء بكتاب وشريعة وأول من انتهض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنساني .

وما قدمناه من معنى قوله : ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ مبني على ما هو الظاهر من كون الجملة تسمية من نوح عليه السلام والمجرى والمرسى مصدرين ميميين وربما احتمل كونه تسمية ممن مع نوح بأمره أو كون مجراها ومرساها اسمين

(١) النازعات : ٣٢ .

للزمان أو المكان فيختلف المعنى .

قال في الكشاف في الآية : يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين : فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالاً من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها إما لأن المجرى والمرسى للوقت وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم : خفوق النجم ومقدم الحاج ، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء ، وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة[1] أي بسم الله اجراؤها وإرساؤها ، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ، ويجوز أن يقحم[2] الاسم كقوله : ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله اجراؤها وإرساؤها .

قال : وقرىء مجراها ومرساها[3] بفتح الميم من جرى ورسى إما مصدرين أو وقتين أو مكانين ، وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله .

قوله تعالى : ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ الضمير للسفينة ، والموج اسم جنس كتمر أو جمع موجة ـ على ما قيل ـ وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء وفي الآية إشعار بأن السفينة كانت تسير على الماء ولم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل .

قوله تعالى : ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ المعزل اسم مكان من العزل وقد عزل ابنه نفسه عن أبيه

---

(١) اقتضاب الكلام ارتجاله والمراد من كون الجملة مقتضبة كونها ابتدائية أي كونها كلاماً ابتدائياً من نوح مقطوعاً عما قبله .

(٢) التقحيم إدخال الكلمة بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف والمضاف إليه والمراد كون الاسم معترضاً بين «ثم» و «السلام» وكذا بين الباء ولفظ الجلالة في قوله : بسم الله .

(٣) قراءة مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب إلى ابن محيصن .

والمؤمنين في مكان لا يقرب منهم ، ولذلك قال : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ ولم يقل : وقال نوح لابنه .

والمعنى : ونادى نوح ابنه وكان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم وقال في ندائه : يا بنيّ ـ بالتصغير والإضافة دلالة على الإشفاق والرحمة ـ اركب معنا السفينة ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركتهم في الصحبة وعدم ركوب السفينة ، ولم يقل عليه‌السلام : ولا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه وأنه غير مؤمن إلا باللفظ ، ولذلك دعاه إلى الركوب .

قوله تعالى : **﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾** الخ ، قال الراغب : المأوى مصدر أوى يأوي أوياً ومأوى تقول : أوى إلى كذا : انضم إليه يأوي أوياً ومأوى وآواه غيره يؤويه إيواء ، انتهى .

والمعنى : قال ابن نوح مجيباً لأبيه رادّاً لأمره : سأنضم إلى جبل يعصمني ويقيني من الماء فلا أغرق ، قال نوح : لا عاصم اليوم ـ وهو يوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض إلا من التجأ منهم إلى الله ـ من الله لا جبل ولا غيره ، وحال بين نوح وابنه الموج فكان ابنه من المغرقين ولو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره وتبرأ منه .

وفي الكلام إشارة إلى أن أرضهم كانت أرضاً جبلية لا مؤنة زائدة في صعود الإنسان إلى بعض جبال كانت هناك .

قوله تعالى : **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾** البلع إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف ، والإقلاع الإمساك وترك الشيء من أصله ، والغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها وهو كالنشف يقال : غاضت الأرض الماء أي نقّصته .

والجوديّ مطلق الجبل والأرض الصلبة ، وقيل : هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي إلى أرمينية وهي المسماة «آرارات» .

وقوله : ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ نداء صادر من ساحة العظمة والكبرياء لم يصرّح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم ، والأمر تكويني تحمله كلمة ﴿كن﴾ الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير

فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجّر من عيونها ، وأن تكفّ السماء عن إمطارها .

وفيه دلالة على أن الأرض والسماء كانتا مشتركتين في إطغاء الماء بأمر الله كما يبيّنه قوله تعالى : ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾(١) .

وقوله : ﴿وغيض الماء﴾ أي نقص الماء ونشف عن ظاهر الأرض وانكشف البسيط ، وذلك إنما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران وتشكيل البحار والبحيرات ، وانتشاف ما على سائر البسيطة .

وقوله : ﴿وقضي الأمر﴾ أي أُنجز ما وعد لنوح ﷺ من عذاب القوم وأُنفذ الأمر الإلهي بغرقهم وتطهّر الأرض منهم أي كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الأمر كما يُقال على جعل الحكم وإصداره كذلك يُقال على إمضائه وإنفاذه وتحقيقه في الخارج ، غير أن القضاء الإلهي والحكم الربوبي الذي هو عين الوجود الخارجي جعله وإنفاذه واحد ، وإنما الاختلاف بحسب التعبير .

وقوله : ﴿واستوت على الجوديّ﴾ أي استقرت السفينة على الجبل أو على جبل الجودي المعهود ، وهو إخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح ومن معه من أمر الطوفان .

وقوله : ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي قال الله عزّ اسمه : بعداً للقوم الظالمين أي ليبعدوا بعداً فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته ، والكلام في ترك ذكر فاعل «قيل» ههنا كالكلام فيه في «قيل» السابق .

والأمر أيضاً في قوله : ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ كالأمرين السابقين : ﴿يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ تكويني فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدي إلى خزيهم في الدنيا وخسرانهم في الآخرة ، وإن كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعي لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهي بالإيمان والعمل ، وكونه جزاء لهم على استكبارهم واستعلائهم على الله عز وجل .

وللصفح عن ذكر الفواعل في قوله : ﴿وقيل يا أرض﴾ الخ ، وقوله :

---

(١) القمر : ١٢ .

﴿وقضي الأمر﴾ وقوله : ﴿وقيل بعداً﴾ الخ ، في الآية وجه آخر مشترك وهو أن هذه الأمور العظيمة الهائلة المدهشة لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذي لا شريك له في أمره فلا يذهب الوهم إلى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر .

ولمثل هذه النكتة حذف فاعل «غيض الماء» وهو الأرض ، وفاعل ﴿استوت على الجودي﴾ وهو السفينة ، ولم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح ، ولا الناجون بأنهم نوح عليه السلام ومن معه في السفينة فإن الآية بلغت في بلاغتها العجيبة من حيث سياق القصة مبلغاً ليس فيه إلا سماء تنزل أمطارها ، وأرض انفجرت بعيونها وانغمرت بالماء وسفينة تجري في أمواجه ، وأمر مقضي ، وقوم ظالمون هم قوم نوح وأمر إلهي يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض ، ولو استقر شيء واستوى فإنما هي السفينة تستقر على الأرض كما أنه لو قيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وقيل : بعداً للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عزّ اسمه والقوم الظالمون هم المقضي عليهم بالعذاب ، ولو قيل : قضي الأمر فإنما القاضي هو الله سبحانه ، والأمر هو ما وعده نوحاً ونهاه أن يراجعه في ذلك وهو أنهم مغرقون ، ولو قيل للسماء : أقلعي بعد ما قيل للأرض : ابلعي ماءك فإنما يراد إقلاعها وإمساكها ماءها .

ففي الآية الكريمة اجتماع عجيب من أسباب الإيجاز وتوافق لطيف فيما بينها كما أن الآية واقفة على موقف عجيب من بلاغة القرآن المعجزة يبهر العقول ويدهش الألباب وإن كانت الآيات القرآنية كلها معجزة في بلاغتها .

وقد اهتم بأمرها رجال البلاغة وعلماء البيان فغاصوا لجيّ بحرها وأخرجوا ما استطاعوا نيله من لآليها ، وما هو ـ وقد اعترفوا بذلك ـ إلا كغرفة من بحر أو حصاة من بر .

قوله تعالى : **﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾** دعاء نوح عليه السلام لابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وقد كان آخر عهده به يوم ركب السفينة فوجده في معزل فناداه وأمره بركوب السفينة فلم يأتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السلام وهو يرى أنه مؤمن بالله من أهله وقد وعده الله بإنجاء أهله .

ولما به من الوجد والحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ونادى نوح ربه﴾ ولم يقل : سأل أو قال أو دعا، ورفع الصوت بالاستغاثة من المضطر الذي اشتد به الضر وهاج به الوجد أمر طبعي . والدعاء أعني نداء نوح ﷺ ربه في ابنه وإن ذكر في القصة بعد ذكر إنجاز غرق القوم وظاهره كون النداء بعد تمام الأمر واستواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال أن يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما وعلى هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان إنما هو لمكان العناية ببيان جميع ما في القصة من الهيئة الهائلة في محل واحد لتكميل تمثيل الواقعة ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية .

وقد كان ﷺ رسولاً أحد الأنبياء أولي العزم عالماً بالله عارفاً بمقام ربه بصيراً بموقف نفسه في العبودية ، والظرف ظهرت فيه آية الربوبية والقهر الإلهي أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها ، ونودي من ساحة العظمة والكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح ﷺ يدعو لابنه والظرف هذا الظرف لم يجترىء ﷺ ـ على ما يقتضيه أدب النبوة ـ على أن يسأل ما يريده من نجاة ابنه بالتصريح ، بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر ، وابتدر بذكر ما وعده الله من نجاة أهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له : ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾ .

وكان أهله ـ غير امرأته ـ حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهراً ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح ﷺ مؤمناً لم يدعه البتّة إلى ركوب السفينة فهو ﷺ الداعي على الكافرين السائل هلاكهم بقوله : ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ فقد كان يرى ابنه هذا مؤمناً ولم يكن مخالفته لأمر أبيه إذ أمره بركوب السفينة كفراً أو مؤدّياً إلى الكفر وإنما هي معصية دون الكفر .

ولذلك كله قال ﷺ: ﴿ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ﴾ فذكر وعد ربّه وضمّ إليه أنّ ابنه من أهله ـ على ما في الكلام من دلالة ﴿ربّي﴾ على الاسترحام ، ودلالة الإضافة في ﴿إبني﴾ على الحجّة في قوله : ﴿من أهلي﴾ ودلالة التأكيد بأن ولام الجنس في قوله : ﴿وإنّ وعدك الحقّ﴾ على أداء حق الإيمان .

وكانت الجملتان : ﴿إن ابني من أهلي﴾ ﴿وإنّ وعدك الحقُّ﴾ تنتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه لكنه ﷺ لم يأخذ بما ينتجه

كلامه من الحكم أدباً في مقام العبوديّة فلا حكم إلا لله بل سلّم الحكم الحقّ والقضاء الفصل إلى الله سبحانه فقال : ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ .

فالمعنى : ربّ إنّ ابني من أهلي ، وإنّ وعدك حقّ كل الحقّ ، وإنّ ذلك يدلّ على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق ومع ذلك فالحكم الحقّ إليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ولم يذكر نجاة ابنه ولا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئاً وسيوافيك بيان ذلك .

قوله تعالى : **﴿قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾** الخ . بيّن سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله : ﴿إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك﴾ الخ ، وهو يستوجب به نجاة ابنه فقال تعالى : ﴿إنّه ليس من أهلك﴾ فارتفع بذلك أثر حجّته .

والمراد بكونه ليس من أهله ـ والله أعلم ـ أنّه ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم لأنّ المراد بالأهل في قوله : ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ الأهل الصالحون ، وهو ليس بصالح وإن كان ابنه ومن أهله بمعنى الإختصاص ، ولذلك علّل قوله : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ بقوله : ﴿إنه عمل غير صالح﴾ .

فإن قلت : لازم ذلك أن تكون امرأته الكافرة من أهله لأنها إنما خرجت من الحكم بالاستثناء وهي داخلة موضوعاً في قوله : ﴿وأهلك﴾ ويكون ابنه ليس من أهله وخارجاً موضوعاً لا بالاستثناء وهو بعيد .

قلت : المراد بالأهل في قوله : ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ هم الأهل بمعنى الاختصاص وبالمستثنى ـ من سبق عليه القول ـ غير الصالحين ومصداقه امرأته وابنه هذا ، وأما الأهل الواقع في قوله هذا : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ فهم الصالحون من المختصّين به عليه السلام طبقاً لما وقع في قوله : ﴿ربّ ان ابني من أهلي﴾ فإنه عليه السلام لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من أولي الاختصاص وإلا شمل امرأته وبطلت حجته فافهم ذلك .

فهذا هو الظاهر من معنى الآية ، ويؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مما سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وذكروا في تفسير الآية معان أُخر :

منها : إن المراد أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له

أحكام أهله . ونسب إلى جماعة من المفسّرين . وفيه أنه في نفسه معنى لا بأس به إلا أنه غير مستفاد من سياق الآية لأن الله سبحانه ينفي عنه الأهلية بالمعنى الذي كان يثبتها له به نوح عليه السلام ولم يكن نوح يريد بأهليته أنه مؤمن غير كافر بل إنما كان يريد أنه أهله بمعنى الاختصاص والصلاح وإن كان لازمه الإيمان . اللهم إلا أن يرجع إلى المعنى المتقدم .

ومنها : أنه لم يكن ابنه على الحقيقة وإنما ولد على فراشه فقال نوح عليه السلام : إنه ابني على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك ، ونبهه على خيانة امرأته . وينسب إلى الحسن ومجاهد .

وفيه : أنه على ما فيه من نسبة العار والشين إلى ساحة الأنبياء عليهم السلام ، والذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم وينزّه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل ، أنه ليس مما يدل عليه اللفظ بصراحة ولا ظهور فليس في القصة إلا قوله : ﴿إنه ليسَ من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ وليس بظاهر فيما تجرّؤا عليه وقوله في امرأة نوح : ﴿امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾[1] وليس إلا ظاهراً في أنهما كانتا كافرتين تواليان أعداء زوجيهما وتسران إليهم بأسرارهما وتستنجدانهم عليهما .

ومنها : أنه كان ابن امرأته عليه السلام وكان ربيبه لا ابنه من صلبه . وفيه أنه مما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنه لا يلائم قوله في تعليل أنه ليس من أهله : ﴿إنه عمل غير صالح﴾ ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يُقال : إنه ابن المرأة .

على أن من المستبعد جداً أن لا يكون نوح عليه السلام عالماً بأنه ربيبه وليس بابنه حتى يخاطب ربه بقوله : ﴿إن ابني من أهلي﴾ أو يكون عالماً بذلك ويتكلم بالمجاز ويحتج على ربه العليم الخبير بذلك فينبه أنه ليس ابنه وإنما هو ربيب .

وقوله : ﴿إنه عمل غير صالح﴾ ظاهر السياق أن الضمير لابن نوح عليه السلام فيكون هو العمل غير الصالح ، وعده عملاً غير صالح نوع من المبالغة نحو زيد عدل أي ذو عدل ، وقولها : فإنما هي إقبال وإدبار ، أي ذات إقبال وإدبار .

فالمعنى : إن ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك

---

(١) التحريم : ١٠ .

أن أنجيهم . ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ : ﴿إنه عمل غير صالح﴾ بالفعل الماضي أي عمل عملاً غير صالح .

وذكر بعضهم : إن الضمير راجع إلى سؤال نوح عليه السلام المفهوم من قوله : ﴿رب إن ابني من أهلي﴾ أي إن سؤالك نجاة ابنك عمل غير صالح لأنه سؤال لما ليس لك به علم ولا ينبغي لنبي أن يخاطب ربه بمثل ذلك .

وهو من أسخف التفسير فإنه معنى لا يلائم شيئاً من الجملتين المكتنفتين به لا قوله : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ ولا قوله : ﴿فلا تسألني ما ليس لك به علم﴾ وهو ظاهر ، ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ ويتصل بقول نوح عليه السلام .

على أنك عرفت أن قول نوح عليه السلام : ﴿رب إن ابني من أهلي﴾ الخ ، لا يتضمن سؤالاً وإنما كان يسوقه ـ لو جري في كلامه ـ إلى السؤال لكن العناية الإلهية حالت بينه وبين السؤال .

وقوله : ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ كأن قول نوح عليه السلام : ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق﴾ في مظنة أن يسوقه إلى سؤال نجاة ابنه وهو لا يعلم أنه ليس من أهله فأخذته العناية الإلهية ، وحال التسديد الغيبي بينه وبين السؤال فأدركه النهي بقوله : ﴿لا تسألن ما ليس لك به علم﴾ بتفريع النهي على ما تقدم أي فإذ ليس من أهلك لكونه عملاً غير صالح وأنت لا سبيل لك إلى العلم بذلك فإياك أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم .

والنهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه عليه السلام لا مستقلاً ولا في ضمن قوله : ﴿رب إن ابني من أهلي﴾ لأن النهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب قبلاً ، وقد قال تعالى : ﴿لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾[1] فنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حب الدنيا والافتتان بزينتها وحاشاه عن ذلك .

وإنما يفتقر النهي في صحة تعلقه بفعل ما أن يكون فعلاً اختيارياً يمكن أن يبتلي به المكلف ، وما نهي عنه الأنبياء عليهم السلام على هذه الصفة وإن كانوا ذوي عصمة إلهية وتسديد غيبي ، فإن من العصمة والتسديد أن يراقبهم الله

---

(١) الحجر : ٨٨ .

سبحانه في أعمالهم وكلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب ويدعوهم إلى السداد والتزام طريق العبودية ، قال تعالى : ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾[1] فأنبأ تعالى أنه هو الذي ثبته ولم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلاً عن نفس الركون .

وقال تعالى : ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾[2] .

ومن الدليل على أن النهي ـ ﴿فلا تسألن﴾ الخ ـ نهي عما لم يقع بعدُ قول نوح عليه السلام بعد استماع هذا النهي : ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ ولو كان سأل شيئاً لقيل : أعوذ بك من سؤالي ذلك ليفيد المصدر المضاف إلى المعمول التحقق والارتكاب .

ومن الدليل أيضاً على أنه عليه السلام لم يسأل ذلك تعقيب قوله : ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ بقوله : ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فإن معناه : إني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين ، ولو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنه سأل ما ليس له به علم .

فإن قلت : إنه تعالى قال : ﴿أن تكون من الجاهلين﴾ أي ممن استقرت فيه صفة الجهل ، واستقرارها إنما يكون بالتكرار لا بالمرة والدفعة ، وبذلك يعلم أنه سأل ما سأل وتحقق منه الجهل مرة وإنما وعظه الله تعالى بما وعظ لئلا يعود إلى مثله فيتكرر منه ذلك فيدخل في زمرة الجاهلين .

قلت : زنة الفاعل كجاهل لا تدل على الاستقرار والتكرُّر وإنما تفيده الصفة المشبهة كجهول على ما ذكروه ، ويشهد لذلك قوله تعالى في قصة البقرة : ﴿قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾[3] ، وقوله في قصة يوسف : ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾[4] وقوله خطاباً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا

---

(١) الإسراء : ٧٥ .
(٢) النساء : ١١٣ .
(٣) البقرة : ٦٧ .
(٤) يوسف : ٣٣ .

تكونن من الجاهلين﴾[1] .

وأيضاً لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع مرة لكان الأنسب أن يصرح بالنهي عن العود إلى مثله دون النهي عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى : ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ إلى أن قال ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾[2] .

قوله تعالى : **﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾** لما تبين لنوح عليه السلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربه إلى السؤال كان سائلاً ما ليس له به علم وكان من الجاهلين وأن عناية الله حالت بينه وبين الهلكة ، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته ورحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال : ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ .

والكلام في الاستعاذة مما لم يقع بعد من الأمور المهلكة والمعاصي الموبقة كالنهي عما لم يقع من الذنوب والآثام وقد تقدم الكلام فيه وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة من الشيطان وهو معصوم لا سبيل للشيطان إليه ، قال تعالى : ﴿قل أعوذ برب الناس ﴾ إلى أن قال ﴿من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس﴾[3] وقال : ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾[4] والوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾[5] .

وقوله : ﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ كلام صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب .

أما صورة توبته فإن في ذلك رجوعاً إلى ربه تعالى بالاستعاذة ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته أي ستره على الإنسان ما فيه زلّته وهلاكته وشمول عنايته لحاله وقد تقدَّم في أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعمّ من مخالفة

---

(١) الأنعام : ٣٥ .
(٢) النور : ١٧ .
(٣) الناس : ٥ .
(٤) المؤمنون : ٩٨ .
(٥) الجن : ٢٨ .

الأمر التشريعي بل كل وبال وأثر سيء يسوء الإنسان بوجه ، وأن المغفرة أعمّ من الستر على المعصية المعروفة عند المتشرعة بل كل ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله .

وأما حقيقة الشكر فإن العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين وعصمته ببيان وجه الصواب كانت ستراً إلهياً على زلّة في طريقه ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله ﷺ : ﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ أي إن لم تعذني من الزّلات خرست ، ثناء وشكر لصنعه الجميل .

قوله تعالى : **﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك﴾** الخ ، السلام هو السلامة أو التحية غير أن ذكر مسّ العذاب في آخر الآية يؤيد كون المراد به في صدرها السلامة من العذاب وكذا تبديل البركة في آخر الآية إلى التمتع يدل على أن المراد بالبركات ليس مطلق النعم وأمتعة الحياة بل النعم من حيث تسوق الإنسان إلى الخير والسعادة والعاقبة المحمودة .

فقوله : ﴿قيل﴾ ولم يذكر القائل وهو الله سبحانه للتعظيم ﴿يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك﴾ معناه ـ والله أعلم ـ يا نوح انزل مع سلامة من العذاب ـ الطوفان ـ ونعم ذوات بركات وخيرات نازلة منا عليك ، أو انزل بتحية وبركات نازلة منا عليك .

وقوله : ﴿وعلى أُمم ممن معك﴾ معطوف على قوله : ﴿عليك﴾ وتنكير أُمم يدل على تبعيضهم لأن من الأمم من يذكره تعالى بعد في قوله : ﴿وأمم سنمتعهم﴾ .

والخطاب أعني قوله تعالى : ﴿يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك﴾ إلى آخر الآية بالنظر إلى ظرف صدوره وليس وقتئذ متنفّس على وجه الأرض من إنسان أو حيوان وقد أغرقوا جميعاً ولم يبق منهم إلا جماعة قليلة في السفينة وقد رست واستوت على الجوديّ ، وقد قضي أن ينزلوا إلى الأرض فيعمروها ويعيشوا فيها إلى حين .

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها إلى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أُهبط آدم ﷺ من الجنة إلى الأرض وقد حكاه الله

تعالى في موضع بقوله : ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾ إلى أن قال ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1] وفي موضع آخر بقوله : ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[2] .

وهذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجّه إلى نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ـ وإليهم ينتهي نسل البشر اليوم ـ متعلق بهم وبمن يلحق بهم من ذراريهم إلى يوم القيامة ، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها .

وقد قسّم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبّر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام والبركات وهم نوح عليه السلام وأمم ممن معه ، ولطائفة أخرى بالتمتيع ، وعقّب التمتيع بمس العذاب لهم كما أن كلمتي السلام والبركات لا تخلوان من بشرى الخير والسعادة بالنسبة إلى من تعلقتا به .

فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط في هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام وبركات وتمتيع موجّه إلى عامة البشر من حين هبوط أصحاب السفينة إلى يوم القيامة ، ووزانه وزان خطاب الهبوط الموجّه إلى آدم وزوجته عليهما السلام ، وفي هذا الخطاب إذن في الحياة الأرضية ووعد لمن أطاع الله سبحانه ووعيد لمن عصاه كما أن في ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل .

وظهر بذلك أن المراد بقوله : ﴿وعلى أُمم ممن معك﴾ الأمم الصالحون من أصحاب السفينة ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين ، والظاهر على هذا أن يكون ﴿من﴾ في قوله ﴿ممن معك﴾ ابتدائية لا بيانية ، والمعنى وعلى أُمم يبتدي تكوّنهم ممن معك ، وهم أصحاب السفينة والصالحون من نسلهم .

وظاهر هذا المعنى أن يكون أصحاب السفينة كلهم سعداء ناجين ، والاعتبار يساعد ذلك فإنهم قد محّصوا بالبلاء تمحيصاً وآثروا ما عند الله من زلفى وقد صدّق الله سبحانه إيمانهم مرتين في أثناء القصة حيث قال عز من قائل :

---

(١) البقرة : ٣٩ .
(٢) الأعراف : ٢٥ .

﴿إلا من قد آمن﴾[1] ، وقال : ﴿ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾[2] .

وقوله : ﴿وأمم سنمتّعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ كأنه مبتدأ لخبر محذوف والتقدير : وممن معك أمم أو وهناك أمم سنمتعهم الخ ، وقد أخرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل : ومتاع لأمم آخرين سيعذبون طرداً لهم من موقف الكرامة ، فأخبر أن هناك أمماً آخرين سنمتعهم ثم نعذبهم وهم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة وزلفى .

وفي الآية جهات من تعظيم القائل لا تخفى كالبناء للمفعول في ﴿قيل﴾ وتخصيص نوح عليه السلام بخطاب الهبوط والتكلم مع الغير في قوله : ﴿منا﴾ في موضعين و ﴿سنمتعهم﴾ وغير ذلك .

وظهر أيضاً : أن ما فسروا به قوله : ﴿على أُمم ممن معك﴾ أن معناه : على أُمم من ذرية من معك ليس على ما ينبغي مع ما فيه من خروج من معه من الخطاب وكذا قول من قال : يعني بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه لأن الله جعل فيهم البركة . وفساده أظهر .

قوله تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾ أي هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحيها إليك .

وقوله : ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي كانت وهي على محوضة الصدق والصحة مجهولة لك ولقومك من قبل هذا ، والذي عند أهل الكتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما في التوراة الحاضرة من قصته عليه السلام .

وقوله : ﴿فاصبر إنّ العاقبة للمتّقين﴾ أمر منتزع عن تفصيل القصّة أي إذا علمت ما آل إليه أمر نوح عليه السلام وقومه من هلاك قومه ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين وقد ورّثهم الله الأرض على ما صبروا ، ونصر نوحاً على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإنّ العاقبة للمتقين ، وهم الصابرون في جنب الله سبحانه .

---

(١) هود : ٣٦ .

(٢) هود : ٤٠ .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن نوحاً عليه السلام كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى إذا أيس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا فقال : يا بني أنظر هذا الشيخ لا يغرنّك قال : يا أبت أمكنّي من العصا ثم أخذ العصا ثم قال : ضعني في الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه فشجّه موضحة في رأسه وسالت الدماء .

قال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن قال : يا نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون يعني لا تحزن عليهم واصنع الفلك . قال : يا ربِ وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجري على وجه الماء فأغرق أهل معصيتي وأطهّر أرضي منهم . قال : يا رب وأين الماء ؟ قال : إني على ما أشاء قدير .

وفي الكافي بإسناده عن المفضّل قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس فلما انتهينا إلى الكناسة قال : ههنا صلب عمي زيد رحمه الله ، ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين وهو آخر السرّاجين فنزل وقال : انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي كان خطّه آدم وأنا أكره أن أدخله راكباً . قلت : فمن غيّره عن خطته ؟ قال ، أمّا أول ذلك فالطوفان في زمن نوح ثم غيره أصحاب كسرى والنعمان ثم غيّره بعد زياد بن أبي سفيان فقلت : وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح ؟ فقال لي : نعم يا مفضل وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات مما يلي غربي الكوفة .

قال : وكان نوح رجلاً نجاراً فجعله الله عز وجل نبياً وانتجبه ، ونوح أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء . قال : ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فيهزءون به ويسخرون منه فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال : يا رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً ، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح أن

اصنع سفينة وأوسعها وعجّل عملها فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده ، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها .

قال المفضل : ثم انقطع حديث أبي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس فقام أبو عبد الله عليه السلام فصلّى الظهر والعصر ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره وأشار بيده إلى موضع دار الدارين وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم فقال : يا مفضل وههنا نصبت أصنام قوم نوح : يغوث ويعوق ونسر . ثم مضى حتى ركب دابته .

فقلت : جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته ؟ قال : في دورين . قلت: وكم الدوران ؟ قال : ثمانين[1] سنة . قلت : فإن العامة يقولون عملها في خمس مائة سنة ؟ فقال : كلا . كيف ؟ والله يقول : ﴿ووحينا﴾ قال : قلت : فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ فأين كان موضعه ؟ وكيف كان ؟ فقال : كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد . قلت له : فأين ذلك ؟ قال : موضع زاوية باب الفيل اليوم . ثم قلت له : وكان بدؤ خروج الماء من ذلك التنّور ؟ فقال : نعم إن الله عز وجل أحب أن يري قوم نوح آية ثم إن الله تبارك وتعالى أرسل عليهم المطر يفيض فيضاً والعيون كلهن فيضاً فغرقهم الله وأنجا نوحاً ومن معه في السفينة ـ الحديث .

أقول : والرواية على طولها غير متعلقة بالتفسير غير أنّا أوردناها لتكون كالأنموذجة من روايات كثيرة وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنّة ولتكون عوناً لفهم قصص الآيات من طريق الروايات .

وفي الرواية استفادة التعجيل في صنع السفينة من قوله تعالى : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ الآية ، وفي الرواية نسبة زياد إلى أبي سفيان ولعل الوارد في لفظ الإمام «زياد» فأضيف إليه «ابن أبي سفيان» في لفظ بعض الرواة .

وفيه بإسناده عن أبي رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن نوحاً عليه السلام لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه أن يفور التنّور ففار التنّور في بيت امرأة فقالت : إن التنّور قد فار فقام إليه فختمه فقام الماء وأدخل من أراد أن يدخل وأخرج من أراد أن يخرج ثم جاء إلى خاتمه

---

(١) ثمانون ظ .

فنزعه ، يقول الله عز وجل : ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر .

قال :وكان نجره في وسط مسجدكم.ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع .

أقول : وكون فوران التنور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدة من روايات الخاصة والعامة وسياق الآية : ﴿فلما جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل﴾ الآية ، لا يخلو من ظهور في كونه ميعاداً .

وفيه بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال : كانت شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ الله ميثاقه على نوح والنبيين أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً وامر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام ، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرائض مواريث فهذه شريعته . فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم سراً وعلانية فلما أبوا وعتوا قال : ﴿رب إني مغلوب فانتصر﴾ فأوحى الله عز وجل إليه : ﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ فذلك قول نوح : ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً﴾ فأوحى الله إليه : أن اصنع الفلك .

أقول : ورواه العياشيّ عن الجعفيّ مرسلاً وظاهر الرواية أن له عليه السلام دعاءين على قومه أحدهما وهو أولهما قوله : ﴿رب إني مغلوب فانتصر﴾ الواقع في سورة القمر ، وثانيهما بعدما أيأسه الله من إيمان قومه وهو قوله : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ الواقع في سورة نوح .

وفي معاني الأخبار بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قال : كانوا ثمانية .

أقول : ورواه العياشي أيضاً عن حمران عنه عليه السلام ، وللناس في عددهم أقوال أخر: ستة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها .

وفي العيون بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال : قال الرضا عليه السلام لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً فبنى حيث نزل قرية فسماها قرية الثمانين .

أقول : ولا تنافي بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح عليه السلام وقد عمّر ما يقرب من ألف سنة يومئذ .

وفيه بإسناده عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا عليه السلام قال : سمعته يقول : قال أبي : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله عز وجل قال لنوح : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ لأنه كان مخالفاً له ، وجعل من اتبعه من أهله .

قال : وسألني كيف يقرؤن هذه الآية في ابن نوح ؟ فقلت : يقرؤها الناس على وجهين : إنه عملٌ غير صالح ، وإنه عمل غير صالح . فقال : كذبوا هو ابنه ولكن الله نفاه عنه حين خالفه في دينه .

أقول : ولعله عليه السلام يشير بقوله : ﴿وجعل من اتبعه من أهله﴾ إلى قوله تعالى ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾[1] . فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه .

وكأن المراد من قراءة الآية تفسيرها والراوي يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسر الآية بأن المراد أن امرأة نوح حملت الإبن من غيره فألحقه بفراشه ولذلك قرأ بعضهم : ﴿ونادى نوح ابنها﴾ أو ﴿ونادى نوح ابنه﴾ بفتح الها مخفف ابنها ونسبوا القراءتين إلى علي وبعض الأئمة من ولده عليهم السلام .

قال في الكشاف : وقرأ علي رضي الله عنه ﴿ابنها﴾ والضمير لامرأته ، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير ﴿ابنه﴾ بفتح الها يريدان ﴿ابنها﴾ فاكتفيا بالفتحة على الألف وبه ينصر مذهب الحسن قال قتادة : سألته فقال : والله ما كان ابنه فقلت : إن الله حكى عنه ﴿إن ابني من أهلي﴾ وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه ! فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ؟ واستدل بقوله من أهلي ولم يقل : مني . انتهى .

واستدلاله بما استدل به سخيف فإن الله وعده بنجاة أهله ولم يعده بنجاة من كان منه حتى يضطر إلى قول : إن ابني مني عند سؤال نجاته ، وقد تقدم بيان أن لفظ الأيات لا يلائم هذا الوجه .

وما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراة ساكتة عن قصة ابن نوح هذا الغريق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن علي

---

(١) الأنبياء : ٧٦ .

رضي الله عنه أنه قرأ : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ قال هي بلغة طيء لم يكن ابنه وكان ابن امرأته .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام.

وفي تفسير العياشي عن موسى عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ قال ليس بابنه إنما هو ابن امرأته وهي لغة طيء يقولون لابن امرأته : ابنه . الحديث .

وفيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول نوح : ﴿يا بني اركب معنا﴾ قال : ليس بابنه . قال : قلت : إن نوحاً قال : يا بني ؟ قال : فإن نوحاً قال ذلك وهو لا يعلم .

أقول : والمعتمد ما تقدم من رواية الوشّاء عن الرضا عليه السلام.

وفيه عن إبراهيم بن أبي العلاء عن أحدهما عليهما السلام قال : لمّا قال الله : ﴿يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ قالت الأرض : إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط ، ولم أؤمر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها وبقي ماء السماء فصيّر بحراً حول الدنيا .

وفيه عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث ذكر فيه الجوديّ قال : وهو جبل بالموصل .

وفيه عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿استوت على الجوديّ﴾ هو فرات الكوفة .

أقول : ويؤيد الرواية السابقة روايات أُخر .

وفيه عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما ركب نوح عليه السلام في السفينة قيل : بعداً للقوم الظالمين .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿قيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الآية ، قال : ويروى أن كفّار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام ، ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا .

أبحاث حول قصة نوح في فصول
وهي أبحاث قرآنية وروائية وتاريخية وفلسفية

١ ـ الإشارة إلى قصته : ذكر اسمه عليه السلام في القرآن في بضع وأربعين موضعاً يشار فيها إلى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً ، ولم تستوف قصته عليه السلام في شيء منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخي بذكر نسبه وبيته ومولده ومسكنه ونشوئه وشغله وعمره ووفاته ومدفنه وسائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتصّ تواريخ الناس من برّ أو فاجر .

وإنما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سعادتهم ، ويبيِّن لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والآخرة ، وربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء والأمم لتظهر به سنّة الله في عباده ، ويعتبر به من شملته العناية ووفّق للكرامة ، وتتم به الحجة على الباقين .

وقد فصّلت قصة نوح عليه السلام في ست من السور القرآنية وهي سورة الأعراف وسورة هود ، وسورة المؤمنون ، وسورة الشعراء ، وسورة القمر ، وسورة نوح وأكثرها تفصيلاً سورة هود التي ذكرت قصته عليه السلام فيها في خمس وعشرين آية (٢٥ ـ ٤٩) .

٢ ـ قصته عليه السلام في القرآن :

بعثه وإرساله :

كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أمة واحدة على بساطة وسذاجة ، وهم على الفطرة الإنسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجياً واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً وهذه هي النواة الأصلية التي لو نشأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف ، واسترقاق العزيز واستدراره للذليل ، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس .

فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض ، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي وأقبلوا على عبادة الأصنام ، وقد سمّى الله سبحانه منها ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا (سورة نوح) .

وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم (الأعراف - هود - نوح) .

فبعث الله نوحاً عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم[1] بالتبشير والإنذار .

دينه وشريعته عليه السلام :

كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء (كما يظهر من جميع قصصه القرآنية) والإسلام لله (كما يظهر من سورتي نوح ويونس وسورة آل عمران آية ١٩) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كما يظهر من سورة هود آية ٢٧) والصلاة (كما يظهر من آية ١٠٣ من سورة النساء وآية ٨ من سورة الشورى) والمساواة والعدالة وأن لا يقربوا الفواحش والمنكرات وصدق الحديث والوفاء بالعهد[2] وهو عليه السلام أول من حكي عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة[3] .

اجتهاده عليه السلام في دعوته :

وكان عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان بالله وآياته ، ويبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم إلى الحق ليلاً ونهاراً وإعلاناً وإسراراً فلا يجيبونه إلا بالعناد والاستكبار وكلما زاد في دعائهم زادوا في عتوّهم وكفرهم ، ولم يؤمن به غير أهله وعدّة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم وشكا ذلك إلى ربه وطلب منه النصر (سورة نوح والقمر والمؤمنون) .

لبثه في قومه :

لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء والسخرية ورميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر به (سورة العنكبوت) فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وعزّاه فيهم (سورة هود) فدعا عليهم بالتبار والهلاك ، وأن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم (سورة نوح) فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (سورة هود) .

صنعه عليه السلام الفلك :

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها

---

(١) البقرة : ٢١٣ . (٢) الأنعام : ١٥١ - ١٥٢ . (٣) هود : ٤١ .

وكان القوم يمرّون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء ، ويقول ﷺ: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علماً وهو أن يفور الماء من التنور (سورتا هود والمؤمنون) .

نزول العذاب ومجيء الطوفان :

حتى إذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق وهو امرأته الخائنة وابنه الذي تخلّف عن ركوب السفينة ، وأن يحمل الذين آمنوا (سورتا هود والمؤمنون) فلما حملهم وركبوا جميعاً فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون وقد أمره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يحمد الله على ما نجاه من القوم الظالمين وأن يسأله البركة في نزوله فيقول : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، ويقول : رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين .

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض :

فلما عمّ الطوفان وأغرق الناس (كما يظهر من سورة الصافّات آية ٧٧) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها والسماء أن تقلع وغيض الماء واستوت السفينة على جبل الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين ، وأوحي إلى نوح ﷺ أن اهبط إلى الأرض بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام ، ومنهم أمم سيمتعهم الله بأمتعة الحياة ثم يمسّهم عذاب أليم فخرج هو ومن معه ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام ، وتوارثت ذرّيته ﷺ الأرض وجعل الله ذريته هم الباقين (سورتا هود والصافات) .

قصة ابن نوح الغريق :

كان نوح ﷺ عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه ، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه أبوه وهو في معزل فناداه : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فردّ على أبيه قائلاً : ساوي إلى

جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام: لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم ـ يريد أهل السفينة ـ فلم يلتفت الابن إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ الدعاء[١] وهو القائل: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾[٢] وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾[٣].

فوجد نوح عليه السلام وحزن فنادى ربه من وجده قائلاً: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلي وأنت أحكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرّح بالسؤال في نجاة ابنه ـ وهو سؤال لما ليس له به علم ـ وأوحى الله إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربه تعالى قائلاً رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم أسألك أن تشملني بعنايتك وتستر عليّ بمغفرتك، وتعطف عليّ برحمتك، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين.

٣ ـ **خصائص نوح عليه السلام**: هو عليه السلام أول أولي العزم سادة الأنبياء أرسله الله إلى عامة البشر بكتاب وشريعة فكتابه أول الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله، وشريعته أول الشرائع الإلهية.

وهو عليه السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[٤] وهو عليه السلام أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾[٥].

وهو عليه السلام أول من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشريعة وكلم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي فهو الأصل الذي ينتهي

---

(١) نوح: ٢٧.
(٢) الشعراء: ١١٨.
(٣) هود: ٣٧.
(٤ و ٥) الصافات: ٧٧ ـ ٧٨.

إليه دين التوحيد في العالم فله المنة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة ، ولذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل : ﴿سلام على نوح في العالمين﴾[١] .

وقد اصطفاه الله على العالمين[٢] وعده من المحسنين[٣] وسماه عبداً شكوراً[٤] وعده من عباده المؤمنين[٥] وسماه عبداً صالحاً[٦] .

وآخر ما نقل من دعائه قوله : ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾[٧] .

٤ ـ قصته عليه السلام في التوراة الحاضرة : وحدث[٨] لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد . لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرّ ير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض . وتأسف في قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت أني عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب .

هذه مواليد نوح . كان نوح رجلاً بارّاً كاملاً في أجياله ـ وسار نوح مع الله . وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث . وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً . ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي . لأن الأرض امتلأت ظلماً

---

(١) الصافات : ٧٩ .
(٢) آل عمران : ٣٣ .
(٣) الأنعام : ٨٤ ، الصافات : ٨٠ .
(٤) الإسراء : ٣ .
(٥) الصافات : ٨١ .
(٦) التحريم : ١٠ .
(٧) نوح : ٢٨ .
(٨) الإصحاح السادس من سفر التكوين .

منهم . فها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر ، تجعل الفلك مساكن . وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه . ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كوّاً للفلك وتكمّله إلى حد ذراع من فوق . وتضع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله . فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى . من الطيور كأجناسها . ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كلّ تدخل إليك لاستبقائها . وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك . فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل .

وقال[1] الرب لنوح : ادخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك . لأني إياك رأيت باراً لديَّ في هذا الجيل . من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى . ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى . ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى . لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض . لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب .

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض . فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدبّ على الأرض . دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكر وأنثى . كما أمر الله نوحاً .

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض . في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء ، وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة . في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك . هم وكل الوحوش

---

(١) الإصحاح السابع من سفر التكوين .

كأجناسها وكل الدبابات التي تدبّ على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح . ودخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله . وأغلق الرب عليه .

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض . وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه . وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطّت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً .

ثم[1] ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها . وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه كل الأرض فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم

---

(١) الإصحاح الثامن من سفر التكوين .

نوح أن المياه قد قلّت عن الأرض . فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر فأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً .

وكان في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف . وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض .

وكلّم الله نوحاً قائلاً : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك . وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض . فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه ، وكل الحيوانات وكل الدبابات وكل الطيوركل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك .

وبنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرّقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه : لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت . مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا يزال .

وبارك الله[1] نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع . غير أن لحماً بجنابة دمه لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه . سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان . فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها .

وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً . وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم . ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض .

---

(١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب . أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا يكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد . فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض . وقال الله لنوح : هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض .

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعّبت كل الأرض .

وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً . وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما .

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته . وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثماوة وخمسين سنة . فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات . انتهى ما قصدنا إيراده .

وهو ـ كما ترى ـ يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه :

منها : أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح بل صرّح بدخولها الفلك ونجاتها مع بعلها ، وقد اعتذر عنه بعض : أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان اغرقت إحداهما ونجت الأخرى .

ومنها : أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق وقد قصّه القرآن .

ومنها : أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله بل اقتصر عليه وعلى بنيه وامرأته ونساء بنيه .

ومنها : أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة ، وظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التي لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان . قال تعالى : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾[1] .

ومنها : ما ذكر فيه من حديث قوس قزح وقصة إرسال الغراب والحمامة للاستخبار وخصوصيات السفينة من عرضها وطولها وارتفاعها وطبقاتها الثلاث ومدة الطوفان وارتفاع الماء وغير ذلك فهي خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس ، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصحابة والتابعين ، وأكثرها بالإسرائيليات أشبه .

٥ ـ ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الأمم وأساطيرهم : قال صاحب المنار في تفسيره : قد ورد في تواريخ الأمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلاً ومنها المخالف له إلا قليلاً .

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين ، وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم فقد نقل عنهم «برهوشع» و «يوسيفوس» أن «زيزستروس» رأى في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى وتغرق جميع البشر ، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل . وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبّارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان .

وقد عثر بعض الانجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر آشور بانيبال من نحو ستمائة وستين سنة قبل ميلاد المسيح ، وأنها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين .

وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده أفلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون ـ الحكيم اليوناني ـ أن السماء أرسلت طوفاناً غيّر وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم .

---

(١) العنكبوت : ١٤ .

وأورد «مانيتون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول ، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضاً ، وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عمَّ الأرض كلها إلا «دوكاليون» وامرأته «بيرا» فقد نجوا منه .

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشرّ ، وقالوا : إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا : إنه كان خاصاً بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

وكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافيّ آخرها أن ملكهم نجا هو وامرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إلهه فشنو وسدها بالدسر حتى استوت على جبل جيمافات ـ هملايا ـ ولكن البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها ، وروي تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما ، وكل هذه الروايات تتفق في أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم . انتهى .

وقد[1] وقع في «أوستا» وهو كتاب المجوس المقدس أن «أهورامزدا» أوحى إلى «إيما» (وتعتقد المجوس أنه جمشيد الملك) أنه سيقع طوفان يغرق الأرض ، وأمره أن يبني حائطاً مرتفعاً غايته بِحفظ من في داخله من الغرق ، وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل ، ويدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين ، ويبني في داخل السور بيوتاً وقباباً في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوي إليها الدواب والطيور ، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الأشجار المثمرة ، ويحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها .

وفي تاريخ الأدب الهندي[2] في قصة الطوفان : أنه بينما كان «مانو» (هو ابن الإله عند الوثنيين) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ، ومما اندهش به أن السمكة كلّمته وطلبت إنقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم ، والخطر العظيم المحدق الذي أنبأت به السمكة كان

(١) ترجمة كتاب أوستا بالفرنسية المطبوعة بباريس .

(٢) على ما في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .

طوفاناً سيجرف جميع المخلوقات ، وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في المرتبان .

فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة : أنا أنقذك من الطوفان ، فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر .

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة ، وحين دخل «مانو» السفينة عامت السمكة إليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشمالية ، وهنا ربط مانو السفينة بشجرة ، وعندما تراجع الماء وجف بقي مانو وحده . انتهى .

٦ ـ **هل كانت نبوته عليه السلام عامة للبشر ؟** مسألة اختلفت فيها آراء العلماء . فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته ، وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم السلام ما يدل عليه ، وعلى أن أولي العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وعليهم) كانوا مبعوثين إلى الناس كافة .

وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الأرض كلهم كقوله : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾[١] وقوله : ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾[٢] ، وقوله : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[٣] ، وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ولازمه كونه مبعوثاً إليهم كافة .

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ : «وكان كل نبيّ يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس كافّة» وأجابوا عن الآيات أنها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كانوا يسكنونها وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون : ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾[٤] .

---

(١) نوح : ٢٦ .
(٢) هود : ٤٣ .
(٣) الصافات : ٧٧ .
(٤) يونس : ٧٨ .

فمعنى الآية الأولى : لا تذر على هذه الأرض من كافري قومي دياراً ، وكذا المراد بالثانية : لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله ، والمراد بالثالثة : وجعلنا ذرِّيته هم الباقين من قومه .

والحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم ، والذي ينبغي أن يُقال : إن النبوّة إنما ظهرت في المجتمع الإنساني عن حاجة واقعية إليها ورابطة حقيقية بين الناس وبين ربهم وهي تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع وهدايتها إلى غاياتها الوجودية ، وقد قال تعالى : ﴿الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى﴾[1] ، وقال : ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[2] .

فكل نوع من أنواع الكون متوجّه منذ أول تكونه إلى كمال وجوده وغاية خلقه الذي فيه خيره وسعادته ، والنوع الإنساني أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير إليها ويتوجه نحوها أفراده فرادى ومجتمعين .

ومن الضروري عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيوية وكثرة الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملي الذي يبعثه إلى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بني نوعه .

غير أن الأفراد أمثال وفي كل واحد منهم من العقل العملي والشعور الخاص الإنساني ما في الآخر ويبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الآخر ما عنده من العقل العملي ، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع التعاوني بأن يعمل الكل للكل وينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كلّ لغيره بمقدار ما يسخّره كما قال تعالى : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾[3] .

وهذا الذي ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاوني اضطراري له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوة الرقباء فهو في الحقيقة مدني تعاوني بالطبع الثاني وإلا فطبعه الأوّلي أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه ، ولذلك مهما قوي الإنسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه وأخذ يسترق الناس

---

(١) الأعلى : ٣ . (٢) طه : ٥٠ . (٣) الزخرف : ٣٢ .

ويستثمرهم من غير عوض قال تعالى : ﴿إن الإنسان لظلوم كفّار﴾ (١) وقال : ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربّك الرجعى﴾ (٢) .

ومن الضروري أن الاجتماع التعاوني بين الأفراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها وحفّاظ تقوم بها ، وهذا مما استمرت سيرة النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملاً كان أو ناقصاً ، راقياً كان أو منحطّاً إلا ويجري فيه رسوم وسنن جرياناً كلياً أو أكثرياً ، والتاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمّها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقاً كلياً أو أكثرياً في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظناً فهي أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه ، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدي الإنسان إلى غاية وجوده فافهم ذلك .

وقد علم أن من الواجب في عناية الله أن يهدي الإنسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة إلى ما فيه خيره وسعادته وهو الذي يبعثها إليه نظام الكون والجهازات التي جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى : ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ (٣) .

يهديه بواجب عنايته إلى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كماله وسعادته فإن العناية الإلهية بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة .

ولا يكفي في ذلك ما جهّز به الإنسان من العقل - وهو ههنا العملي منه - فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو إلى الاختلاف ، ومن المحال أن يفعل شيء من القوى الفعّالة فعلين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين ، على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به .

فظهر أن هناك طريقاً آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال

---

(١) إبراهيم : ٣٤ . (٢) العلق : ٨ . (٣) الشمس . ١٠ .

والسعادة غير طريق التفكر والتعقل وهو طريق الوحي ، وهو نوع تكليم إلهي يعلم الإنسان ما يفوز بالعمل به والاعتقاد له في حياته الدنيوية والأخروية .

فإن قلت : الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لأتى به فإن العالم الإنساني لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل ، ولم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الإنساني ويركّبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه ؟ .

قلت : لهذا البحث جهتان : جهة أن العناية الإلهية من واجبها أن تهدي المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمله لو عمل بها وهي الهداية بالوحي ولا يكفي فيها العقل ، وجهة أن الواقع في الخارج والمتحقق بالفعل ما هو؟ وإنما نبحث في المقام من الجهة الأولى دون الثانية ، ولا يضر بها أن هذه الطريقة لم تجر بين الناس إلى هذه الغاية إلا قليلاً. وذلك كما أن العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول إلى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي .

وبالجملة فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر إلى العناية الإلهية وإلا لم تتم الحجة بمجرد العقل لأن له شغلاً غير الشغل وهو دعوة الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه ، ولو دعاه إلى شيء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فافهم ذلك وأحسن التدبّر في قوله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1] .

فمن الواجب في العناية أن يُنزّل الله على المجتمع الإنساني ديناً يدينون به وشريعة يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون أن يخص بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية بهم ، ولازمه الضروري أن يكون أول شريعة نزلت

---

(١) النساء : ١٦٥ .

عليهم شريعة عامة .

وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عز من قائل : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[١] ، فبيَّن أن الناس كانوا أول ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، ويحسم مادة الخصومة والنزاع .

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد ﷺ : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾[٢] ومقام الامتنان يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير ، وأول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح ، ولو لم يكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنه عليه السلام لكان هناك إما نبي آخر ذو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى ، وإما إهمال سائر الناس غير قومه عليه السلام في زمنه وبعده إلى حين .

فقد بان أن نبوة نوح عليه السلام كانت عامة ، وأن له كتاباً وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف ، وأن كتابه أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ، وأن قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ هو كتابه أو كتابه وكتاب غيره من أولي العزم : إبراهيم وموسى وعيس ومحمد ﷺ .

وظهر أيضاً أن ما يدل من الروايات على عدم عموم دعوته عليه السلام مخالف للكتاب وفي حديث الرضا عليه السلام أن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي ، وقد تقدم الحديث في ذيل قوله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾[٣] ، في الجزء الثاني من الكتاب .

٧ ـ هل الطوفان كان عاماً لجميع الأرض ؟ تبين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته عليه السلام يقضي بعموم العذاب ، وهو نعم القرينة

---

(١) البقرة : ٢١٣ . (٢) الشورى : ١٣ . (٣) البقرة : ٢١٣ .

على أن المراد بسائر الآيات الدالة بظاهرها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً﴾[1] ، وقوله حكاية عنه : ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾[2] ، وقوله : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[3] .

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق ـ كما قيل ـ لم يكن أي حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين . وهو ظاهر .

واختار بعضهم كون الطوفان خاصاً بأرض قوم نوح عليه السلام قال صاحب المنار في تفسيره : أما قوله في نوح عليه السلام بعد ذكر تنجيته وأهله : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافياً أي الباقين دون غيرهم من قومه ، وأما قوله : ﴿وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ فليس نصاً في أن المراد بالأرض هذه الكرة كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون : ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ يعني أرض مصر ، وقوله : ﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ فالمراد بها مكة ، وقوله : ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرّتين﴾ والمراد بها الأرض التي كانت وطنهم ، والشواهد عليه كثيرة .

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذرّيته ، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبلها لا في الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإن علماء التكوين وطبقات الأرض ـ الجيولوجية ـ يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها

---

(١) نوح : ٢٦ . (٢) هود : ٤٣ . (٣) الصافات : ٧٧ .

من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج .

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنّا نجد بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال وهذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمَّ الأرض هذا .

وردَّ عليه بأن وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكوُّن الجبال وغيرها من اليابسة في الماء كما قلنا آنفاً فإن صعود الماء إلى الجبال أياماً معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها .

ثم قال ما ملخّصه : إن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنصّ قطعيّ فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية فإن أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرّنا لأنه لا ينقض نصّاً قطعياً عندنا . انتهى .

أقول : أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل ، وأما قوله في ردّ قولهم بوجود الأصداف والأسماك في قلل الجبال : إن صعود الماء إليها في أيام معدودة لا يكفي في حدوثها ! ففيه أن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمة إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخة في أيام معدودة غير عزيز .

وبعد ذلك كله قد فاته ما تنصّ عليه الآيات أنه ﷺ أمر أن يحمل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في أن الطوفان عمَّ البقاع اليابسة من الأرض جميعاً أو معظمها الذي هو بمنزلة الجميع .

فالحق أن ظاهر القرآن الكريم ـ ظهوراً لا ينكر ـ أن الطوفان كان عاماً للأرض ، وأن من كان عليها من البشر أغرقوا جميعاً ، ولم تقم لهذا الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور .

وقد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم أستاذ

الجيولوجيا بكلية طهران أن يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجية في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلي فأجابني بإيفاد مقال محصّله ما يأتي مفصلاً في فصول :

١ ـ الأراضي الرسوبية : تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الأرضية التي كوّنتها رسوبات المياه الجارية على سطح الأرض كالبطائح والمسيلات التي غطتها الرمال ودقاق الحصى .

نعرف الأراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدوّرة فإنها كانت في الأصل قطعات من الحجارة حادة الأطراف والزوايا حولتها إلى هذه الحالة الاصطكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إن الماء حملها وبسطها على الأرض في غايات قريبة أو بعيدة بالرسوب .

وليست تنحصر الأراضي الرسوبية في البطائح فغالب الأراضي الترابية من هذا القبيل تخالطها أو تكونها رمال بالغة في الدقة ، وقد حملها لدقتها وخفتها إليها جريان المياه والسيول .

نجد الأراضي الرسوبية وقد غطتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم ، وذلك :

أولاً : إمارة أن تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه .

وثانياً : إن مسير المياه والسيول أو شدة جريانها قد تغير بحسب اختلاف الأزمنة .

ويتضح بذلك أن الأراضي الرسوبية كانت مجاري ومسايل في الأزمنة السابقة لمياه وسيول هامة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك .

وهذه الأراضي التي تحكي عن جريان مياه كثيرة جداً وسيلان سيول هائلة عظيمة توجد في أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضي طهران وقزوين وسمنان وسبزوار ويزد وتبريز وكرمان وشيراز وغيرها ، ومنها مركز بين النهرين وجنوبه ، وما وراء النهر ، وصحراء الشام ، والهند ، وجنوب فرنسا ، وشرقي الصين ، ومصر ، وأكثر قطعات أمريكا ، وتبلغ ضخامة الطبقة الرسوبية في بعض الأماكن إلى مئات الأمتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربعمائة متراً .

وينتج مما مر أولاً : أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد (على ما سيأتي توضيحه) كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربما غطت معظم بقاعها .

وثانياً : أن الطغيان والطوفان ـ بالنظر إلى ضخامة القشر الرسوبي في بعض الأماكن ـ لم يحدث مرة واحدة ولا في سنة أو سنين معدودة بل دام أو تكرر في مئات من السنين كلما حدث مرة كوّن طبقة رسوبية ثم إذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم إذا عاد كون أخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقة رمالها وعدمها يدل على اختلاف السيلان بالشدة والضعف .

٢ ـ الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية : ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوباً أفقياً ولكن ربما وقعت أجزاؤها المتراكمة تحت ضغطات جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن تحت فتخرج بذلك تدريجاً عن الأفقية إلى التدوير والالتواء ، وهذا غير ظاهر الأثر في الأزمنة القصيرة المحدودة لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر وتكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلالها في بعض وترتفع بقللها من سطوح البحار .

ويستنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبية والقشور الأفقية الباقية على حالها من أحدث الطبقات المتكونة على البسيط ، والدلائل الفنية الموجودة تدل على أن عمرها لا يجاوز عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف سنة من زماننا هذا[١] .

٣ ـ انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه إليها : كان تكون القشور الرسوبية الجديدة عاملاً في انبساط أكثر بحار الكرة واتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها وغطت أكثر سواحلها ، وعملت جزائر في السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها .

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا وانفصلت من أوروبا بالكلية ، وكانت أوروبا من ناحية جنوبها وإفريقيا من ناحية شمالها مرتبطتين برابط برّي إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط (مديترانه) وتكوّن بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي وجزائر

---

(١) ويستثنى من ذلك بعض ما في أطراف بالتيك وسائر المناطق الشمالية من طبقات رسوبية أفقية باقية على حالها من أقدم العهود الجيولوجية لجهات مذكورة في محلها .

صقلية وسردينيا وغيرها وكانت جزائر أندونيسيا من ناحية جاوا وسوماترا إلى جنوبي جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي إلى هذا الحين فانفصلت وتحولت إلى صورتها الفعلية ، وكذا انقطاع إمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوروبا أحد الآثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان .

وللحركات والتحولات الأرضية الداخلية آثار قوية في سير هذه المياه واستقرارها في البقاع الخافضة المنحدرة ولذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستولياً على أكثر البسيط يكوّن بحيرات ويوسع بحاراً ، ومن هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج(١) .

٤ ـ العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان :
الشواهد الجيولوجية التي أشرنا إلى بعضها تؤيد أن النزولات الجوية كانت غير عادية في أوائل الدور الحاضر من أدوار الحياة الإنسانية وهو عهد الطوفان ، وقد كان ذلك عن تغيرات جوية هامة خارقة للعادة قطعاً . فكان الهواء حاراً في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقاً ببرد شديد وقد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج والجمد والجليد فمن المحتمل قوياً أن المتراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقياً لم يذب بعد في النجود في أكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية .

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد والجليد يوجب تغيّراً شديداً في الجو وانقلاباً عظيماً مؤثّراً في ارتفاع بخار الماء إليه وتراكمه فيه تراكماً هائلاً غير عادي وتعقبه نزولات شديدة وأمطار غزيرة غير معهودة .

نزول هذه الأمطار الغزيرة الهاطلة ثم استدامتها النزول على الارتفاعات والنُجود وخاصة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا ومغربها وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا كجبال(٢) ألبرز وهيماليا وآلب وفي مغرب إمريكا

---

(١) وقد كانت مدينة شوش وقصر الكرخة في زمن الملوك الهخامنشية بإيران على ساحل البحر وكانت السفن الشراعية الجارية في خليج فارس تلقى مراسيها أمام القصر .

(٢) فهي أقل عمراً من سائر جبال الأرض لم تعمر أكثر من مليوني سنة ولذلك كانت أشهق=

عقّب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحت الصخور وتحفر الأرض وتقلع أحجاراً وتحملها إلى الأراضي والبقاع المنحدرة وتحدث أودية جديدة وتعمّق أخرى قديمة وتوسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجارة والحصى والرمل تجاهها قشوراً رسوبية جديدة .

ومما كان يمد الطوفان السماوي في شدة عمله ويزيد في حجم السيول الجارية أن حفر الأودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائية في بطن الأرض هي منابع الآبار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجّر العيون ويجريها مع السيول المطرية ، ويزيد في قوة تخريبها ويعينها في إغراق ما على الأرض من سهل وجبل وغمره .

غير أن الذخائر الأرضية متناهية محدودة تنفد بالسيلان وبنفادها وإمساك السماء عن الإمطار ينقضي الطوفان وتنحدر المياه إلى البحار والأراضي المنخفضة وإلى بعض الخلاء والسرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير والمص .

٥ ـ **نتيجة البحث** : وعلى ما قدمناه من البحث الكلي يمكن أن ينطبق ما قصّه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾[١] ، وقوله : ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور﴾[٢] ، وقوله : ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر﴾[٣] . انتهى .

ومما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد[٤] طهران في هذه الأيام وملخّصه : إن جماعة من رجال العلم من إمريكا بهداية من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل آراراط في شرقي تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة قديمة وقعت

= جبال الأرض وأعلى قللاً من غيرها لقلة ما ورد عليها من أسباب النحت كالأمطار والرياح .

(١) القمر : ١٢ . (٢) هود : ٤٠ . (٣) هود : ٤٤ .

(٤) جريدة كيهان المنتشرة أول سبتمبر ١٩٦٢ المطابق لغرة ربيع الأول ١٣٨٢ الهجرية القمرية عن لندن . آسوشتيد برس .

هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

والقياس يعطي أنها قطعات من سفينة تعادل حجمها ثلثي حجم مركب «كوئين ماري» الانجليزية التي طولها ١٠١٩ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً ، وقد حملت الأخشاب إلى سانفراسيسكو لتحقيق أمرها وإنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح ؟ عليه السلام .

٨ ـ عمره عليه السلام الطويل : القرآن الكريم يدل على أنه عليه السلام عمّر طويلاً ، وأنه دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه ، وقد استبعده بعض الباحثين لما أن الأعمار الإنسانية لا تتجاوز في الأغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم أن القدماء كانوا يعدّون كل شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاماً يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور . وهو بعيد غايته .

وذكر بعضهم أن طول عمره عليه السلام كان كرامة له خارقة للعادة ، قال الثعلبي في قصص الأنبياء في خصائصه عليه السلام : وكان أطول الأنبياء عمراً وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمّر ألف سنة ولم ينقص له سنّ ولم تنقص له قوة . انتهى .

والحق أنه لم يقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمّر الإنسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب في الاعتبار أن يعمّر البشر الأولي بأزيد من الأعمار الطبيعية اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الأمراض المسلطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة ، ونحن كلما وجدنا معمّراً عمّر مائة وعشرين إلى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقي بعض الأعمار في السابقين إلى مئات من السنين .

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقة للعادة شيئاً كثيراً لعجيب . وقد تقدم كلام في المعجزة في الجزء الأول من الكتاب .

٩ ـ أين هو جبل الجودي : ذكروا أنه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية ، وقد سماه في التوراة أراراط . قال في القاموس : والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، ويسمى في التوراة ﴿أراراط﴾ انتهى ،

وقال في مراصد الاطلاع : الجودي مشددة جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة من أعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء .

١٠ ـ ربما قيل : هب أنه أغرق قوم نوح بذنبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلكت بطاغية المياه ؟ وهذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك ولو كان عاماً عقوبة وانتقاماً ، والحوادث العامة التي تهلك الألوف ثم الألوف مثل الزلازل والطوفانات والوباء والطاعون كثير الوقوع في الدهر ، ولله فيما يقضي حكم .

(كلام في عبادة الأصنام في فصول)

١ ـ **الإنسان واطمئنانه إلى الحس** : الإنسان يجري في حياته الاجتماعية على اعتبار قانون العلية والمعلولية الكلي وسائر القوانين الكلية التي أخذها من هذا النظام العام المشهود ، وهو على خلاف ما نشاهده من أعمال سائر الحيوان وأفعاله يجري في التفكر والاستدلال أعني القياس والاستنتاج إلى غايات بعيدة .

وهو مع ذلك لا يستقر في فحصه وبحثه على قرار دون أن يحكم في علة هذا العالم المشهود الذي هو أحد أجزائه بشيء من الإثبات والنفي لما يرى أن سعادة حياته التي لا بغية عنده أحب منها تختلف على تقديري إثبات هذه العلة الفاعلة المسماة بالإله عز اسمه ونفيه اختلافاً جوهرياً فمن البين أن لا مضاهاة بين حياة الإنسان المتأله الذي يثبت للعالم إلهاً حياً عليماً قديراً لا مناص عن الخضوع لعظمته وكبريائه والجري على ما يحبه ويرضاه ، وبين حياة الإنسان الذي يرى العالم سدى لا مبدأ له ولا غاية ، وليس فيه للإنسان إلا الحياة المحدودة التي تفنى بالموت وتبطل بالفوت ، ولا موقف للإنسانية فيه إلا ما للحيوان العجم من موقف الشهوة والغضب وبغية البطن والفرج .

فهذه نزعة فكرية أولى للإنسان إلى الحكم بأنه : هل للموجود من إله ؟ وتتلوه نزعة ثانية وهي القضاء الفطري بالإثبات ، والحكم بأن للعالم إلهاً خلق كل شيء بقدرته وأجرى النظام العام بربوبيته فهدى كل شيء إلى غايته وكمال وجوده بمشيئته وسيعود كل إلى ربه كما بدىء . هذا .

ثم إن مزاولة الإنسان للحس والمحسوس مدى حياته وانكبابه على المادة وإخلاده إلى الأرض عوّده أن يمثل كل ما يعقله ويتصوره تمثيلاً حسياً وإن كان مما لا طريق للحس والخيال إليه البتة كالكليات والحقائق المنزهة عن المادة على أن الإنسان إنما ينتقل إلى المعقولات من طريق الإحساس والتخيل فهو أنيس الحس وأليف الخيال .

وقد قضت هذه العادة اللازمة على الإنسان أن يصور لربه صورة خيالية على حسب ما يألفه من الأمور المادية المحسوسة حتى إن أكثر الموحدين ممن يرى تنزه ساحة رب العالمين تعالى وتقدس عن الجسمية وعوارضها يثبت في ذهنه له تعالى صورة مبهمة خيالية معتزلة للعالم تبادر ذهنه إذا توجه إليه في مسألة أو حدث عنه بحديث غير أن التعليم الديني أصلح ذلك بما قرر من الجمع بين النفي والإثبات والمقارنة بين التشبيه والتنزيه يقول الموحد المسلم : إنه تعالى شيء ليس كمثله شيء له قدرة لا كقدرة خلقه ، وعلم لا كالعلوم وعلى هذا القياس .

وقلّ أن يتفق لإنسان أن يتوجه إلى ساحة العزة والكبرياء ونفسه خالية عن هذه المحاكاة، وما أشذ أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلق القلب بمن دونه، ولا ممسوس بالتسويلات الشيطانية، قال تعالى : ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾[١] ، وقال حكاية عن إبليس : ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٢] .

وبالجملة الإنسان شديد الولع بتخيل الأمور غير المحسوسة في صورة الأمور المحسوسة فإذا سمع أن وراء الطبيعة الجسمية ما هو أقوى وأقدر وأعظم وأرفع من الطبيعة وأنه فعال فيها محيط بها أقدم منها مدبر لها حاكم فيها لا يوجد شيء إلا بأمره ولا يتحول عن حال إلى حال إلا بإرادته ومشيئته لم يتلق من جميع ذلك إلا ما يضاهي أوصاف الجسمانيات وما يتحصل من قياس بعضها إلى بعض .

وكثيراً ما حكاه في نفسه بصورة إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبر أمر العالم بالتفكر ويتممه بالإرادة والمشيئة والأمر والنهي ، وقد

---

(١) الصافات : ١٦٠ .　　(٢) ص : ٨٣ .

صرحت التوراة الموجودة بأن الله سبحانه كذلك ، وأنه تعالى خلق الإنسان على صورته ، وظاهر الأناجيل أيضاً ذلك .

فقد تحصل أن الأقرب إلى طبع الإنسان وخاصة الإنسان الأولي الساذج أن يصنع لربه المنزه عن الشبه والمثل صورة يضاهي بها الذوات الجسمانية وتناسب الأوصاف والنعوت التي يصفها بها كما يمثل الثالوث بإنسان ذو وجوه ثلاثة كأن كلاً من النعوت العامة وجه للرب يواجه به خلقه .

٢ ـ **الإقبال إلى الله بالعبادة** : إذا قضى الإنسان أن للعالم إلهاً خلقه بعلمه وقدرته لم يكن له بد من أن يخضع له خضوع عبادة اتباعاً للناموس العام الكوني وهو خضوع الضعيف للقوي ومطاوعة العاجز للقادر ، وتسليم الصغير الحقير للعظيم الكبير فإنه ناموس عام جار في الكون حاكم في جميع أجزاء الوجود ، وبه يؤثر الأسباب في مسبباتها وتتأثر المسببات عن أسبابها .

وإذا ظهر الناموس المذكور لذوات الشعور والإرادة من الحيوان كان مبدءً للخضوع والمطاوعة من الضعيف للقوي كما نشاهده من حال الحيوانات العجم إذا شعر الضعيف منها بقوة القوي آئساً من الظهور عليه والقدرة على مقاومته .

وظهوره في العالم الإنساني أوسع وأبين من سائر الحيوان لما في هذا النوع من عمق الإدراك وخصيصة الفكر فهو متفنن في إجرائه في غالب مقاصده وأعماله جلباً للنفع أو دفعاً للضرر كخضوع الرعية للسلطان والفقير للغني والمرؤوس للرئيس والمأمور للآمر والخادم للمخدوم والمتعلم للعالم والمحب للمحبوب والمحتاج للمستغني والعبد للسيد والمربوب للرب .

وجميع هذه الخضوعات من نوع واحد وهو تذلل وهوان نفساني قبال عزة وقهر مشهود ، والعمل البدني الذي يظهر هذا التذلل والهوان هي العبادة أياً ما كانت؟ وممن ولمن تحققت ؟ ولا فرق في ذلك بين الخضوع للرب تعالى وبينه إذا تحقق من العبد بالنسبة إلى مولاه أو من الرّعية بالنسبة إلى السلطان أو من المحتاج بالنسبة إلى المستغني أو غير ذلك فالجميع عبادة .

وعلى أي حال لا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع لاستناده إلى فضاء فطري ليس للإنسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبيّن له أن الذي كان بظنه قوياً ويستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنه بل هما سواء مثلاً .

ومن هنا ما نرى أن الإسلام لم ينه عن اتخاذ آلهة دون الله وعبادتهم إلا بعد ما بيّن للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم ، وأن العزّة والقوة لله جميعاً قال تعالى : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾[1] وقال : ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[2] وقال تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾[3] ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى بعد ما دعاهم إلى ترك عبادة غير الله تعالى من الآلهة ورفض الخضوع لسائر المخلوقين المماثلين لهم وقال تعالى : ﴿أن القوة لله جميعاً﴾[4] ، وقال : ﴿فإن العزّة لله جميعاً﴾[5] وقال : ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات .

فليس عند غيره تعالى ما يدعو إلى الخضوع له فلا يسوغ الخضوع لأحد ممن دونه إلا أن يؤول إلى الخضوع لله ويرجع تعزيره أو تعظيمه وولايته إلى ناحيته قال تعالى : ﴿الذين يتّبعون الرسول النبي الأُميّ﴾ إلى أن قال ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون﴾[7] ، وقال : ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ إلى قوله ﴿وهم راكعون﴾[8] ، وقال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[9] ، وقال : ﴿ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾[10] . فلا خضوع في الإسلام لأحد دون الله إلا ما يرجع إليه تعالى ويقصد به .

٣ ـ كيف نشأت الوثنية ؟ وبماذا بدأت ؟ اتضح في الفصل المتقدم أن الإنسان في مزلّة من تجسيم الأُمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوة فائقة قاهرة والاعتناء بشأنها .

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرُّز والاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في

(١ و٢) الأعراف : ١٩٤ و١٩٨ .
(٣) آل عمران : ٦٤ .
(٤) البقرة : ١٦٥ .
(٥) النساء : ١٣٩ .
(٦) السجدة : ٤ .
(٧) الأعراف : ١٥٧ .
(٨) المائدة : ٥٥ .
(٩) التوبة : ٧١ .
(١٠) الحج : ٣٢ .

المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين فترى فيها من النصب وتماثيل الرجال وتعظيمها واحترامها والبلوغ في الخضوع لها ما يمثّل لك وثنية العهود الأولى والإنسان الأولي . على أن اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مآت الملايين قاطنين في شرقها وغربها .

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم ، وقد ورد في روايات أئمة أهل البيت ما يؤيد ذلك ففي تفسير القميّ مضمر أو في علل الشرائع مسنداً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم﴾ الآية ، قال : كانوا يعبدون الله عز وجل فماتوا فضجّ قومهم وشقّ ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله وقال لهم : أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله ، فأعدّ لهم أصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله عز وجل وينظرون إلى تلك الأصنام ، فلما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت .

فلم يزالوا يعبدون الله عز وجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا : إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عز وجل فذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ولا تذرنّ وَدّاً ولا سواعاً﴾ الآية .

وكان رب البيت في الروم واليونان القديمين ـ على ما يذكره التاريخ ـ يعبد في بيته فإذا مات اتخذ له صنم يعبده أهل بيته ، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في قومهم ، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام الذي حاجّه في ربه ، وفرعون موسى .

وهو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كصنم بوذا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم .

واتخاذهم أصنام الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنهم كانوا يرون أنهم لا يبطلون بالموت وأن أرواحهم باقية بعده ، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجوداً وأنفذ إرادة وأشد تأثيراً لما أنها خلصت من شوب المادة ونجت من التأثرات الجسمانية والانفعالات الجرمانية ،

وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إله معبود في قومه ، قال تعالى : ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾[1] .

٤ ـ اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع وغيرهم : كأن اتخاذ تماثيل الرجال هو الذي نبّه الناس على اتخاذ صنم الإله إلا أنه لم يعهد منهم أن يتخذوا تمثالاً لله سبحانه المتعالي أن يحيط به حدّ أو يناله وهم ، وكأن هذا هو الذي صرفهم عن اتخاذ صنمه بل تفرقوا في ذلك فأخذ كلٌ ما يهمه من جهات التدبير المشهود في العالم فتوسلوا إلى عبادة الله بعبادة من وكله إلى الله على تدبير تلك الجهة المعني بها بزعمهم .

فالقاطنون في سواحل البحار عبدوا رب البحر لينعم عليهم بفوائدها ويسلموا من الطوفان والطغيان ، وسكّان الأودية رب الوادي ، وأهل الحرب رب الحرب ، وهكذا .

ولم يلبثوا دون أن اتخذ كلٌ منهم ما يهواه من إله فيما يتوهمه من الصورة والشكل ، ومما يختاره من فلزّ أو خشب أو حجارة أو غير ذلك حتى روي أن بني حنيفة من اليمامة اتخذوا لهم صنماً من أقط ثم أصابهم جدب وشملهم الجوع فهجموا عليه فأكلوه .

وكان الرجل إذا وجد شجرة حسنة أو حجراً حسناً وهواه عبده ، وكانوا يذبحون غنماً أو ينحرون إبلاً فيلطخونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاءوا بها إليه فمسحوها به ، وكانوا يتخذون كثيراً من الأشجار أرباباً فيتبرّكون بها من غير أن يمسّوها بقطع أو كسر ويتقربون إليها بالقرابين ويأتون إليها بالنذورات والهدايا .

وساقهم هذا الهرج إلى أن ذهبوا في أمر الأصنام مذاهب شتى لا يكاد يضبطها ضابط ، ولا يحيط بها إحصاء غير أن الغالب في معتقداتهم أنهم يتخذونها شفعاء يستشفعون بها إلى الله سبحانه ليجلب إليهم الخير ويدفع عنهم الشر ، وربما أخذها بعض عامتهم معبودة لنفسها مستقلة بالألوهية من غير أن تكون شفعاء ، وربما كانوا يتخذونها شفعاء ويقدمونها أو يفضلونها على الله

---

(١) الأعراف : ١٢٧ .

سبحانه كما يحكيه القرآن في قوله تعالى : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ الآية[١] .

وكان بعضهم يعبد الملائكة ، وآخرون يعبدون الجن ، وقوم يعبدون الكواكب الثابتة كشعرى ، وطائفة تتخذ بعض السيارات إلهاً ـ وقد أشير إلى جميع ذلك في الكتاب الإلهي ـ كل ذلك طمعاً في خيرها أو خوفاً من شرها .

وقل أن يتخذ إله من دون الله ولا يتخذ له صنم يتوجه إليه في العبادات به بل كانوا إذا اتخذوا شيئاً من الأشياء إلهاً شفيعاً عملوا له صنماً من خشب أو حجر أو فلزّ ، ومثلوا به ما يتوهمونه عليه من صورة الحياة فيسوّونه في صورة إنسان أو حيوان وإن كان صاحب الصنم على غير الهيئة التي حكوه بها كالكواكب الثابتة والسيارة وإله العلم والحب والرزق والحرب ونحوها .

وكان الوجه في اتخاذ أصنام الشركاء قولهم : إن الإله لتعاليه عن الصورة المحسوسة كأرباب الأنواع وسائر الآلهة غير المادية أو لعدم ثباته على حالة الظهور كالكوكب الذي يتحول من طلوع إلى غروب يصعب التوجه إليه كلما أريد بالتوجه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله في صفاته ونعوته فيصمد إليه بوسيلته كلما أريد .

٥ ـ **الوثنية الصابئة** : الوثنية وإن رجعت ـ بالتقريب ـ إلى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء إلى الله وعبادة أصنامها وتماثيلها ، ولعلها استولت على الأرض وشملت العالم البشري مراراً كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصرة لنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام إلا أن اختلاف المنتحلين بها بلغ من التشتت واتباع الأهواء والخرافات مبلغاً كان حصر المذاهب الناشئة فيها كالمحال وأكثرها لا تبتني على أصول متقررة وقواعد منتظمة متلائمة .

ومما يمكن أن يعد منها مذهباً قريباً من الانتظام والتحصل مذهب الصابئة والوثنية البرهمية والبوذية :

أما الوثنية الصابئة فهي تبتني على ربط الكون والفساد وحوادث العالم الأرضي إلى الأجرام العلوية كالشمس والقمر وعطارد والزهرة ومرّيخ والمشتري

---

(١) الأنعام : ١٣٦ .

وزحل وأنها بما لها من الروحانيات المتعلقة بها هي المدبرة للنظام المشهود يدبر كل منها ما يتعلق به من الحوادث على ما يصفه فن أحكام النجوم ، ويتكرر بتكرر دوراتها الأدوار والأكوار من غير أن تقف أو تنتهي إلى أمد .

فهي وسائط بين الله سبحانه وبين هذا العالم المشهود تقرّب عبادتها الإنسان منه تعالى ثم من الواجب أن يتخذ لها أصنام وتماثيل فيتقرب إليها بعبادة تلك الأصنام والتماثيل .

وذكر المؤرّخون أن الذي أسس بنيانها وهذّب أُصولها وفروعها هو «يوذاسف» المنجّم ظهر بأرض الهند في زمن طهمورث ملك إيران ، ودعا إلى مذهب الصابئة فاتبعه خلق كثير ، وشاع مذهبه في أقطار الأرض كالروم واليونان وبابل وغيرها ، وبنيت لها هياكل ومعابد مشتملة على أصنام الكواكب ، ولهم أحكام وشرائع وذبائح وقرابين يتولاها كهنتهم . وربما ينسب إليهم ذبح الناس .

وهؤلاء يوحدون الله في أُلوهيته لا في عبادته ، وينزهونه عن النقائص والقبائح ، ويصفونه بالنفي لا بالإثبات كقولهم : لا يعجز ولا يجهل ولا يموت ولا يظلم ولا يجور ، ويسمون ذلك بالأسماء الحسنى مجازاً وليسوا بقائلين باسم حقيقة وقد قدمنا شيئاً من تاريخهم في تفسير قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾[1] الآية ، في الجزء الأول من هذا الكتاب .

٦ ـ الوثنية البرهمية : والبرهمية ـ على ما تقدم ـ من مذاهب الوثنية المتأصلة ، ولعلها أقدمها بين الناس فإن المدنية الهندية من أقدم المدنيات الإنسانية لا يضبط بدء تاريخي لها على التحقيق ، ولا يضبط بدء تاريخي لوثنية الهند غير أن بعض المؤرخين كالمسعودي وغيره ذكروا أن برهمن اسم أول ملوك الهند الذي عمّر بلادها وأسس قواعد المدنية فيها وبسط العدل بين أهلها .

ولعل البرهمية نشأت بعده باسمه فكثيراً ما كانت الأُمم الماضية يعبدون ملوكهم والأعاظم من أقوامهم لاعتقادهم أنهم ذوو سلطة غيبية وأن اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور ، ويؤيده بعض التأييد أن الظاهر من «ويدا» وهو كتابهم المقدس أنه مجموع من رسائل ومقالات شتى أُلِّف كل شطر منها بعض رجال الدين في أزمنة مختلفة ورّثوها من بعدهم فجمعت وأُلفت كتاباً يشير إلى دين ذي نظام وقد

---

(١) البقرة : ٦٢ .

صرح به علماء سانسكريت ولازم ذلك أن يكون البرهمية كغيرها من مذاهب الوثنية مبتدئة من أفكار عامية غير قيّمة ، متطورة في مراحل التكامل حتى بلغت حظها من الكمال .

ذكر البستاني في دائرة المعارف ما ملخصه :

برهم (بفتحتين فسكون أو بفتح الباء والهاء وسكون الراء) هو المعبود الأول والأكبر عند الهنود ، وهو عندهم أصل كل الموجودات واحد غير متغيّر وغير مدرك أزلي مطلق سابق كل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة بقوله : أوْم أي كن .

وحكاية برهم تشبه من كل وجه حكاية «اي بوذة» فليس الفرق إلا في الاسم والصفات وكثيراً ما يجعلون نفس برهم اسماً للأقانيم الثلاثة المؤلف منها ثالوث الهنود ، وهي : «برهما وشنو وسيوا» ويُقال لعبدة برهم : البرهميون أو البراهمة .

وأما برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع في أعماله (بدليل زيادة الألف في آخره وهو من اصطلاحاتهم) وهو الأقنوم الأول من الثالوث الهندي أي إن برهم ينبثق في نفسه في ثلاث أقانيم كل مرة في أقنوم ـ فالأقنوم الأول الذي يظهر به أول مرة هو برهما ، والثاني وشنو ، والثالث سيوا .

فلما انبثق برهما لبث مدة طويلة جالساً على سدرة تسمى بالهندية «كمالا» وبالسنسكريتية بدما ، وكان ينظر من كل جهة ، وكان له أربعة رؤوس بثماني أعين فلم يرَ إلا فضاء واسعاً مظلماً مملوءً ماءً فارتاع لذلك ولم يقدر أن يدرك سر أصله فلبث ساكتاً أبكم غارقاً في التأملات .

فمضت على ذلك أجيال وإذا بصوت قد طرق أُذنيه بغتة ونبّهه من سباته وأشار عليه أن يفزع إلى «باغادان» وهو لقب برهم فظهر برهم بصورة رجل له ألف رأس فسجد له برهما وجعل يسبّحه فانشرح صدر باغادان وأبدع النور وكشف الظلمات ، وأظهر لعبده حالة كينونته والكائنات بصور جراثيم متخدرة وأعطاه القوة لإخراجها من هذا الخمول .

فبقي برهما يتأمل في ذلك مائة سنة إلهية وهي عبارة عن ستة وثلاثين ألف سنة شمسية ثم ابتدأ بالعمل فأبدع أولاً سبع السماوات المسماة عندهم «سُوَرغة»

وأنارها بالأجرام المسماة «ديفانة» ثم أبدع «مريثلوكا» أي مقر الموت ثم الأرض وقمرها ، ثم المساكن السبعة السفلى المسماة بتالة ، وأنارها بثمانية جواهر موضوعة على رؤوس ثماني حيات .

فالسماوات السبع والمساكن السفلى السبعة هي العوالم الأربعة عشر في الميثولوجيا الهندية .

ثم خلق الأزواج السبعة لكي تعينه في أعماله فامتنع من مساعدته عشرة منها وهي «موني» والريشة التسعة التي منها «ناريدا أو نوردام» واقتصرت على التأملات الدنيوية فتزوج حينئذ أخته «ساراسواتي» وأولدها مائة ولد ، وكان البكر اسمه «دكشا» فولد لدكشا خمسون بنتاً فتزوجت ثلث عشرة منهن «كاسيابا» الذي يسمّونه أحياناً برهمان الأول ، وهو الذي ولد لبرهما ولداً يسمى «مارتشي» .

وولدت إحدى البنات المذكورات واسمها «أديتي» الأرواح المنيرة المسماة «ديفانة» وهي التي تفعل الخير وتسكن السماوات ، وأما أختها «ديتي» فولدت جمهوراً غفيراً من الأرواح الشريرة المسماة «داتينة» أو «أسورة» وهي سكان الظلام وفاعلة كل شر في العالم .

وكانت الأرض إلى ذلك الوقت خالية من السكان فقال بعضهم : إن برهما أخرج من نفسه «مانوسويامبوقا» الذي يقول الآخرون : إنه سابق له وأنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوَّجه «ساتاروبا» وقال لهما أن يكثرا وينميا .

وقال آخرون : إن برهما ولد أربعة أولاد وهم برهمان وكشتريا وقايسيا وسودرا فالأول خرج من فمه ، والثاني من ذراعه اليمنى ، والثالث من فخذه اليمنى والرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لأربع فرق أصلية .

وتزوّج الثلاثة الأخيرون بثلاث نساء منه أيضاً خرجت واحدة من ذراعه اليمنى والثانية من فخذه اليسرى ، والثالثة من رجله اليسرى ، وسمّين باسم بعولتهن بزيادة علامة التأنيث وهي «نى» ، وتزوج برهمان أيضاً زوجة من أبيه ، ولكن كانت من نسل الأسورة الشريرة ، فهذا ما في الفيداس عن كيفية خلق العالم .

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبة وشنو الأقنوم الثاني وسيوا الأقنوم الثالث وذلك أنه انتفخ بالكبرياء والعجب ، وظن نفسه نظير

العليّ فسقط في ناراك أي الجحيم ، ولم ينل العفو إلا بشرط أن يتجسّد مرة في كل من الأجيال الأربعة ، فتجسّد أول مرة بصورة غراب شاعر اسمه «كا كابوسندا» وفي الثانية بصورة «باربـاقلميكي» فكان أولاً لصاً ثم رجلاً عبوساً رزيناً نادماً ثم ترجماناً مشهوراً للفيداس ومؤلفاً للرامیانا ، وفي المرة الثالثة بصورة «قياسا» وهو شاعر ومؤلف «المهابارانا» والبغاقة وعدة بورانات ، وفي المرة الرابعة وهو العصر الحالي المسمى «كالي يوغ» بصورة «كاليداسا» الشاعر التشخيصي العظيم ومؤلف «ساكنتالا» ومنقح مؤلفات «قلميكي» .

ثم إن برهما ظهر في ثلاث أحوال ، ففي الحال الأولى كان الواحد الصمد والكل الأعظم العليّ ، وفي الحال الثانية ظهر منبثقاً من الأول أي شارعاً في العمل وفي الحال الثالثة ظهر متجسداً بصورة إنسان وحكيم .

وليس لبرهما عبادة عامة في الهند ، وله هناك هيكل واحد فقط غير أن البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ، ويدعونه مساء وصباحاً ، وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحة أيديهم على الأرض ونحو الشمس ، ويجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة ، وفي تقديس النار يقدمون له سمناً مصفّى كما يقدمون لإله النار ، وهذا التقديس أهم وأقدس من كل ما سواه . واسمه هوم أو هوما ورغيب .

ويمثل برهما بصورة رجل ذي لحية طويلة بإحدى يديه سلسلة الكائنات وبالأخرى الإناء الذي فيه ماء الحياة السماوي راكباً الهمسا وهو الطير الإلهي الذي يشبه اللقلق والنسر .

وأما برهمان فهو ابن برهما البكر أخرجه من فيه كما تقدم ، وجعل نصيبه أربعة الكتب المقدسة المسماة «فيداس» كناية عن الكلمات الأربع التي نطق بها بأفواهه الأربعة .

فلما أراد برهمان أن يتزوج نظير إخوته قال له برهما : إنك ولدت للدرس والصلاة فيجب أن تبتعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمان بقول أبيه فغضب برهما وزوّجه بواحدة من جنيات الشرّ المسماة أسورة ، ومن هذا ولد البراهمة وهم الكهنة المقدسون الذين خصّوا بتفسير الفيداس ، وكانوا يتولون أمر كل التقدمات التي يقدمها الهنود للآلهة .

وولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمة ، وقايسيا صنف أهل الزراعة منهم ، وسودرا صنف العبيد ، فالبراهمة أربعة أصناف ، انتهى ملخصاً من دائرة المعارف للبستاني .

وذكر غيره أن البرهمية منقسمة إلى طبقات أربع هم البراهمة (علماء المذهب) والحربيون والزرّاع والتجار ، ولا يعبؤا بغيرهم كالنساء والعبيد ، وقد نقلنا في ذيل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الآية[1] ، في الجزء السادس من الكتاب في بحث علمي عن كتاب ما للهند من مقولة لأبي ريحان البيروني شيئاً من وظائف البراهمة وعباداتهم ، وكذا عن الملل والنحل للشهرستاني شطراً من شرائع الصابئين .

والمذاهب الوثنية الهندية وكأن الصابئين مثلهم أيضاً مطبقون على القول بالتناسخ وهو أن العوالم غير متناهية من ناحيتي الأزل والأبد ولكل منها حظاً من البقاء مؤجّلاً فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته وتولّد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث وهكذا ، والنفوس الإنسانية المتعلقة بالأبدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدأ حياة جديدة لها فإنها تتعلق بأبدان أُخر تعيش فيها عيشة سعيدة إن كسبت في بدنها السابق فضائل نفسانية وعملت عملاً صالحاً ، وعيشة شقية إن تلبست بالرذائل واقترفت السيئات إلا الكاملون في معرفة البرهم (الله سبحانه) فإنهم أحياء بحياة الأبد آمنون من التولد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ .

٧ ـ الوثنية البوذية :

وقد أُصلحت الوثنية البرهمية[2] بالبوذية منسوبة إلى بوذا «سقياموني» المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين قبل المسيح على ما نقل عن التاريخ السيلاني وقيل غير ذلك حتى إن الاختلاف في ذلك ينسحب إلى ألفي سنة ولذلك ربما ظن أنه شخص خرافي لا حقيقة له لكن الحفريات الأخيرة التي وقعت في غايا الحديثة وآثاراً أُخرى في بطنة دلت على صحة وجوده ، وقد انكشفت بها آثار أُخرى من تاريخ حياته وتعاليمه التي ألقاها إلى تلامذته وأتباعه .

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

(٢) ملخص ما في دائرة المعارف للبستاني .

وكان بوذا من بيت الملك ابن ملك يدعى «سودودانا» فعزفت نفسه الدنيا وشهواتها واعتزل الناس في شبابه ولبث في بعض الغابات الموحشة سنين من عمره مكباً على التزهد والارتياض حتى تنورت نفسه بالمعرفة فخرج إلى الناس وهو ابن ست وثلاثين سنة على ما قيل فدعاهم إلى التخلص عن الشقاء والآلام والفوز بالراحة الكبرى والحياة السماوية الأبدية السرمدية ، ووعظهم وحثهم على التمسك بذيل شريعته بالتخلق بالأخلاق الكريمة ورفض الشهوات واجتناب الرذائل .

وكان بوذا ـ على ما نقل ـ يقول عن نفسه من دون كبرياء برهمية : «أنا[1] متسول ، ولا توجد إلا شريعة واحدة للجميع وهي العقاب الشديد للمجرمين والثواب العظيم للصالحين ، وشريعتي شريعة نعمة للجميع ، وفيها كالسماء مكان للرجال والنساء والصبيان والبنات والأغنياء والفقراء على أنه يعسر على الغني أن يسلك طريقها» .

وكان تعليمه على ما عند البوذيين : أن الطبيعة ذات فراغ وأنها وهمية خداعة وأن العدم يوجد في كل مكان وكل زمان ، وهو مملوء من الغش ، ونفس هذا العدم يزيل كل الحواجز بين أصناف الناس وجنسياتهم وأحوالهم الدنيوية ، ويجعل أحقر الديدان إخوة للبوذيين .

وهم يعتقدون أن آخر عبارة نطق بها سقياموني هي «كل مركب فان» والغاية القصوى عندهم هي نجاة النفس من كل ألم وغرور ، وأن دور التناسخ الذي لا نهاية له ينتهي أو ينقطع بمنع النفس أن تولد ثانية ، ويتوصل إلى ذلك بتطهيرها حتى من رغبة الوجود .

فهذه القواعد الأساسية للبوذية موجودة صريحاً في أقدم تعليمها المدرج في «الأرياني ستيانس» وهي أربع حقائق سامية تنسب إلى سقياموني ذكرها في عظته الأولى التي قام بها في غابة تعرف بغابة الغزال بالقرب من بنارس .

وتلك الحقائق الأربع تتعلق بالألم وأصله وملاشاته وبالطريقة المؤدية إلى

---

(١) أي تصييني التسويلات والوساوس النفسانية وفي كلامه هذا نسخ لحكم الطبقات في الشريعة البرهمية القاضي بتفاوت الناس في التشرف بالسعادة الدينية وتحريم بعضهم كالنساء والصبيان منها .

الملاشاة فالألم هو الولادة والسن والمرض والموت ومصادفة المكروه ومفارقة المحبوب والعجز عما يرام ، وأسباب الألم الشهوات النفسانية والجسدية والأهواء ، وملاشاة جميع هذه الأسباب هي الحقيقة الثالثة ، ولطريقة الملاشاة أيضاً ثمانية أقسام وهي : نظر صحيح وحس صحيح ، ونطق صحيح ، وفعل صحيح ، ومركز صحيح ، وجد صحيح ، وذكر صحيح ، وتأمل صحيح ، فهذه صورة الإيمان عندهم وقد وجدت محفورة على أبنية كثيرة ومدوّنة في عدة كتب .

وأما خلاصة الأدب البوذي فهي اجتناب كل شيء ردي ، وعمل كل شيء صالح وتهذيب العقل .

فهذا هو الذي سلموه من تعليم بوذا ، وما عداه من العبادات والذبائح والكهنوت والفلسفة والأسرار أمور أضيفت إليه بكرور الأيام ومرور الدهور ، وهي تشتمل على أقاويل وآراء عجيبة في خلق العالم ونظمه وغير ذلك .

ومما يُقال إن بوذا لم يتكلم عن الإله قط ، غير أن ذلك لم يكن لإعراض منه عن مبدأ الوجود ولا لإنكار بل لأن الرجل كان يبذل كل جهده في تجهيز الناس بالزهد عن زهرة الحياة الدنيا وتنفيرهم عن هذه الدار الغارة .

٨ ـ **وثنية العرب** : وهم أول من عارضهم الإسلام بالدعوة إلى التوحيد من عبدة الأوثان ، كان معظم العرب في عهد الجاهلية بدويين وأهل الحضارة منهم كاليمن في طبع البداوة يحكم فيهم من السنن والآداب رسوم مختلطة مختلفة مأخوذة من جيرانهم الأقوياء كالفرس والروم ومصر والحبشة والهند ، ومنها السنن الدينية .

وكان أسلافهم الأقدمون وهم العرب العاربة ومنهم عاد إرم وثمود على دين الوثنية كما يحكيه الله سبحانه في كتابه عن قوم هود وصالح وعن أصحاب مدين وعن أهل سبأ في قصة سليمان والهدهد ، حتى أن جاء إبراهيم ﵇ بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة وهي واد غير ذي زرع وبها قبيلة جرهم ، وأسكنهما هناك فنشأ إسماعيل ﵇ وبنيت بلدة مكة ، وبنى إبراهيم ﵇ الكعبة البيت الحرام ودعا الناس إلى دينه الحنيف وهو الإسلام فاستجيب له في الحجاز وما والاها وشرع لهم الحج كما يدل على جملة ذلك قول الله تعالى له فيما

يحكيه القرآن : ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[١] .

ثم تهود بعض الأعراب لمعاشرة كانت بينهم وبين اليهود النازلين بالحجاز ، وتسربت النصرانية إلى بعض أقطار الجزيرة ، والمجوسية إلى بعضها الآخر .

ثم وقعت وقائع بين آل إسماعيل وجرهم بمكة حتى آل إلى غلبة آل إسماعيل وإجلاء جرهم منها واستولى عمرو بن لحيّ على مكة وما والاها .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقيل له : إن البلقاء من أرض الشام حمة لو استحممت بها برئت فقصدها واستحم بها فبرىء ، ورأى هناك قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من أصنامهم فدفعوا إليه هبل فرجع إلى مكة ووضعه على الكعبة ، وكان معه إساف ونائلة وهما صنمان على شكل زوجين ـ كما في الملل والنحل ـ أو شابين ـ كما في غيره ـ فدعا الناس إلى عبادة الأصنام وروج ذلك بين قومه فعادوا يعبدونها بعد إسلامهم وقد كانوا يسمون حنفاء لاتباعهم ملّة إبراهيم عليه السلام فبقي عليهم الاسم وهجرهم المعنى وصار الحنفاء اسماً للوثنيين[٢] منهم .

وكان مما يقربهم إلى الوثنية أن الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنية جميعاً فكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه شيئاً من حجارة الحرم تبركاً وصبابة ، وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به تيمناً وحباً للكعبة والحرم .

وعن هذه الأسباب شاعت الوثنية بين العرب عاربهم ومستعربهم ولم يبق من أهل التوحيد بينهم إلا آحاد لا يذكرون ، وكان من الأصنام المعروفة بينهم هبل وإساف ونائلة ، وهي التي أتى بها عمرو بن لحي ودعا إليها الناس ، واللات والعزى ومناة وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وقد ذكرت هذه الثمان في القرآن ونسبت الخمس الأواخر منها إلى قوم نوح .

---

(١) الحج : ٢٧ .

(٢) ولعل هذا هو الوجه في إصرار القرآن على توصيف إبراهيم بالحنيف والإسلام بالحنيفية .

وروى في الكافي بإسناده إلى عبد الرحمان بن الأشل بياع الأنماط عن الصادق عليه السلام أن يغوث كان موضوعاً قبالة باب الكعبة ، وكان يعوق عن يمين الكعبة ونسر عن يسارها .

وفي الرواية أيضاً أن هبل كان على سطح الكعبة وإساف ونائلة على الصفا والمروة .

وفي تفسير القمي قال : كانت ود لكلب ، وكانت سواع لهذيل ويغوث لمراد ، وكانت يعوق لهمدان ، وكانت نسر لحصين .

وكانت في الوثنية التي عندهم آثار من وثنية الصابئة كالغسل من الجنابة وغيره .

وفيها آثار من البرهمية كالقول بالأنواء والقول بالدهر كما تقدم عن وثنية بوذه قال تعالى : ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾[1] وإن ذكر بعضهم أنه قول الماديين المنكرين لوجود الصانع .

وفيها شيء من الدين الحنيف وهو إسلام إبراهيم عليه السلام كالختنة والحج إلا أنهم خلطوه بسنن وثنية كالتمسح بالأصنام التي حول الكعبة والطواف عرياناً ، والتلبية بقولهم : لبّيك لبّيك اللهم لبّيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وعندهم أمور أُخر اختلقوها من عند أنفسهم كالقول بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام والقول بالصدى والهام والأنصاب والأزلام وأمور أخر مذكورة في التواريخ وقد تقدم تفسير البحيرة والسائبة والوصيلة والحام في سورة المائدة في ذيل آية ١٠٣ وكذا ذكر الأزلام والأنصاب في ذيل آية ٣ وآية ٩٠ .

٩ ـ دفاع الإسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية : لم تزل الدعوة الإلهية تخاصم الوثنية وتقاومه وتندب إلى التوحيد كما ذكره الله في كتابه فيما يقصه من دعوة الأنبياء والرسل كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام ، وأشير إلى ذلك في قصص عيسى ولوط ويونس عليهم السلام .

وقد أُجمل القول في ذلك في قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من

---

(١) الجاثية : ٢٤ .

رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[١] .

وقد بدأ النبي محمد ﷺ في دعوته العامة بدعاء الوثنيين من قومه إلى التوحيد بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن فلم يجيبوه إلا بالاستهزاء والأذى وفتنة من آمن به منهم وتعذيبه أشد العذاب حتى اضطر جمع من المسلمين إلى ترك مكة والهجرة إلى الحبشة ، ثم مكروا لقتله ﷺ فهاجر إلى المدينة ثم هاجر إليها بعده عدة من المؤمنين .

ولم يلبثوا حتى تعلقوا به بالقتال ، وقاتلوه ببدر وأُحد والخندق وفي غزوات أُخرى كثيرة حتى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكة فطهر ﷺ البيت والحرم من أوثانهم ، وكسر الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة ، وكان هبل منصوباً على سطح الكعبة فأصعد علياً عليه السلام إليه فرماه إلى الأرض وكان ـ على ما يقال ـ أعظم أصنامهم فدفن ـ على ما ذكروه ـ في عتبة باب المسجد .

والإسلام شديد العناية بحسم مادة الوثنية وتخلية القلوب عن الخواطر الداعية إليها وصرف النفوس حتى عن الحومان حولها والإشراف عليها ، وذلك مشهود مما ندب إليه من المعارف الأصلية والأخلاق الكريمة والأحكام الشرعية فتراه بعد الاعتقاد الحق أنه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى يملك كل شيء ، له الوجود الأصيل الذي يستقل بذاته وهو الغني عن العالمين ، وكل ما هو غيره منه يبتدىء وإليه يعود ، وإليه يفتقر في جميع شؤون ذاته حدوثاً وبقاء فمن أسند إلى شيء شيئاً من الاستقلال بالقياس إليه تعالى ـ لا بالقياس إلى غيره ـ في شيء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهو مشرك بحسبه .

وتراه يأمر بالتوكل على الله ، والثقة بالله ، والدخول تحت ولاية الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وإخلاص العمل لله ، وينهى عن الاعتماد بغير الله ، والركون إلى غيره ، والاطمئنان إلى الأسباب الظاهرة ورجاء من دونه ، والعجب والكبر إلى غير ذلك مما يوجب إعطاء الاستقلال لغيره والشرك به .

وتراه ينهى عن السجدة لغيره تعالى ، وينهى عن اتخاذ التماثيل ذوات الأظلال وعن تصوير ذوي الأرواح ، وينهى عن طاعة غير الله والإصغاء إليه فيما

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

يأمر وينهى إلا ما رجع إلى طاعة الله كطاعة الأنبياء وأئمة الدين ، وينهى عن البدعة واتباعها وعن اتباع خطوات الشيطان .

والأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام متظافرة في أن الشرك ينقسم إلى جلي وخفي ، وأن الشرك ذو مراتب كثيرة لا يسلم من جميعها إلا المخلصون ، وأنه أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وقد روى في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[١] ، القلب السليم الذي يلقى ربه ليس فيه أحد سواه . قال : وكل قلب فيه شرك أو شكٌّ فهو ساقط وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة .

وورد أيضاً أن عبادته تعالى طمعاً في الجنة عبادة الأجراء ، وعبادته خوفاً من النار عبادة العبيد ، وحق العبادة أن يعبد تعالى حباً له وتلك عبادة الكرام ، وهذا مقام مكنون لا يمسه إلا المطهرون وقد تقدمت عدة من هذه الروايات في بعض الأبحاث السابقة من الكتاب .

١٠ ـ **بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء** : أجمل تعالى سيرته صلى الله عليه وآله وسلم التي أمره باتخاذها والسير بها في المجتمع البشري في قوله : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[٢] ، وقال تعالى يشير إلى ما داخل دينهم من عقائد الوثنية : ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾[٣] .

وقال أيضاً يذم أهل الكتاب : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[٤] .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد سوى بين الناس في إجراء الأحكام والحدود وقارب بين

---

(١) الشعراء : ٨٩ .
(٢) آل عمران : ٦٤ .
(٣) المائدة : ٧٧ .
(٤) التوبة : ٣١ .

طبقات المجتمع كالحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرؤوس ، والخادم والمخدوم ، والغني والفقير ، والرجل والمرأة ، والشريف والوضيع فلا كرامة ولا فخر ولا تحكم لأحد على أحد إلا كرامة التقوى والحساب إلى الله والحكم إليه .

وكان ﷺ يقسم بالسوية ، وينهى عن تظاهر القوي بقوته بما يتأثر وينكسر به قلب الضعيف المهين كتظاهر الأغنياء بزينتهم على الفقير المسكين ، والحكام والرؤساء بشوكتهم على الرّعية .

وكان ﷺ يعيش كأحد من الناس لا يمتاز منهم في مأكل أو مشرب أو ملبس أو مجلس أو مشيئة أو غير ذلك ، وقد تقدم جوامع سيرته في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب .

(كلام آخر ملحق بالكلام السابق)

نزل فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه إلى تعاليم ويدا ، وأوستا ، والتوراة ، والإنجيل على نحو الإجمال والكلية في فصول وهذا بحث تحليلي شريف .

١ ـ التناسخ عند الوثنيين :

من الأصول الأولية التي تبتني عليها البرهمية ومثلها البوذية والصابئية هو التناسخ وهو أن العالم محكوم بالكون والفساد دائماً فهذا العالم المشهود لنا وكذا ما فيه من الأجزاء مكوّن عن عالم مثله سابق عليه وهكذا إلى غير النهاية ، وسيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاؤه ويتكوّن منه عالم آخر وهكذا إلى غير النهاية ، والإنسان يعيش في كل من هذه العوالم على ما اكتسبه في عالم يسبقه فمن عمل صالحاً واكتسب ملكة حسنة فستتعلق نفسه بعد مفارقة البدن بالموت ببدن سعيد ويعيش على السعادة ، وهو ثوابه ، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فسوف يعيش بعد الموت في بدن شقي ويقاسي فيه أنواع العذاب إلا من عرف البرهم واتحد به فإنه ينجو من الولادة الثانية ويعود ذاتاً أزلية أبدية هي عين البهاء والسرور والحياة والقدرة والعلم لا سبيل للفناء والبطلان إليها .

ولذلك كان من الواجب الديني على الإنسان أن يؤمن بالبرهم (وهو الله

أصل كل شيء) ويتقرب إليه بالقرابين والعبادات ، ويتحلى بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة فإن عزفت نفسه الدنيا وتخلق بكرائم الأخلاق وتحلى بصوالح الأعمال وعرف البرهم بمعرفة نفسه صار برهمنا واتحد بالبرهم وصار هو هو ، وهو السعادة الكبرى والحياة البحتة ، وإلا فليؤمن بالبرهم وليعمل صالحاً حتى يسعد في حياته التالية وهي آخرته

لكن البرهم لما كان ذاتاً مطلقة محيطاً بكل شيء غير محاط لشيء كان أعلى وأجل من أن يعرفه الإنسان إلا بنوع من نفي النقائص أو يناله بعبادة أو قربان فمن الواجب علينا أن نتقرب بالعبادة إلى أوليائه وأقوياء خلقه حتى يكونوا شفعاء لنا عنده ، وهؤلاء هم الآلهة الذين يعبدون من دون الله بعبادة أصنامهم ، وهم على كثرتهم إما من الملائكة أو من الجن أو من أرواح المكملين من البراهمة ، وإنما يعبد الجن خوفاً من شرهم ، وغيرهم طمعاً في رحمتهم وخوفاً من سخطهم ومنهم الأزواج والبنون والبنات لله تعالى .

فهذه جمل ما تتضمنه البرهمية ويعلمه علماء المذهب من البراهمة .

لكن الذي يتحصل من «أُوبانيشاد»[1] وهو القسم الرابع من كتاب «ويدا» المقدس ربما لم يوافق ما تقدم من كليات عقائدهم وإن أوله علماء المذهب من البراهمة .

فإن الباحث الناقد يجد أن رسائل «أُوبانيشاد» المعلمة للمعارف الإلهية وإن كانت تصف العالم الألوهي والشؤون المتعلقة به من الأسماء والصفات والأفعال من إبداء وإعادة وخلق ورزق وإحياء وإماتة وغير ذلك بما يوصف به الأمور الجسمانية المادية كالانقسام والتبعض والسكون والحركة والانتقال والحلول والاتحاد والعظم والصغر وسائر الأحوال الجسمانية المادية إلا أنها تصرّح في مواضع منها أن برهم[2] ذات مطلقة متعالية من أن يحيط به حدّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا من حياة وعلم وقدرة ، منزّه عن نعوت النقص وأعراض

---

(١) أوبانيشاد كالخاتمة لكتب «ويدا» المقدسة وهي رسائل متفرقة مأثورة من كبار رجال الدين من عرفائهم القدماء الأقدمين تحتوي جمل ما حصلوه من المعارف الإلهية بالكشف ويعتبرها البراهمة وحياً سماوياً .

(٢) هذا كثير الورود يعثر عليه الراجع في أغلب فصول أوبانيشاد .

المادة والجسم ليس كمثله شيء .

وتصرّح[١] بأنه تعالى أحديّ الذات لم يولد من شيء ولم يلد شيئاً وليس له كفو ومثل البتة .

وتصرّح[٢] بأن الحق أن لا يعبد غيره تعالى ولا يتقرّب إلى غيره بقربان بل الحري بالعبادة هو وحده لا شريك له .

وتصرّح[٣] كثيراً بالقيامة وأنه الأجل الذي ينتهي إليه الخلقة ، وتصف ثواب الأعمال وعقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعين حمله على التناسخ .

ولا خبر في هذه الأبحاث الإلهية الموردة فيها عن الأوثان والأصنام وتوجيه العبادات وتقديم القرابين إليها .

وهذه التي نقلناها من «أوبانيشاد» ـ وما تركناه أكثر ـ حقائق سامية ومعارف حقة تطمئن إليها الفطرة الإنسانية السليمة ، وهي ـ كما ترى ـ تنفي جميع أصول الوثنية الموردة في أول البحث .

والذي يهدي إليه عميق النظر أنها كانت حقائق عالية كشفها آحاد من أهل ولاية الله ثم أخبروا بما وجدوا بعض تلامذتهم الآخذين منهم غير أنهم تكلموا غالباً بالرمز واستعملوا في تعاليمهم الأمثال .

ثم جعل ما أُخذ من هؤلاء أساساً تبتني عليه سنة الحياة التي هي الدين المجتمع عليه عامة الناس ، وهي معارف دقيقة لا يحتملها إلا الآحاد من أهل المعرفة لارتفاع سطحها عن الحس والخيال اللذين هما حظ العامة من الإدراك وكمال صعوبة إدراكها على العقول الراجلة غير المتدربة في المعارف الحقة .

واختصاص نيلها بالأقلين من الناس وحرمان الأكثرين من ذلك وهي دين

---

(١) «لم يولد منه شيء ولم يتولد من شيء وليس له كفؤاً أحد» أوبانيشاد (شيت استر) ادهيا السادس آية ٨ (السر الأكبر) .

(٢) قال شيت استر : «اعمل الصالحات لتلك الذات النورانية إلى أي ملك أقدم القربان وأترك تلك الذات الظاهرة ؟» أوبانيشاد شيت استر . أدهيا الرابع آية ١٣ .

(٣) وهذا كثير الورود في فصول أوبانيشاد يعثر عليه المراجع .

إنساني أول المحذور فإن الفطرة أنشأت العالم الإنساني مغروزة على الاجتماع المدني ، وانفصال بعضهم عن بعض في سنة الحياة وهي الدين إلغاء لسنة الفطرة وطريقة الخلقة .

على أن في ذلك تركاً لطريق العقل وهو أحد الطرق الثلاث : الوحي والكشف والعقل ، وأعمها وأهمها بالنظر إلى حياة الإنسان الدنيوية فالوحي لا يناله إلا أهل العصمة من الأنبياء المكرمين ، والكشف لا يكرم به إلا الآحاد من أهل الإخلاص واليقين ، والناس حتى أهل الوحي والكشف في حاجة مبرمة إلى تعاطي الحجة العقلية في جميع شؤون الحياة الدنيوية ولا غنى لها عن ذلك ، وفي إهمال هذا الطريق تسليط التقليد الإجباري على جميع شؤون المجتمع الحيوية من اعتقادات وأخلاق وأعمال ، وفي ذلك سقوط الإنسانية .

على أن في ذلك إنفاذاً لسنّة الاستعباد في المجتمع الإنساني ويشهد بذلك التجارب التاريخي المديد في الأمم البشرية التي عاشت في دين الوثنية أو جرت فيهم سنن الاستعباد باتخاذ أرباب من دون الله .

٢ ـ سريان هذه المحاذير إلى سائر الأديان :

الأديان العامة الأخر على ما فيها من القول بتوحيد الألوهية لم تسلم من شرك العبادة فساقهم ذلك إلى الابتلاء بعين ما ابتليت به الوثنية البرهمية من المحاذير التي أهمها الثلاثة المتقدمة .

أما البوذية والصابئة فذلك فيهم ظاهر والتاريخ يشهد بذلك ، وقد تقدَّم شيء مما يتعلق بعقائدهم وأعمالهم .

وأما المجوس فهم يوحّدون «أهورا مزدا» بالألوهية لكنهم يخضعون بالتقديس ليزدان وأهريمن والملائكة الموكلين بشؤون الربوبية وللشمس والنار وغير ذلك ، والتاريخ يقصّ ما كانت تجري فيهم من سنّة الاستعباد واختلاف الطبقات والتدبّر والاعتبار يقضي أنه إنما تسرّب ذلك كله إليهم من ناحية تحريف الدين الأصيل ، وقد ورد عن النبي ﷺ فيهم : ﴿أنه كان لهم نبيّ فقتلوه وكتاب فأحرقوه﴾ .

وأما اليهود فالقرآن يقصّ كثيراً من أعمالهم وتحريفهم كتاب الله واتخاذهم

العلماء أرباباً من دون الله ، وما ابتلاهم الله به من انتكاس الفطرة ورداءة السليقة .

وأما النصارى فقد فصّلنا القول فيما انحرفوا فيه من النظر والعمل في الجزء الثالث من الكتاب فراجع وإن شئت فطبِّق مفتتح إنجيل يوحنا ورسائل بولس على سائر الأناجيل وتممه بمراجعة تاريخ الكنيسة فالكلام في ذلك طويل .

فالبحث العميق في ذلك كله ينتج أن المصائب العامة في المجتمعات الدينية في العالم الإنسانيِّ من مواريث الوثنية الأولى التي أخذت المعارف الإلهية والحقائق العالية الحقّة مكشوفة القناع مهتوكة الستر فجعلتها أساس السنن الدينية ، وحملتها على الأفهام العامة التي لا تأنس إلا بالحسّ والمحسوس فأنتج ذلك ما أنتج .

٣ ـ إصلاح الإسلام لهذه المفاسد :

أما الإسلام فإنه أصلح هذه المفاسد إذ قلب هذه المعارف العالية في قالب البيان الساذج الذي يصلح لهضم الأفهام الساذجة والعقول العادية فصارت تلامسها من وراء حجاب وتتناولها ملفوفة محفوفة ، وهذا هو الذي يصلح به حال العامة وأما الخاصة فإنهم ينالونها مسفرة مكشوفة في جمالها الرائع وحسنها البديع آمنين مطمئنين وهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، قال الله تعالى : ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم﴾[1] ، وقال : ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهّرون﴾[2] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» .

وعالج غائلة الشرك والوثنية في مرحلة التوحيد بنفي الاستقلال في الذات والصفات عن كل شيء إلا الله سبحانه فهو تعالى القيوم على كل شيء، وركّز الأفهام في معرفة الألوهية بين التشبيه والتنزيه فوصفه تعالى بأن له حياة لكن لا كحياتنا ، وعلماً لا كعلمنا ، وقدرة لا كقدرتنا وسمعاً لا كسمعنا ، وبصراً لا

---

(١) الزخرف : ٤ .　　(٢) الواقعة : ٧٩ .

كبصرنا ، وبالجملة ليس كمثله شيء وأنه أكبر من أن يوصف ، وأمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولاً إلا عن علم ، ولا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجة عقلية تهضمها عقولهم وأفهامهم .

فوفق بذلك أولاً لعرض الدين على العامة والخاصة شرعاً سواء ، وثانياً أن استعمل العقل السليم من غير أن يترك هذه الموهبة الإلهية سدى لا ينتفع بها ، وثالثاً أن قرّب بين الطبقات المختلفة في المجتمع الإنساني غاية ما يمكن فيها من التقريب من غير أن ينعم على هذا ويحرم ذاك أو يقدّم واحداً ويؤخر آخر قال تعالى : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[1] وقال : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2] .

وهذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول في أطرافه في أبحاث متفرقة تقدمت في هذا الكتاب والله المستعان .

٤ ـ ربما يظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبي وآله المعصومين صلوات الله عليهم ومسألته تعالى بحقهم وزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم وتعظيم آثارهم من الشرك المنهي عنه وهو الشرك الوثني محتجاً بأن هذا النوع من التوجه العبادي فيه إعطاء تأثير ربوبي لغيره تعالى وهو شرك وأصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم : إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله . وقولهم : إنما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى، ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبياً أو ولياً أو جباراً من الجبابرة أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهي عنه .

وقد فاتهم **أولاً** : أن ثبوت التأثير سواء كان مادياً أو غير مادي في غيره تعالى ضروري لا سبيل إلى إنكاره ، وقد أسند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره ، ونفي التأثير عن غيره تعالى مطلقاً يستلزم إبطال قانون العلية والمعلولية العام الذي هو الركن في جميع أدلة التوحيد، وفيه هدم بنيان التوحيد. نعم المنفي من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير ولا كلام لأحد

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .　　(٢) الحجرات : ١٣ .

فيه ، وأما نفي مطلق التأثير ففيه إنكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية .

ومن يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾(١) وقوله : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾(٢) .

أو يسأل الله بجاههم ويقسمه بحقهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقاً : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾(٣) وقوله : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾(٤) .

أو يعظمهم ويظهر حبهم بزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم بما أنهم آيات الله وشعائره تمسكاً بمثل قوله تعالى : ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾(٥) ، وآية القربى وغير ذلك من كتاب وسنّة .

فهو في جميع ذلك يبتغي بهم إلى الله الوسيلة وقد قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾(٦) فشرع به ابتغاء الوسيلة ، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل إليه ، ولا معنى لإيجاب حب شيء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم وتعظيم أمرهم وما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير والعبادة البتة .

وثانياً : أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله ، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم إليه ففي الصورة الأولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادة لغيره تعالى وهو الشرك في العبودية والعبادة ، وفي الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى ويختص العبادة به وحده لا شريك له .

وإنما ذم تعالى المشركين لقولهم : ﴿إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى﴾ حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه ، ولو قالوا : إنما نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه بإذنه أو

---

(١) الزخرف : ٨٦ .
(٢) الأنبياء : ٢٨ .
(٣) الصافات : ١٧٣ .
(٤) غافر : ٥١ .
(٥) الحج : ٣٢ .
(٦) المائدة : ٣٥ .

نتوسل إلى الله بتعظيم شعائره وحب أوليائه ، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الإسلام هي وجهة وليست بمعبودة ، وإنما يعبد بالتوجه إليها الله .

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الأسود وما شرع في الإسلام من استلامه وتقبيله ؟ وكذا في الكعبة ؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة ؟ فالحكم حكم ضروري عقلي لا يقبل تخصصاً ولا استثناء ، أو أن ذلك من عبادة الله محضاً وللحجر حكم الطريق والجهة ، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة ، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحبه ومودّته وحب أهل بيته ومودّتهم وغير ذلك في محلها .

* * *

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيَ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

(بيـــان)

تذكر الآيات قصة هود النبي وقومه وهم عاد الأولى ، وهو عليه السلام أول نبي يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح عليه السلام ، ويشكر مسعاه في إقامة الدعوة الحقة والانتهاض على الوثنية ، ويعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود ، قال تعالى في عدة مواضع من كلامه : ﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ .

قوله تعالى : ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً**﴾ كان أخاهم في النسب لكونه منهم وأفراد القبيلة يسمون إخوة لانتسابهم جميعاً إلى أب القبيلة ، والجملة معطوفة على قوله تعالى سابقاً : ﴿نوحاً إلى قومه﴾ والتقدير : ﴿ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً﴾ ولعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل : ﴿وإلى عاد أخاهم﴾ الخ ، ولم يقل : وهوداً إلى عاد مثلاً كما قال : ﴿نوحاً إلى قومه﴾ لأن دلالة الظرف أعني : ﴿إلى عاد﴾ على تقدير الإرسال أظهر وأوضح .

قوله تعالى : ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون**﴾ الكلام وارد مورد الجواب كأن السامع لما سمع قوله : ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ قال : فماذا قال لهم ؟ فقيل : ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ الخ ، ولذا جيء بالفصل من غير عطف .

وقوله : ﴿اعبدوا الله﴾ في مقام الحصر أي اعبدوه ولا تعبدوا غيره من آلهة اتخذتموها أرباباً من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى : والدليل على الحصر المذكور قوله بعد : ﴿ما لكم من إله غيره

إن أنتم إلا مفترون﴾ حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهة يعبدونها افتراء على الله بالشركة والشفاعة .

قوله تعالى : ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ إلى آخر الآية ، قال في المجمع الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر ، ومنه فطر الله الخلق لأنه بمنزلة ما شق منه فظهر . انتهى ، وقال الراغب : أصل الفطر الشق طولاً يقال : فطر فلان كذا فطراً وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً ـ إلى أن قال ـ وفطر الله الخلق وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله : فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته ، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله . انتهى .

والظاهر أن الفطر هو الإيجاد عن عدم بحت ، والخصوصية المفهومة من مثل قوله : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ إنما نشأت من بناء النوع الذي تشتمل عليه فطرة وهي فعلة ، وعلى هذا فتفسير بعضهم الفطرة بالخلقة بعيد من الصواب ، وإنما الخلق هو إيجاد الصورة عن مادة على طريق جمع الأجزاء ، قال تعالى : ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾[1] .

والكلام مسوق لرفع التهمة والعبث والمعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً وجزاء حتى تتهموني أني أستدر به نفعاً يعود إليَّ وإن أضرّ بكم ، ولست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثاً من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذي أوجدني وأبدعني أفلا تعقلون عني ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أني ناصح لكم في دعوتي ، ما اريد إلا أن أحملكم على الحق .

قوله تعالى : ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ إلى آخر الآية تقدم الكلام في معنى قوله : ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ في صدر السورة .

وقوله : ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ في موقع الجزاء لقوله : ﴿استغفروا ربكم﴾ الخ ، أي إن تستغفروه وتتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، والمراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا وأظلّ فهو سماء ، وقيل المطر

---

(١) المائدة : ١١٠ .

وهو شائع في الاستعمال ، والمدرار مبالغة من الدرّ ، وأصل الدَّر اللبن ثم استعير للمطر ولكل فائدة ونفع فإرسال السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعة نافعة تحيي بها الأرض وينبت الزرع والعشب ، وتنضر بها الجنات والبساتين .

وقوله : **﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾** قيل المراد بها زيادة قوة الإيمان على قوة الأبدان وقد كان القوم أولي قوة وشدة في أبدانهم ولو أنهم آمنوا انضافت قوة الإيمان على قوة أبدانهم ، وقيل المراد بها قوة الأبدان كما قال نوح لقومه : ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين﴾[١] ولعل التعميم أولى .

وقوله : **﴿ولا تتولوا مجرمين﴾** بمنزلة التفسير لقوله : ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهة دون الله إجرام منكم ومعصية توجب نزول السخط الإلهي عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم وارجعوا إليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطلة ممطرة وزيادة قوة إلى قوتكم .

وفي الآية **«أولاً»** إشعار أو دلالة على أنهم كانوا مبتلين بإمساك السماء والجدب والسنة كما ربما أومأ إليه قوله : ﴿يرسل السماء﴾ وكذا قولهم على ما حكاه الله تعالى في موضع آخر : ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾[٢] .

وثانياً : أن هناك ارتباطاً تاماً بين الأعمال الإنسانية وبين الحوادث الكونية التي تمسه فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات ، والأعمال الطالحة تستدعي تتابع البلايا والمحن ، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٣] الآية ، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه في بيان الآيات ٩٤ ـ ١٠٢ من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب ، وفي أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾ سألهم هود في قوله : ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

---

(١) نوح : ١٢ .   (٢) الأحقاف : ٢٤ .   (٣) الأعراف : ٩٦ .

غيره﴾ إلى آخر الآيات الثلاث أمرين هما أن يتركوا آلهتهم ويعودوا إلى عبادة الله وحده وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم فردّوا عليه القول بما في هذه الآية إجمالاً وتفصيلاً :

أما إجمالاً فبقولهم : ﴿ما جئتنا ببينة﴾ يعنون أن دعوتك خالية عن الحجة والآية المعجزة ولا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه .

وأما تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إياهم إلى رفض الشركاء بقولهم : ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ وعن دعوته إياهم إلى الإيمان والطاعة بقولهم : ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ فآيسوه في كلتا المسألتين .

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي لييأس من إجابتهم بالمرة فقالوا : ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ والاعتراء الاعتراض والإصابة يقولون : إنما نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل والجنون لشتمك إياها وذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوهت به في صورة الدعوة .

قوله تعالى : ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ أجاب هود عليه السلام عن قولهم بإظهار البراءة من شركائهم من دون الله ثم التحدي عليهم بأن يكيدوا به جميعاً ولا ينظروه .

فقوله : ﴿إني بريء مما تشركون من دونه﴾ إنشاء وليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبري ، ولا ينافي ذلك كونه بريئاً من أول أمره فإن التبرز بالبراءة لا ينافي تحققها من قبل ، وقوله : ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ أمر ونهي تعجيزيان .

وإنما أجاب عليه السلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه عليه السلام بسوء مع تبرّزه بالبراءة ، ولو كانت آلهة ذات علم وقدرة لقهرته وانتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء وهذه حجة بينة على أنها ليست بآلهة وعلى أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه ، ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل أو تنكيل مع كونهم ذوي شدة وقوة لا يعادلهم غيرهم في الشدة والبطش ، ولولا أنه نبي من عند الله صادق في ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب أو دفع .

ومن هنا يظهر وجه إشهاده عليه السلام في تبريه ربه سبحانه وقومه أما إشهاده الله

فليكون تبريه على حقيقته وعن ظهر القلب من غير تزويق ونفاق ، وأما إشهاده إياهم فليعلموا به ثم يشاهدوا ما يجري عليه الأمر من سكوت آلهتهم وعجز أنفسهم من الانتقام منه ومن تنكيله .

وظهر أيضاً صحّة ما احتمله بعضهم أن هذا التعجيز هو معجزة هود عليه السلام ذلك أن ظاهر الجواب أن يقطع به ما ذكر من الرّد في صورة الحجة ، وفيها قولهم : ﴿ما جئتنا ببيّنة﴾ ومن المستبعد جداً أن يهمل النبي هود عليه السلام في دعوته وحجته التعرض للجواب عنه مع كون هذا التحدي والتعجيز صالحاً في نفسه لأن يتخذ آية معجزة كما أن التبري من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهة من دون الله وعن أن بعض آلهتهم لم يعتره بسوء .

فالحق أن قوله : ﴿إني أشهد الله واشهدوا﴾ إلى آخر الآيتين مشتمل على حجة عقلية على بطلان الوهية الشركاء ، وعلى آية معجزة لصحة رسالة هود عليه السلام .

وفي قوله ﴿جميعاً﴾ إشارة إلى أن مراده تعجيزهم وتعجيز آلهتهم جميعاً فيكون أتم دلالة على كونه على الحق وكونهم على الباطل .

قوله تعالى : ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ إلى آخر الآية . لما كان الأمر الذي في صورة التعجيز صالحاً لأن يكون بداعي إظهار عجز الخصم وعدم قدرته ، وصالحاً لأن يصدر بداعي أن الآمر لا يخاف الخصم وإن كان الخصم قادراً على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويفه وإكراهه على الطاعة وحمله على ما يريد منه كقول السحرة لفرعون : ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾[1] .

وكان قوله : ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ محتملاً لأن يكون المراد به إظهار أنه لا يخافهم وإن فعلوا به ما فعلوا ، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله : ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبّر أمره وأمرهم ثم عقبه بقوله : ﴿ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعاً قاهر

---

(١) طه : ٧٢ .

لهم يحكم على سنّة واحدة هي نصرة الحق وإظهاره على الباطل إذا تقابلا وتغالبا .

فتبرّيه من أصنامهم وتعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله : ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ ثم لبثه بينهم في عافية وسلامة لا يمسونه بسوء ولا يستطيعون أن ينالوه بشر آية معجزة وحجة سماوية على أنه رسول الله إليهم .

وقوله : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ الدابة كل ما يدب في الأرض من أصناف الحيوان ، والأخذ بالناصية كناية عن كمال السلطة ونهاية القدرة ، وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليقة واحدة ثابتة غير متغيرة وهو تدبير الأمور على منهاج العدل والحكمة فهو يحق الحق ويبطل الباطل إذا تعارضا .

فالمعنى أني توكلت على الله ربي وربكم في نجاح حجتي التي ألقيتها إليكم وهو التبرز بالبراءة من آلهتكم وأنكم وآلهتكم لا تضرّونني شيئاً فإنه المالك ذو السلطنة علي وعليكم وعلي كل دابة ، وسنته العادلة ثابتة غير متغيرة فسوف ينصر دينه ويحفظني من شركم .

ولم يقل : ﴿إن ربي وربكم على صراط مستقيم﴾ على وزان قوله : ﴿على الله ربي وربكم﴾ فإنه في مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم ، وهو يأخذه تعالى رباً بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده رباً لنفسه ويستمسك برابطة العبودية التي بينه وبين ربه حتى ينجح طلبته ، وهذا بخلاف مقام قوله : ﴿توكلت على الله ربي وربكم﴾ فإنه يريد هناك بيان عموم السلطة والإحاطة .

قوله تعالى : ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم﴾ وهذه الجملة من كلامه ﷺ ناظر إلى قولهم في آخر جدالهم : ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به ويداثمون على الجحد ، والمعنى إن تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بي والإطاعة لأمري فقد أبلغتكم رسالة ربي وتمت عليكم الحجة ولزمتكم البلية .

قوله تعالى : ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ هذا وعيد وإخبار بالتبعة التي يستتبعها إجرامهم ، فإنه كان

وعدهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه أن يرسل السماء عليهم مدراراً ويزيد قوة إلى قوتهم ، ونهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد .

وقوله : ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ أي يجعل قوماً غيركم خلفاء في الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفة منه في الأرض كما قال تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[١] ، وقد كان ﷺ بيّن لهم أنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾ الآية[٢] .

وظاهر السياق أن الجملة الخبرية معطوفة على أُخرى مقدّرة ، والتقدير : وسيذهب بكم ربي ويستخلف قوماً غيركم على حد قوله : ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾[٣] .

وقوله : ﴿ولا تضرّونه شيئاً﴾ ظاهر السياق أنه تتمة لما قبله أي لا تقدرون على إضراره بشيء من الفوت وغيره إن أراد أن يهلككم ولا أن تعذيبكم وإهلاككم يفوت منه شيئاً مما يريده فإن ربي على كل شيء حفيظ لا يعزب عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت ؛ وللمفسرين في الآية وجوه أُخر بعيدة عن الصواب أعرضنا عنها .

قوله تعالى : **﴿ولما جاء أمرنا نجّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾** المراد بمجيء الأمر نزول العذاب وبوجه أدقّ صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول وبين قومه كما قال تعالى : ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾[٤] .

وقوله : ﴿برحمة منّا﴾ الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبة نصرهم في دينهم وإنجاءهم من شمول الغضب الإلهي وعذاب الاستئصال ، قال تعالى : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٥] .

وقوله : ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ ظاهر السياق أنه العذاب الذي

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) الأعراف: ٦٩ .
(٣) الأنعام : ١٣٣ .
(٤) غافر : ٧٨ .
(٥) غافر : ٥١ .

شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبة إلى ما قبله ، وقيل : المراد به عذاب الآخرة وليس بشيء .

قوله تعالى : ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ الآية وما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصة عاد فأول التلخيصين قوله : ﴿وتلك عاد﴾ إلى قوله ﴿ويوم القيامة﴾ يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة والموعظة والآية المعجزة التي أبانت لهم طريق الرشد وميّزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم .

وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود وعصوا بعصيانه سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر : ﴿كذَّبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾[1] . ويشعر به أيضاً قوله : ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾[2] ، ومن الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا إليهم فيما بين هود ونوح عليهما السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك .

واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود وما كان يدعو إليه ، والجبّار العظيم الذي يقهر الناس بإرادته ويكرههم على ما أراد والعنيد الكثير العناد الذي لا يقبل الحق ، فهذا ملخص حالهم وهو الجحد بالآيات وعصيان الرسل وطاعة الجبابرة .

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله : ﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ أي وأتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة وإبعاداً من الرحمة ، ومصداق هذا اللعن العذاب الذي عقبهم فلحق بهم ، أو الآثام والسيئات التي تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنّوا سنة الإشراك والكفر لمن بعدهم ، قال تعالى : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾[3] .

وقيل : المعنى لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم ، ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلّغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم .

---

(١) الشعراء : ١٢٤ .   (٢) الأحقاف : ٢١ .   (٣) يس : ١٢ .

وأما اللعنة يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذي يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير .

وفي تعقيب قوله في الآية : ﴿واتّبعوا﴾ بقوله : ﴿وأُتبعوا﴾ لطف ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض وهذا هو التلخيص الثاني الذي أشرنا إليه لخص به التلخيص الأول فقوله : ﴿ألا إن عاداً﴾ الخ ، يحاذى به وصف حالهم المذكور في قوله : ﴿وتلك عاد جحدوا﴾ وقوله : ﴿ألا بعداً لعاد﴾ الخ ، يحاذى به قوله : ﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ الخ .

ويتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنة السابقة اللعنة الإلهية دون لعن الناس ، والأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثة السابقة وخاصة الوجه الثاني دون الوجه الثالث .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن أبي عمرو السعدي قال : قال علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله : ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يعني أنه على حق يجزي بالإحسان إحساناً ، وبالسيء سيئاً ، ويعفو عمن يشاء ويغفر ، سبحانه وتعالى .

أقول : وقد تقدم توضيحه ، وقد ورد في الرواية عنهم عليهم السلام : أن عاداً كانت بلادهم في البادية ، وكان لهم زرع ونخيل كثيرة ، ولهم أعمار طويلة وأجساد طويلة فعبدوا الأصنام ، وبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا . الحديث .

وروي إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنّة عن الضحاك أيضاً قال : أُمسك عن عاد القطر ثلاث سنين فقال لهم هود : ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ فأبوا إلا تمادياً ، وقد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشارة إليه .

واعلم أن الروايات في قصة هود وعاد كثيرة إلا أنها تشتمل على أُمور لا

سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب ولا إلى تأييدها بالاعتبار ولذلك طوينا ذكرها .

وورد أيضاً أخبار أُخر من طرق الشيعة وأهل السنّة في وصف جنة عاد التي تنسب إلى شداد الملك وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[1] ، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الفجر .

(كلام في قصة هود)

١ ـ عاد قوم هود :

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمئن إليها وليس في التوراة الموجودة منهم ذكر .

والذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاداً ـ وربما يسميهم عاداً الأولى[2] وفيه إشارة إلى أن هناك عاداً ثانية ـ كانوا قوماً يسكنون الأحقاف[3] من شبه جزيرة العرب[4] بعد قوم نوح[5] .

كانت لهم أجساد طويلة[6] وكانوا ذوي بسطة في الخلق[7] أُولي قوة وبطش شديد[8] وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة ، لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم (الشعراء وغيرها) ، وناهيك في رقيّهم وعظيم مدنيتهم قوله تعالى في وصفهم : ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[9] .

---

(١) الفجر : ٨ .

(٢) النجم : ٥٠ .

(٣) الأحقاف جمع حقف وهو الرمل المعوج ، والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز واد بين عمان وأرض مهرة وقيل من عمان إلى حضرموت وهي رمال مشرفة على البحر بالشحر وقال الضحاك : الأحقاف جبل بالشام (المراصد) .

(٤) الأحقاف : ٢١ . (٦) القمر : ٢٠ ، الحاقة : ٧ . (٨) فصلت : ١٥ ، الشعراء : ١٣٠ .

(٥) الأعراف : ٦٩ . (٧) الأعراف : ٦٩ . (٩) الفجر : ٨ .

لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيّروا ما بأنفسهم فتعرّقت فيهم الوثنية وبنوا بكل ريع آية يعبثون واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون وأطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إلى أن يعبدوا الله ويرفضوا الأوثان ، ويعملوا بالعدل والرحمة[1] فبالغ في وعظهم وبثّ النصيحة فيهم ، وأنار الطريق وأوضح السبيل ، وقطع عليهم العذر فقابلوه بالإباء والامتناع ، وواجهوه بالجحد والإنكار ولم يؤمن به إلا شرذمة منهم قليلون وأصرّ جمهورهم على البغي والعناد ، ورموه بالسفه والجنون ، وألحوا عليه بأن ينزّل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعدهم به قال : إنما العلم عند الله وأبلّغكم ما أُرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون[2] .

فأنزل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم[3] ريحاً صرصراً في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[4] وكانت تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر[5] .

وكانوا بادىء ما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : عارض ممطرنا وقد أخطأوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم[6] فأهلكهم الله عن آخرهم وأنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه[7] .

٢ ـ شخصية هود المعنوية :

وأما هود عليه السلام فهو من قوم عاد وثاني الأنبياء الذين انتهضوا للدفاع عن الحق ودحض الوثنية ممن ذكر الله قصته وما قاساه من المحنة والأذى في جنب الله سبحانه ، وأثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام وأشركه بهم في جميل الذكر عليه سلام الله .

* * *

---

(١) الشعراء : ١٣٠ .
(٢) الأحقاف : ٢٣ .
(٣) الذاريات : ٤٢ .
(٤) الحاقة : ٧ .
(٥) القمر : ٢٠ .
(٦) الأحقاف : ٢٥ .
(٧) هود : ٥٨ .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هٰذَآ أَتَنْهَيٰنَآ أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ (٦٨) .

(بيان)

تذكر الأيات الكريمة قصة صالح النبي عليه السلام وقومه وهم ثمود ، وهو عليه السلام ثالث الأنبياء القائمين بدعوة التوحيد الناهضين على الوثنية . دعا ثمود إلى التوحيد وتحمّل الأذى والمحنة في جنب الله حتى قضى بينه وبين قومه بهلاكهم ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ تقدم الكلام في نظيرة الآية في قصة هود .

قوله تعالى : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ إلى آخر الآية . قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان قال : ﴿هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار﴾ . انتهى ، وقال : العمارة ضد الخراب يقال : عمر أرضه يعمرها عمارة قال : ﴿وعمارة المسجد الحرام﴾ يقال : عمرته فعمر فهو معمور قال : ﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾ ﴿والبيت المعمور﴾ وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوّضت إليه العمارة قال : ﴿واستعمركم فيها﴾ انتهى ، فالعمارة تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقّبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها .

وعلى ما مرّ يكون معنى قوله : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ـ والكلام يفيد الحصر ـ أنه تعالى هو الذي أوجد على الموادّ الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثم كمّلها بالتربية شيئاً فشيئاً وأفطره على أن يتصرف في الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها في حياته ، ويرفع بها ما يتنبّه له من الحاجة والنقيصة أي إنكم لا تفتقرون في وجودكم وبقائكم إلا إليه تعالى وتقدّس .

فقول صالح : ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ في مقام التعليل وحجة يستدل بها على ما ألقاه إليهم من الدعوة بقوله : ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ولذلك جيء بالفصل كأنه قيل له : لم نعبده وحده ؟ فقال : لأنه هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها .

وذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان ويتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون ـ على مزعمتهم ـ إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم وأرفع وأبعد من أن تناله عبادة أو ترتفع إليه مسألة ، ولا بدّ للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفة التي فوّض إليه أمر هذا العالم الأرضي وتدبير النظام الجاري فيه ونتقرّب بالتضرّع إليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات ، ولا يسخط علينا ونأمن بذلك الشرور ، وهذا الإله الرب بالحقيقة شفيعنا عند الله لأنه إله الألهة ورب الأرباب ، وإليه يرجع الأمر كله .

فدين الوثنية مبني على انقطاع النسبة بين الله سبحانه وبين الإنسان

واستقرارها بينه وبين تلك الوسائط الشريفة التي يتوجهون إليها مع استقلال هذه الوسائط في التأثير ، وشفاعتها عند الله .

ولما كان الله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها فهو تعالى ذو نسبة إلى الإنسان قريب منه ، ولا استقلال لشيء من هذه الأسباب التي نظمها وأجراها في هذا العالم حتى يرجى منها خير بالإرضاء أو يترقب شر بالإسخاط .

فالله سبحانه هو الذي يجب أن يعبد فيرجى بذلك رضاه ، ويتقى بذلك سخطه لمكان أنه هو الخالق للإنسان ولكل شيء المدبّر أمره وأمر كل شيء فقوله : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ مسوق لتعليل سابقه والاحتجاج عليه من طريق إثبات النسبة بينه تعالى وبين الإنسان ونفي الاستقلال من الأسباب .

ولذلك عقّبه بقوله : ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ على وجه التفريع أي فإذا كان الله تعالى هو الذي يجب عليكم أن تعبدوه وتتركوا غيره لكونه هو خالقكم المدبر لأمر حياتكم فاسألوه أن يغفر لكم معصيتكم بعبادة غيره ، وارجعوا إليه بالإيمان به وعبادته . إنه قريب مجيب .

وقد علّل قوله : ﴿فاستغفروه﴾ الخ ، بقوله : ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ لأنه استنتج من حجته المذكورة أنه تعالى يقوم بإيجاد الإنسان وتربيته وتدبير أمر حياته ، وأنه لا استقلال لشيء من الأسباب العمّالة في الكون بل الله تعالى هو الذي يسوق هذا إلى هنا ، ويصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الإنسان وبين حوائجه وجميع الأسباب العمّالة فيها ، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدركه فهم ولا يناله عبادة وقربان ، وإذا كان قريباً فهو مجيب ، وإذا كان قريباً مجيباً وهو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا إليه .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ الخ ، الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله وآثاره ، ولا يرجى منها إلا الخير والنفع فكونه مرجواً هو أن يوجد ذا رشد وكمال في شخصه وبيته فيستهل منه الخير ويترقب منه النفع ، وقوله : ﴿قد كنت فينا﴾ دليل على كونه مرجواً لعامتهم وجمهورهم .

فقولهم : ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحة تنفع بخدماتك مجتمعهم وتحمل الأمة على صراط الترفي والتعالي لما كانت تشاهد فيك من إمارات الرشد والكمال لكنهم يئسوا منك ومن رزانة رأيك اليوم بما أبدعت من القول وأقمت من الدعوة .

وقولهم : ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ استفهام إنكاري بداعي المذمة والملامة ، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنة من سنن مليتهم وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة ، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة .

والدليل على ما ذكرنا قوله : ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ الدال على معنى العبادة المستمرة باتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء ولم يقل : أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ؟ والفرق بين التعبيرين من جهة المعنى واضح .

ومن هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار وغيره قوله : ﴿أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ بقولهم: ﴿أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا﴾ من الخطأ .

وقوله : ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ حجة ثانية لهم في رد دعوة صالح عليه السلام، وحجتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآية ومحصلها أن ما تدعو إليه من رفض عبادة الأصنام بدعة منكرة تذهب بسنة ثمود المقدسة وتهدم بنيان مليتهم ، وتميت ذكرهم فعلينا أن نرده ، والثانية أنك لم تأت بحجة بينة على ما تدعو إليه تورث اليقين وتميط الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعونا إليه وليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شك منا فيه .

والإرابة الاتهام وإساءة الظن يقال : رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك وأرابني كذا إرابة إذا حملك على اتهامه وسوء الظن به .

قوله تعالى : ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾ إلى آخر الآية . المراد بالبينة الآية المعجزة وبالرحمة النبوة ، وقد تقدم الكلام في نظير الآية من قصة نوح عليه السلام في السورة .

وقوله: ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ جواب الشرط، وحاصل المعنى: أخبروني إن كنت مؤيداً بآية معجزة تنبىء عن صحة دعوتي وأعطاني الله الرسالة فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله ويدفع عني إن أطعتكم فيما تسألون ووافقتكم فيما تريدونه مني وهو ترك الدعوة.

ففي الكلام جواب عن كلتا حجتيهم واعتذار عما لاموه عليه من الدعوة المبتدعة.

وقوله: ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ تفريع على قوله السابق الذي ذكره في مقام دحض الحجتين والاعتذار عن مخالفتهم والقيام بدعوتهم إلى خلاف سنتهم القومية فالمعنى فما تزيدونني في حرصكم على ترك الدعوة والرجوع إليكم واللحوق بكم غير أن تخسروني فما مخالفة الحق إلا خسارة.

وقيل: المراد أنكم ما تزيدونني في قولكم: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ غير نسبتي إياكم إلى الخسارة. وقيل: المعنى ما تزيدونني إلا بصيرة في خسارتكم والوجه الأول أوجه.

قوله تعالى: ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ إضافة الناقة إلى الله إضافة تشريف كبيت الله وكتاب الله. وكانت الناقة آية معجزة له ﷺ تؤيد نبوته، وقد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله، وقال لهم: إنها تأكل في أرض الله محررة، وحذرهم أن يمسوها بسوء أي يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل، وهذا معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ عقر الناقة نحرها، والدار هي المكان الذي يبنيه الإنسان فيسكن فيه ويأوي إليه هو وأهله، والمراد بها في الآية المدينة سميت داراً لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها، وقيل المراد بالدار الدنيا، وهو بعيد.

والمراد بتمتعهم في مدينتهم العيش والتنعم بالحياة لأن الحياة الدنيا متاع يتمتع به، أو الالتذاذ بأنواع النعم التي هيؤوها فيها من مناظر ذات بهجة والأثاث والمأكول والمشروب والاسترسال في أهواء أنفسهم.

وقوله: ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿تمتعوا﴾ الخ،

و ﴿وعد غير مكذوب﴾ بيان له .

قوله تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً﴾ إلى آخر الآية . أما قوله : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً﴾﴿والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ فقدم تقدم الكلام في مثله في قصة هود .

وأما قوله : ﴿ومن خزي يومئذ﴾ فمعطوف على محذوف والتقدير نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ ، والخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحي من إظهاره أو أن التقدير : نجيناهم من القوم ومن خزي يومئذ على حد قوله : ﴿ونجّني من القوم الظالمين﴾ .

وقوله : ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ في موضع التعليل لمضمون صدر الآية وفيه التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة ، وقد تقدم نظيره في آخر قصة هود في قوله : ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ والوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدل به على خروجهم من زي العبودية وكفرهم بالربوبية وكفرانهم نعم ربهم .

قوله تعالى : ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ يقال : جثم جثوماً إذا وقع على وجهه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ غني بالمكان أي أقام فيه ، والضمير راجع إلى الديار .

قوله تعالى : ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصة فالجملة الأولى تلخيص ما انتهى إليه أمر ثمود ودعوة صالح ﷺ ، والثانية تلخيص ما جازاهم الله به ، وقد تقدم نظيرة الآية في آخر قصة هود .

(بحث روائي)

في الكافي مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال : قلت له : ﴿كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر﴾ قال : هذا فيما كذبوا صالحاً ، وما أهلك الله عز وجل قوماً قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم .

فبعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها ، فقالوا : إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه .

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم : إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله .

ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال : اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم . ثم قالوا : من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب ؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يُقال له : قدار شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جعلاً .

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرّت على الأرض على جنبها ، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء ، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته ، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها .

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال : يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم ؟ أعصيتم أمر ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح ﷺ : إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر وكان لهم أعظم المنفعة فقل لهم : إني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم ، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث .

فأتاهم صالح وقال : يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم : إن

تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم ؛ فلما قال لهم ذلك [قالوا ظ] كانوا أعتى ما قالوا وأخبث وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

قال : يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودّة فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة منهم : لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً . فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودّة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم : قد أتانا ما قال لنا صالح .

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا جميعاً في طرفة عين : صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى فأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين ، وكانت هذه قصتهم .

أقول : واشتمال الحديث على أمور خارقة للعادة كشرب الناس جميعاً من لبن الناقة وكذا تغير ألوان وجوههم يوماً فيوماً لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز ، وقد نص القرآن الكريم بذلك ، وبأنها كانت لها شرب يوم ولأهل المدينة كلهم شرب يوم معلوم .

وأما كون الصيحة من جبرئيل فلا ينافي كونها صاعقة سماوية نازلة عليهم أماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة .

وقوله عليه السلام : إنهم قد كانوا في الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا كأنه كناية عن تهيئهم للموت .

وقد وقع في بعض الروايات في وصف الناقة أنه كانت بين جنبيها مسافة ميل وهو مما يوهن الرواية لا لاستحالة وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهة أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبة بين أعضائها حينئذ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثة أميال ولا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتله بسيفه ولم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقة قطعاً ، ومع ذلك لا يخلو قوله تعالى : ﴿لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم﴾ من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمة جداً .

(كلام في قصة صالح في فصول)

١ ـ **ثمود قوم صالح عليه السلام** : ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام ، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم ، ولقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم .

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أُمة من العرب على ما يدل عليه اسم نبيّهم وقد كان منهم[١] نشأوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمنين[٢] ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنّات والنخيل والحرث[٣] .

كانت ثمود تعيش على سنّة الشعوب والقبائل يحكم فيهم سادتهم وشيوخهم وقد كانت في المدينة التي بعث فيها صالح تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤] فطغوا في الأرض وعبدوا الأصنام وأفرطوا عتوّاً وظلماً .

٢ ـ **بعثة صالح عليه السلام** : لما نسيت ثمود ربها وأسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحاً النبي عليه السلام وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاية[٥] فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والإحسان ، ولا يعلوا في الأرض ولا يسرفوا ولا يطغوا وأنذرهم بالعذاب (هود ـ الشعراء ـ الشمس وغيرها) .

---

(١) هود : ٦١ .
(٢) الأعراف : ٧٤ .
(٣) الشعراء : ١٤٨ .
(٤) النمل : ٤٨ .
(٥) هود : ٦٢ ، النمل : ٤٩ .

فقام عليه السلام بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله فلم يؤمن بـه إلا جماعـة قليلة من ضعفائهم[١] وأما الطغاة المستكبرون وعامة من تبعهم فأصروا على كفرهم واستذلوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر[٢] .

وطلبوا منه البينة على مقاله ، وسألوه آية معجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة ، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة فأتاهم بناقة على ما وصفوها به ، وقال لهم : إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفّوا عنها يوماً فتشربها الناقة فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، وأن تذروها تأكل في أرض الله كيف شاءت ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب[٣] .

وكان الأمر على ذلك حيناً ثم إنهم طغوا ومكروا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقرها ، وقالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال صالح عليه السلام : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب[٤] .

ثم مكرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح وتقاسموا بينهم لنبيّتنّه وأهله ثم نقولنّ لوليّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ومكر الله مكراً وهم لا يشعرون[٥] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون[٦] والرجفة والصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين[٧] وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون[٨] ونادى بعدهم المنادي الإلهي : ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود .

٣ - شخصية صالح عليه السلام : لم يرد لهذا النبي الصالح في التوراة الحاضرة ذكر . كان عليه السلام من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية يذكره الله تعالى بعد نوح وهود ، ويحمده ويثني عليه بما أثنى به على أنبيائه ورسله ، وقد اختاره وفضله كسائرهم على العالمين عليه وعليهم السلام .

---

(١) الأعراف : ٧٥ .
(٢) الأعراف : ٦٦ ، الشعراء : ١٥٣ ، النمل : ٤٧ .
(٣) الأعراف : ٧٢ ، هود : ٦٤ ، الشعراء : ١٥٦ .
(٤) هود : ٦٥ .
(٥) النمل : ٥٠ .
(٦) الذاريات : ٤٤ .
(٧) الأعراف : ٧٩ ، هود : ٦٧ .
(٨) فصلت : ١٨ .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرٰهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوآ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ آللَّهِ رَحْمَتُ آللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰهِيمَ آلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْرىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَآ إِبْرٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) .

(بيـان)

تتضمَّن الآيات قصة بشرى إبراهيم عليه السلام بالولد ، وإنها كالتوطئة لما سيذكر بعده من قصة ذهاب الملائكة إلى لوط النبي عليه السلام لإهلاك قومه فإن تلك القصة ذيل هذه القصة وفي آخر قصة البشرى ما يتبيَّن به وجه قصة الإهلاك وهو قوله : ﴿إنه قد جاء أمر ربّك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى آخر الآية ، البشرى هي البشارة ، والعجل ولد البقرة ، والحنيذ فعيل بمعنى المفعول أي المحنوذ وهو اللحم المشوي على حجارة محماة بالنار كما أن القديد هو المشوي على حجارة محماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين ، وذكر بعضهم أنه المشوي الذي يقطر ماء وسمناً ، وقيل : هو مطلق المشوي ، وقوله تعالى في سورة الذاريات في القصة : ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ لا يخلو من تأييد مّا للمعنى الثاني .

وقوله : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ معطوف على قوله سابقاً : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ قال في المجمع : وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر ومعنى قد ههنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقّع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . انتهى .

والرسل هم الملائكة المرسلون إلى إبراهيم للبشارة وإلى لوط لإهلاك قومه وقد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع ـ الرسل ـ على ذلك ، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام ، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي .

والبشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة ، والتي ذكرت فيها منها هي البشارة لامرأته ، وإنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر والذاريات ، ولم يصرّح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليهم السلام أو أنهم بشروه بكليهما ؟ وظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق ، وسيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة .

وقوله : ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي تسالموا هم وإبراهيم فقالوا : سلاماً أي سلّمنا عليك سلاماً ، وقال إبراهيم : سلام أي عليكم سلام .

والسلام الواقع في تحية إبراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على أن المراد به الجنس أو أن له وصفاً محذوفاً للتفخيم ومزيد التكريم والتقدير : عليكم سلام زاك طيب أو ما في معناه ، ولذا ذكر بعض المفسرين : أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حيّاهم بأحسن من تحيتهم فبالغ في إكرامهم ظناً منه أنهم ضيف .

وقوله : ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي ما أبطأ في أن قدّم إليهم عجلاً مشوياً يقطر ماء وسمناً وأسرع في ذلك .

قوله تعالى : ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ عدم وصول أيديهم إليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم إلى الطعام ، وذلك إمارة العداوة وإضمار الشر ، ونكرهم وأنكرهم بمعنى واحد وإنما كان أنكرهم

لإنكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود .

والإيجاس الخطور القلبي ، قال الراغب : الوجس الصوت الخفي ، والتوجس التسمع ، والإيجاس وجود ذلك النفس قال : وأوجس منهم خيفة ، والواجس قالوا : هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر . انتهى . فالجملة من الكناية كأن لطروق الخيفة ـ وهو النوع من الخوف ـ وخطوره في النفس صوتاً تسمع بالسمع القلبي ، والمراد أنه استشعر في نفسه خوفاً ولذلك أمّنوه وطيبوا نفسه بقولهم : **﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** .

ومعنى الآية أن إبراهيم ﷺ لما قدم إليهم العجل المشوي رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل ـ وذلك إمارة الشر ـ استشعر في نفسه منهم خوفاً قالوا تأميناً له وتطييباً لنفسه : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل والشرب وما يناظر ذلك من لوازم البدن المادية ، وأنهم مرسلون لخطب جليل .

ونسبة استشعار الخوف إلى إبراهيم ﷺ لا ينافي ما كان عليه من مقام النبوة الملازم للعصمة الإلهية من المعصية والرذائل الخلقية فإن مطلق الخوف وهو تأثر النفس عن مشاهدة المكروه التي تبعثها إلى التحذر منه والمبادرة إلى دفعه ليس من الرذائل ، وإنما الرذيلة هي التأثر الذي يستوجب بطلان مقاومة النفس وظهور العي والفزع والذهول عن التدبير لدفع المكروه وهو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثر عن مشاهدة المكروه مطلقاً وهو المسمى تهوراً ليس من الفضيلة في شيء .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانية التي تظهر في النفوس ومنها التأثر والانفعال عند مشاهدة المكروه والشر كالشوق والميل والحب وغير ذلك عند مشاهدة المحبوب والخير عبثاً باطلاً فإن جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها ، وعليه يدور رحى الوجود في نظامه العام .

ولما كان هذا النوع المسمى بالإنسان إنما يسير في مسير بقائه بالشعور والإرادة كان عمل الجلب والدفع فيه مترشحاً عن شعوره وإرادته ، ولا يتم إلا

عن تأثر نفساني يسمى في جانب الحب ميلاً وشهوة وفي جانب البغض والكراهة خوفاً ووجلاً .

ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانية الباطنة ربما ساقت الإنسان إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغي وهو فضيلة الشجاعة كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغي على ما ينبغي ، وهو فضيلة العفة وهما حدا الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، وأما انتفاء التأثر بأن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة الصريحة في باب الدفع وهو التهور، أو لا تنزع نفسه إلى شيء مطلوب قط في باب الجلب والشهوة وهو الخمول وكذا بلوغ التأثر من القوة إلى حيث ينسى الإنسان نفسه ويذهل عن واجب رأيه وتدبيره فيجزع عن كل شبح يتراءى له في باب الدفع وهو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه وتشتهيه كالبهيمة على عليقها في باب الشهوة وهو الشره فجميع هذه من الرذائل .

والذي آثر الله سبحانه به أنبياءه من العصمة إنما يثبت في نفوسهم فضيلة الشجاعة دون التهور ، وليست الشجاعة تقابل الخوف الذي هو مطلق التأثر عن مشاهدة المكروه ، وهو الذي يدعو النفس إلى القيام بواجب الدفع ، وإنما تقابل الجبن الذي هو بلوغ التأثر النفساني إلى حيث يبطل الرأي والتدبير ويستتبع العي والانهزام .

قال تعالى : ﴿الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾[١] ، وقال مخاطباً لموسى عليه السلام : ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[٢] ، وقال حكاية عن قول شعيب له عليهما السلام : ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾[٣] ، وقال مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾[٤] .

والخليل عليه السلام هو النبي الكريم الذي قام بالدعوة الحقَّة إذ لا يذكر اسم الله وحده ، ونازع وثنية قومه فحاجَّ أباه آزر وقومه وحاجَّ الملك الجبار نمرود وكان يدّعي الألوهية ، وكسر أصنام القوم حتى ألقوه في النار فأنجاه الله من النار فلم

---

(١) الأحزاب : ٣٩ .
(٢) طه : ٦٨ .
(٣) القصص : ٢٥ .
(٤) الأنفال : ٥٨ .

يجبنه شيء من تلك المهاول ، ولا هزمه في جهاده في سبيل الله هازم ، ومثل هذا النبي على ما له من الموقف الروحي إن خاف من شيء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر ـ على اختلاف تعبير الآيات ـ فإنما يخافه خوف حزم ولا يخافه خوف جبن ، وإذا خاف من شيء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف لله لا لهوى من نفسه .

قوله تعالى : **﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** ضحكت من الضحك بفتح الضاد أي حاضت ، ويؤيده تفريع البشارة عليه في قوله عقيبه : ﴿فبشرناها﴾ الخ ، ويكون ضحكها إمارة تقرّب البشرى إلى القبول وآية تهيىء نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به ، ويكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض وهي عجوز ، وإنما كانت قائمة تنظر ما يجزي عليه الأمر بين بعله وبين الضيفان النازلين به وتحادثهم .

والمعنى أن إبراهيم ﵇ كان يكلمهم ويكلمونه في أمر الطعام والحال أن امرأته قائمة هناك تنظر إلى ما يجري بين الضيفان وبين إبراهيم وما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها أنها حاضت فبشرته الملائكة بالولد .

وأكثر المفسرين أخذوا الكلمة من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا في توجيه سببه ، وأقرب الوجوه هو أن يُقال : إنها كانت قائمة هناك وقد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل وهو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكة مكرمون نزلوا ببيتهم وأن لا شر في ذلك يتوجّه إليهم سرّت وفرحت فضحكت فبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

وهناك وجوه أُخر ذكروها خالية عن الدليل كقولهم : إنها ضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط ، وقولهم : إنها ضحكت تعجباً من امتناع الضيوف من الأكل والحال أنها تخدمهم بنفسها ، وقولهم : إنها كانت أشارت إلى إبراهيم أن يضم إليه لوطاً لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب والهلاك فلما سمعت من الملائكة قولهم : إنا أُرسلنا إلى قوم لوط سرّت وضحكت لإصابتها في الرأي ، وقولهم : إنها ضحكت تعجباً مما بشروها به من الولد وهي عجوز عقيم ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت .

وقوله : ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ إسحاق هو ابنها من إبراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق عليهما السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد . هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرىء برفع يعقوب وهو بيان لتتمة البشارة ، والأولى أرجح .

وكأن في هذا التعبير : ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ إشارة إلى وجه تسمية يعقوب ﷺ بهذا الاسم ، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه ، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به .

قال في التوراة الحاضرة : وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجه «رفقة» بنت بنوئيل الأراميّ أُخت لابان الأراميّ من فدّان الأرام ، وصلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقالت : إن كان هكذا فلماذا أنا ، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب : في بطنك أُمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعو اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب . انتهى موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿قالت يا ويلتي ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ الويل القبح وكل مساءة توجب التحسّر من هلكة أو مصيبة أو فجيعة أو فضيحة ، ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال : يا ويلي أي حضرني وحل بي ما فيه تحسّري ، ويا ويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل يا أبتا .

والعجوز الشيخة من النساء ، والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغني عن الغير يقال للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل ، ويقال للصاحب وللرب : بعل . ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم .

والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة

ما لا يعلم سببه ، ولذا يكثر في الأمور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها : ﴿يا ويلتى ءألد﴾ الخ ، وارد مورد التعجب والتحسر فإنها لما سمعت بشارة الملائكة تمثّل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغَين في الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منهما ويهزؤن بهما وذلك فضيحة .

قوله تعالى : **﴿قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدم معنى بقية مفردات الآية .

وقولهم : ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ استفهام إنكاري أنكرت الملائكة تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر ، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا وجه للتعجب منه .

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة ومواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازلة عليهم نعمة أخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عادة .

ولهذا الذي ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها **أولاً** : ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شيء عليها وهو الخالق لكل شيء .

وثانياً : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ فنبهوها بذلك أن الله أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت ، وألزمهم ذلك فليس من البعيد أن يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سنهما العادي المألوف لذلك .

وقوله : ﴿إنه حميد مجيد﴾ في مقام التعليل لقوله : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده .

قوله تعالى : **﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾** الروع الخوف والرعب والمجادلة في الأصل الإلحاح في البحث

والمساءلة للغلبة في الرأي ، والمعنى أنه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبين أن النازلين به لا يريدون به سوءاً ولا يضمرون له شرّاً . وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب أخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك أن يصرف عنهم العذاب .

فقوله : ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ لحكاية الحال الماضية أو بتقدير فعل ماضٍ قبله وتقديره : أخذ يجادلنا الخ ، لأن الأصل في جواب لما أن يكون فعلاً ماضياً .

ويظهر من الآية أن الملائكة أخبروه أولاً : بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ثم ألقوا إليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم ، والعذاب نازل لا مرد له .

والذي ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر : ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ الحليم هو الذي لا يعاجل العقوبة والانتقام ، والأوّاه كثير التأوه مما يصيبه أو يشاهده من السوء ، والمنيب من الإنابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر إلى الله .

والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة : ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ وفيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا ، وكان كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعاً إلى الله في نجاتهم . لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا

(١) العنكبوت : ٣٢ .

عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمراً فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة . فقولهم : ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ أي انصرف عن هذا الجدال ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه .

وقولهم : ﴿إنه قد جاء أمر ربّك﴾ أي بلغ أمره مبلغاً لا يدفع بدافع ولا يتبدّل بمبدل ويؤيده قوله في الجملة التالية : ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادراً لم يتخلف القضاء عن المقضي البتة ويؤيده أيضاً قوله في ما سيأتي من آيات قصة قوم لوط : ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾(١) الخ .

وقولهم : ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ أي غير مدفوع عنهم بدافع فلله الحكم لا معقب لحكمه ، والجملة بيان لما أمر به جيء بها تأكيداً للجملة السابقة والمقام مقام التأكيد ، ولذلك جيء في الجملة الأولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق ، وصدرت الجملتان معاً بإن ، وأضافوا الأمر إلى رب إبراهيم عليه السلام دون أمر الله ليعيتهم ذلك على انقطاعه عن الجدال .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط : جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكرّوبيل فمرّوا بإبراهيم فسلموا عليه وهم معتمّون فلم يعرفهم ، ورأى هيئة حسنة فقال : لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي وكان صاحب ضيافة فشوّى لهم عجلاً سميناً حتى أنضجه فقرّبه إليهم فلما وضع بين أيديهم رأى أيديهم لا تصل إليه فنكرهم وأوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال : أنت هو؟ قال : نعم فمرّت به امرأته فبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت : ما قال الله عزّ وجلّ وأجابوها بما في الكتاب .

فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ فقالوا في إهلاك قوم لوط . قال : إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونها ؟ قال جبرئيل : لا . قال : وإن كان فيهم

---

(١) هود : ٨٢ .

خمسون ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم ثلاثون ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم عشرون ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم عشرة ؟ قال : لا . قال : وإن كان فيهم خمسة ؟ قال : لا . قال: وإن كان فيهم واحد ؟ قال: لا . قال : فإن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ثم مضوا .

قال : وقال الحسن بن عليّ : لا اعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عزّ وجل : ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ الحديث وله تتمة ستوافيك في قصة لوط .

أقول : وقوله : ﴿لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم﴾ يمكن استفادته من قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ فإنه أنسب بكون غرضه استبقاء القوم لا استبقاء نبي الله لوط . على أن قوله : ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ وقوله : ﴿إنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ إنما يناسب استبقاء القوم .

وفي تفسير العيّاشي عن عبد الله بن سنان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : جاء بعجل حنيذ مشوياً نضيجاً .

وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل : فضحكت فبشرناها بإسحاق قال : حاضت .

وفي الدر المنثور أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما رأى إبراهيم أنه لا تصل إلى العجل أيديهم نكرهم وخافهم ، وإنما كان خوف إبراهيم أنهم كانوا في ذلك الزمان إذا همّ أحدهم بامرء سوءً لم يأكل عنده يقول : إذا أكرمت بطعامه حرم علي أذاه ، فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوءً فاضطربت مفاصله .

وامرأته سارة قائمة تخدمهم ، وكان إذا أراد أن يكرم ضيفاً أقام سارة ليخدمهم فضحكت سارة ، وإنما ضحكت أنها قالت : يا إبراهيم وما تخاف ؟ إنهم ثلاثة نفر وأنت وأهلك وغلمانك . قال لها جبرئيل : أيتها الضاحكة أما إنك ستلدين غلاماً يقال له: إسحاق ومن ورائه غلام يقال له : يعقوب فأقبلت في صرة فصكت وجهها فأقبلت والهة تقول : واويلتاه ووضعت يدها على وجهها

استحياء فذلك قوله : فصكت وجهها ، وقالت : ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً .

قال : لما بشّر إبراهيم يقول الله : فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق يجادلنا في قوم لوط ، وكان جداله أنه قال : يا جبرئيل أين تريدون ؟ وإلى من بعثتم ؟ قال : إلى قوم لوط وقد أُمرنا بعذابهم .

فقال إبراهيم إن فيها لوطاً . قال : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ، وكانت فيما زعموا تسمى والقة . فقال إبراهيم : إن كان فيهم مائة مؤمن أتعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبرئيل : لا . حتى انتهى في العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل : لا . فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمناً واحداً قال : إن فيها لوطاً . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته .

أقول : وفي متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول إبراهيم : إن فيها لوطاً أولاً وثانياً لكن المراد واضح .

وفي تفسير العيّاشي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى لما قضى عذاب قوم لوط وقدّره أحب أن يعوّض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم يسلي به مصابه بهلاك قوم لوط .

قال : فبعث الله رسلاً إلى إبراهيم يبشرونه بإسماعيل . قال : فدخلوا عليه ليلاً ففزع منهم وخاف أن يكونوا سراقاً فلما رأته الرسل فزعاً مذعوراً قالوا : سلاماً . قال : سلام إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبو جعفر عليه السلام : والغلام العليم إسماعيل من هاجر فقال إبراهيم للرسل : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون . قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال إبراهيم للرسل : فما خطبكم بعد البشارة ؟ قالوا : إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط إنهم كانوا قوماً فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين ، قال أبو جعفر عليه السلام : قال إبراهيم : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين .

فلما عذبهم الله أرسل الله إلى إبراهيم رسلاً يبشرونه بإسحاق ويعزونه بهلاك قوم لوط ، وذلك قوله : ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فما لبث أن جاء بعجل حنيذ يعني زكياً مشوياً نضيجاً فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة . قال أبو جعفر عليه السلام : إنما عنوا سارة قائمة فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت يعني فعجبت من قولهم .

أقول : والرواية ـ كما ترى ـ تجعل قصة البشارة قصتين : البشارة بإسماعيل والبشارة بإسحاق وقد ولد بعد إسماعيل بسنين . ثم تحمل آيات سورة الحجر ـ ولم يذكر فيها تقديم العجل المشوي إلى الضيوف ـ على البشرى بإسماعيل ولما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك ، وتحمل آيات سورتي الذاريات وهود ـ وقد اختلطتا في الرواية ـ على البشرى لسارة بإسحاق ويعقوب ، وأنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم وأخبروه بوقوع العذاب وبشروه البشارة الثانية .

أما آيات سورة الحجر فإنها في نفسها تحتمل الحمل على البشارة بإسماعيل وكذا الآيات الواقعة في سورة الذاريات تحتمل أن تقص عما بعد هلاك قوم لوط وتكون البشرى بإسحاق ويعقوب عند ذلك .

وأما آيات سورة هود فإنها صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب ، ولكن ما في ذيلها من قوله : ﴿يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ إلى آخر الآيات تأبى أن تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط ، وإن كان ما في صدرها من قوله : ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ لا يأبى وحده الحمل على ما بعد الهلاك ، وكذا جملة ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ لولا ما يحفها من قيود الكلام .

وبالجملة مفاد الآيات في سورة هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم لوط ، وعند ذلك كان جدال إبراهيم عليه السلام ، ومقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصة في سورة الذاريات هي الواقعة قبل هلاك القوم لا بعد الهلاك ، وكذا كون ما وقع من القصة في سورة الحجر وفيه التصريح بكونه قبل هلاكهم وفيه جدال إبراهيم عليه السلام خالياً عن بشرى إسحاق ويعقوب لا بشرى إسماعيل .

والحاصل أن اشتمال آيات هود على بشرى إسحاق وجدال إبراهيم عليه السلام

الظاهر في كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب أن يكون المذكور من البشرى في جميع السور الثلاث : هود والحجر والذاريات قصة واحدة هي قصة البشرى بإسحاق قبل وقوع العذاب ، وهذا مما يوهن الرواية جداً .

وفي الرواية شيء آخر وهو أنها أخذت الضحك بمعنى العجب وأخذت قوله : ﴿فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ من التقديم والتأخير ، وأن التقدير :﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت﴾ وهو خلاف الظاهر من غير نكتة ظاهرة .

وفي تفسير العيّاشي أيضاً عن الفضل بن أبي قرة قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : أوحى الله إلى إبراهيم أنه سيولد لك فقال لسارة فقالت : ءألد وأنا عجوز ؟ فأوحى الله إليه : إنها ستلد ويعذب أولادها أربعمائة سنة بردّها الكلام عليّ .

قال : فلما طال على بني إسرائيل العذاب ضجوا وبكوا إلى الله أربعين صباحاً فأوحى الله إلى موسى وهارون أن يخلصهم من فرعون فحطّ عنهم سبعين ومائة سنة .

قال : وقال أبو عبد الله عليه السلام : هكذا أنتم . لو فعلتم فرّج الله عنا فأما إذا لم تكونوا فإن الأمر ينتهي إلى منتهاه .

أقول : وجود الرابطة بين أحوال الإنسان وملكاته وبين خصوصيات تركيب بدنه مما لا شك فيه فلكل من جانبي الربط استدعاء وتأثير خاص في الآخر ثم النطفة مأخوذة من المادة البدنية حاملة لما في البدن من الخصوصيات المادية والروحية طبعاً فمن الجائز أن يرث الأخلاف بعض خصوصيات أخلاق أسلافهم المادية والروحية .

وقد تقدم كراراً في المباحث السابقة أن بين صفات الإنسان الروحية وأعماله وبين الحوادث الخارجية خيراً وشراً رابطة تامة كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ولو إن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[1] ، وقوله : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[2] .

فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من

---

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) الشورى : ٣٠ .

المجتمعات الإنسانية عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفة من الصفات فضيلة أو رذيلة ثم يظهر أثره الجميل أو وباله السيء في أعقابه ، والملاك في ذلك نوع من الوراثة كما مرّ ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ [1] كلام في هذا المعنى في الجزء الرابع من الكتاب .

وفيه عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام وعن عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ قال : دعاء .

أقول : وروى في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام مثله .

وفيه عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال : إن إبراهيم جادل في قوم لوط وقال : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها فزاده إبراهيم فقال جبرئيل : يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن حسّان ابن أبجر قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء . فقال ابن عباس : ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال : ولد الولد .

(كلام في قصة البشرى)

قصة البشرى وسماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس من السور القرآنية كلها مكّية وهي على ترتيب القرآن سورة هود والحجر والعنكبوت والصافّات والذاريات .

فالأولى : قوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رآى أيديهم لا تصل إليه نكّرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة

---

(١) النساء : ٩ .

فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتي ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾[1] .

والثانية : قوله تعالى : ﴿ونبّئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون .

قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشرون . قالوا بشّرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجّوهم أجمعين . إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين﴾[2] .

والثالثة : قوله تعالى : ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[3] .

والرابعة : قوله تعالى : ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام علي إبراهيم كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾[4] .

والخامسة : قوله تعالى :[5] ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل

---

(١) هود : ٦٩ ـ ٧٦ . (٣) العنكبوت : ٣١ ـ ٣٢ . (٥) الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠ .
(٢) سورة الحجر : ٥١ ـ ٦٠ . (٤) الصافات : ٩٩ ـ ١١٣ .

سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ .

ويقع البحث في قصة البشرى من وجوه :

أحدها : أنها هل هي بشرى واحدة وهي المشتملة على بشرى إبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب وقد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو أنها قصتان : إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل والأخرى تتضمن البشرى بإسحاق ويعقوب .

ربما رجح الثاني بناء على أن ما وقع من القصة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشوي ، وأن إبراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه وامرأته العجوز العقيم وهي سارة أم إسحاق قطعاً ، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة :﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين؟- إلى أن قالوا - فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ الآيات ونظير ذلك ما في سورة هود وقد قال فيها الملائكة لإزالة الروع عن إبراهيم ابتداء : إنا أرسلنا إلى قوم لوط .

وأما ما في سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوي بل ظاهره أن إبراهيم وأهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى : ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك لوط .

ونظيره ما في سورة العنكبوت من القصة وهي أظهر في كون ذلك قبل الهلاك ويتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط ، وقد تقدمت في البحث الروائي السابق حديث العياشي في هذا المعنى .

لكن الحق أن الآيات في جميع السور الأربع سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات إنما تقص قصة البشارة بإسحاق ويعقوب دون إسماعيل .

وأما ما في ذيل آيات الذاريات من قوله : ﴿قالوا إنا أرسلنا﴾ الظاهر في المضي والفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ .

على أن قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق : ﴿إنا أُرسلنا﴾ لا مانع منه بحسب اللغة والعرف .

وأما قوله : ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ إلى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى وليس من تتمة كلام الملائكة لإبراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات .

وأما ذكر الوجل في آيات الحجر في أول القصة بخلاف سورتي الذاريات وهود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوي في آيات الحجر بخلافهما ، على أن الاتباط التام بين أجزاء قصة مما يجوّز أن يقدم بعضها على بعض حيناً ويعكس الأمر حيناً آخر كما أنه تعالى يذكر إنكار إبراهيم في آيات الذاريات في صدر القصة بعد سلامهم وفي سورة هود في وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل ، وهذا كثير الورود في نظم القرآن .

على أن آيات هود صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب وهي تتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط في سياق لا يشك معه أنه كان قبل هلاك لوط ، ولازمه كون بشرى إسحاق قبله لا بعده .

على أن من المتفق عليه أن إسماعيل كان أكبر سناً من إسحاق وبين ولادتيهما سنون ، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشروا إبراهيم بإسماعيل في مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك وبشّروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيده كان الفصل بين البشريين يوماً أو يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق وبين ولادته سنون من الزمان والبشرى لا تطلق إلا على الإخبار بالجميل إذا كان مشرفاً على الوقوع إلا إذا كانت هناك عناية خاصة وأما الإخبار بمطلق الجميل فهو وعد ونحو ذلك .

وثانيها : أنه هل هناك بشرى بإسماعيل ؟ والحق أن ما ذكرت من البشرى في صدر آيات الصافات إنما هي بشرى بإسماعيل وهي غير ما ذكرت في ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحاً فإن سياق الآيات في ذيل قوله : ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ ثم استيناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً : ﴿وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ لا يدع ريباً لمرتاب أن الغلام الحليم الذي بشّر به أولاً غير إسحاق الذي بشر به ثانياً ، وليس إلا إسماعيل .

وذكر الطبري في تاريخه أن المراد بالبشارة الأولى في هذه السورة أيضاً البشارة بإسحاق قياساً على ذكر من البشارة في سائر السور ، وهو كما ترى . وقد تقدم كلام في هذا المعنى في قصص إبراهيم عليه السلام في الجزء السابع من الكتاب .

وثالثها : البحث في القصة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما استفيد من القرآن الكريم ، وسيوافيك ذلك عند الكلام على قصة لوط عليه السلام في ذيل الآيات التالية .

ورابعها : البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله : ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ وقوله : ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ .

وقد تقدم أن سياق الآيات وخاصة قوله : ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ لا يدل إلا على نعته بالجميل فلم يكن جداله إلا حرصاً منه في نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى صراط الإيمان .

* * *

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ

مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) .

(بيــان)

الآيات تذكر عذاب قوم لوط ، وهي من وجه تتمة الآيات السابقة التي قصّت نزول الملائكة ودخولهم على إبراهيم عليه السلام وتبشيره بإسحاق فإنما كانت كالتوطئة لقصة عذاب قوم لوط .

قوله تعالى : ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ يقال : ساءه الأمر مساءة أي أوقع عليه السوء ، وسيء بالأمر بالبناء للمجهول أي أوقع عليه من ناحيته وبسببه .

والذرع مقايسة الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها ، ويطلق على نفس المقياس أيضاً ، ويقال : ضاق بالأمر ذرعاً وهو كناية عن انسداد طريق الحيلة والعجز عن الاهتداء إلى مخلص ينجو به الإنسان من النائبة كالذي يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه .

والعصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدّ واليوم العصيب هو اليوم الذي شدّ بالبلاء شداً لا يقبل الانحلال ولا بعض أجزائه ينفكّ عن بعض .

والمعنى : لما جاءت رسلنا لوطاً وهم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيؤهم لوطاً، وعجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه في صوَر غلمان مرد صبيحي المنظر وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا عنهم ويتركوهم على حالهم ، ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال : ﴿هذا يوم عصيب﴾ أي شديد ملتفّ بعض شره ببعض .

قوله تعالى : ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ قال الراغب : يقال : هرع وأهرع ساقه سوقاً بعنف وتخويف ، انتهى . وعن كتاب العين الإهراع السوق الحثيث ، انتهى .

وقوله : ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي ومن قبل ذلك كانوا

يقترفون المعاصي ويأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف ، ولا يحجبهم عن ذلك استحياء أو امتناع ، ولا ينزجرون بموعظة أو ملامة أو مذمة لأن العادة تسهّل كل صعب وتزيّن كل قبيح ووقيح .

والجملة كالمعترضة بين قوله : ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ وقوله : ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ الخ ، وهي نافعة في مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذي كان يهرعهم ويسوقهم إلى لوط ﵇ هو أنهم كانوا يعملون السيئات وصاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين به فساقهم ذلك إلى المجيء إليه وقصد السوء بأضيافه .

وأما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكة واستقرار العادة سلبوا سمع القبول وأن يزجرهم زاجر من عظة أو نصيحة ، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم : ﴿اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ الخ .

قوله تعالى : **﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم﴾** إلى آخر الآية ، لما رآهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة أو إغلاظ في الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم ورجّحه لهم بأنهنّ أطهر لهم .

وإنما المراد بصيغة التفضيل - أطهر - مجرد الاشتمال على الطهارة من غير شوب بقذارة ، والمراد هي طهارة محضاً ، وهو استعمال شائع ، قال تعالى : ﴿ما عند الله خير من اللهو﴾[1] ، وقال ﴿والصلح خير﴾[2] ، وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن .

وتقييد قوله : ﴿هؤلاء بناتي﴾ بقوله : ﴿هنّ أطهر لكم﴾ شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسّهن عن نكاحٍ لا عن سفاح وحاشا مقام نبيّ الله عن ذلك ، وذلك لأن السفاح لا طهارة فيه أصلاً وقد قال تعالى : ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[3] ، وقال : ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[4] ، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامة

---

(١) الجمعة : ١١ .
(٢) النساء : ١٢٨ .
(٣) الإسراء : ٣٢ .
(٤) الأنعام : ١٥١ .

المشرّعة في جميع الشرائع الإلهية النازلة على أنبيائه .

ومن هنا يظهر فساد قول من يقول : إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح . ولست أدري ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها ؟ وما معنى قوله حينئذ : ﴿فاتقوا الله﴾ ؟ ولو كان يريد دفع الفضيحة والعار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله : ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ .

وربما قيل : إن المراد بقوله : ﴿هؤلاء بناتي﴾ الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمته فنساؤهم بناته كما أن رجالهم بنوه ، يريد أن قصد الإناث وهو سبيل فطريّ خير لكم وأطهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء .

وهو تحكّم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة ، وأما كونهم كفّاراً وبناته مسلمات ولا يجوز إنكاح المسلمة من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعة إبراهيم حتى يتبعه لوط عليهما السلام فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنة بالكافر جائزاً في شرعه كما أنه كان جائزاً في صدر الإسلام ، وقد زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة ثم نسخ ذلك .

على أن قولهم في جوابه : ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ لا يلائم كون المراد بالبنات في كلامه إنما هي نساؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نسائهم بناته إلا أن يكون المراد التهكم ولا قرينة عليه .

لا يقال تعبيره عليه السلام بالبنات وليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع .

لأنا نقول : لا دليل على ذلك من كلامه تعالى ولا وقع ذلك في نقل يعتمد عليه ، نعم وقع في التوراة الحاضرة أنه كان للوط بنتان فقط . ولا اعتماد على ما تتضمنه .

وقوله : ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ بيان للمطلوب، وقوله : ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ عطف تفسيري لقوله : ﴿فاتقوا الله﴾ فإنه عليه السلام إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه وعصبية جاهلية منه ، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيرهم فيما كان يردعهم ، وقد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع وألحّ على ذلك سنين متمادية .

وإنما علق الردع على معنى الضيافة وأضاف الضيف إلى نفسه وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الفتوّة والكرامة فيهم ولذلك عقب ذلك بالاستغاثة والاستنصار بقوله : ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ لعله يجد فيهم ذا رشد إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي أولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى : ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[١] ولم يؤثر ذلك فيهم أثراً ولم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أيأسوه به من أي إلحاح في ذلك .

قوله تعالى : ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ هذا جواب القوم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفي أن يكون لهم في بناته من حق وأنه يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وماذا يريدون .

وقد قيل في معنى نفيهم الحق : إن معناه ما لنا في بناتك من حاجة وما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنه لا حق له فيه ففي الكلام نوع استعارة .

وقيل : إن المراد ليس لنا في بناتك من حق لأنا لا نتزوجهن ومن لم يتزوج بامرأة فلا حق له فيها فالمراد بنفي الحق نفي سببه وهو الازدواج .

وقيل : المراد بالحق هو الحظ والنصيب دون الحق الشرعي أو العرفي أي لا رغبة لنا فيهن لأنهن نساء ولا ميل لنا إليهن .

والذي يجب الالتفات إليه أنهم لم يقولوا : ما لنا في بناتك من حق بل قالوا : ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك وبين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكّروه بما كان يعلم من السنّة القومية الجارية بينهم ، وهو المنع من التعرض لنساء الناس وخاصة بالقهر والغلبة أو ترك إتيان النساء بالمرّة واستباحة التعرض للغلمان وقضاء الوطر منهم ، وقد كان لوط يردعهم عن سنّتهم ذلك إذ يقول لهم : ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾[٢] ، ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾[٣] ، ﴿ءإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم

---

(١) الحجر : ٧٢ . (٢) الأعراف : ٨١ . (٣) الشعراء : ١٦٦ .

المنكر﴾[1] ، ولا شك أن السنّة القومية الجارية على فعل شيء يثبت حقاً فيه ، والجارية على تركه ينفي الحق .

وبالجملة هم يلفتون نظره ﷺ إلى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنّة القومية وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا ولعلّ هذا أحسن الوجوه ، وبعده الوجه الثالث .

قوله تعالى : ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ يقال : أوى إلى كذا يأوي أويّاً ومأوى أي انضم إليه ، وآواه إليه يؤويه إيواء أي ضمه إليه . والركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس .

الظاهر أنه لما وعظهم لوط ﷺ بالأمر بتقوى الله وتهييج فتوّتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمته في عدم التعرض لضيفه بما يجلب إليه العار والخزي ، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أيأسوه بقولهم : ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث والحزن في صورة التمني فتمنى أن يكون له منهم قوة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين ـ وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته ـ أو يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم إليهم فيدفعهم بهم .

فقوله : ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ أي ليت لي قدرة بسببكم بانضمام رجل منك رشيد إليَّ يقوم بنصرتي فأدفعكم به ، وقوله : ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي أو كنت أنضم إلى ركن شديد أي عشيرة منيعة يمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق .

وقيل : إن معنى قوله : ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ أتمنى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي . وفيه أن فيه تبديل قوله : ﴿بكم﴾ إلى قولنا : بهم عليكم . وهو كما ترى .

وقيل : إن معنى ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ لو قويت عليكم بنفسي . وفيه أنه أبعد من لفظ الآية .

---

(١) العنكبوت : ٢٩ .

وقيل : إن الخطاب في الآية للأضياف دون القوم ، ومعنى الآية أنه قال لأضيافه : أتمنى أن يكون لي بسببكم قوة ألقاهم بها . وفيه أن الانتقال من خطاب القوم إلى خطاب الأضياف ولا دليل من اللفظ ظاهراً يدل عليه إبهام وتعقيد من غير موجب ، وكلامه تعالى أجل من ذلك .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ إلى آخر الآية عدم وصولهم إليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون ، والمعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط : إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة وعرفوه أنهم مرسلون من عند الله ، وطيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا إليه ولن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه : ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾[1] ، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر وازدحموا على بابه فصاروا عمياناً يتخبطون .

وقوله : ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد﴾ الإسراء والسرى بالضم السير بالليل فيكون قوله : ﴿بقطع من الليل﴾ نوع توضيح له ، والباء للمصاحبة أو بمعنى في . والقطع من الشيء طائفة منه وبعضه ، والالتفات افتعال من اللفت ، قال الراغب : يقال : لفته عن كذا صرفه عنه ، قال تعالى : ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا﴾ أي تصرفنا ، ومنه التفت فلان إذا عدل عن قبله بوجهه ، وامرأة لفوت تلفت من زوجها إلى ولدها من غيره . انتهى .

والقول دستور من الملائكة للوط ﷺ إرشاداً له إلى النجاة من العذاب النازل بالقوم صبيحة ليلتهم هاتيك ، وفيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد : ﴿إن موعدهم الصبح﴾ .

والمعنى : أنا مرسلون لعذاب القوم وهلاكهم فانج أنت بنفسك وأهلك وسيروا أنت وأهلك بقطع من هذا الليل واخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه ، ولا كثير وقت بينك وبين الصبح ، ولا ينظر أحدكم إلى وراء .

وما ذكره بعضهم أن المراد بالالتفات الالتفات إلى مال أو متاع في المدينة يأخذه معه أو الالتفات بمعنى التخلف عن السرى مما لا يلتفت إليه .

---

(١) القمر : ٣٧ .

وقوله : ﴿**إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم**﴾ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله : ﴿**أهلك**﴾ لا من قوله : ﴿**أحد**﴾ وفي قوله : ﴿**إنه مصيبها ما أصابهم**﴾ بيان السبب لاستثنائها ، وقال تعالى في غير هذا الموضع : ﴿**إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين**﴾[1] .

وقوله : ﴿**إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾ أي موعد هلاكهم الصبح وهو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿**فأخذتهم الصيحة مشرقين**﴾[2] .

والجملة الأُولى تعليل لقوله : ﴿**فأسر بأهلك بقطع من الليل**﴾ وفيه نوع استعجال كما تقدَّم ، ويؤكده قوله : ﴿**أليس الصبح بقريب**﴾ ومن الجائز أن يكون لوط عليه السلام يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم : ﴿**إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾ أي إن من المقدّر أن يهلكوا بالصبح وليس موعداً بعيداً أو يكون الجملة الأولى استعجالاً من الملائكة ، والثانية تسلية منهم للوط في استعجاله .

ولم يذكر في الآيات ما هي الغاية لسراهم والمحل الذي يتوجهون إليه ، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : ﴿**فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون**﴾[3] ، وظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد وأحالوا ذلك إلى ما سيأتيه من الدلالة بالوحي الإلهي .

قوله تعالى : ﴿**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك**﴾ ضمائر التأنيث الثلاث راجعة إلى أرض القوم أو القرية أو بلادهم المعلومة من السياق ، والسجّيل على ما في المجمع بمعنى السجّين وهو النار ، وقال الراغب : السجّين حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي معرّب، انتهى . يشير إلى ما قيل إن أصله سنكك كِل ، وقيل : إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك ، وقيل : مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت .

والظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرّب المفيد معنى الحجر والطين ، والسجل بمعنى الكتاب أيضاً منه فإنهم على ما

---

(١) الحجر : ٦٠ . (٢) الحجر : ٧٣ . (٣) الحجر : ٦٥ .

قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسمّي كل كتاب سجلاً وإن كان من قرطاس ، والإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك .

والنضد هو النظم والترتيب ، والتسويم جعل الشيء ذا علامة من السيماء بمعنى العلامة .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بالعذاب وهو أمره تعالى الملائكة بعذابهم وهو كلمة ﴿كن﴾ التي أشار إليها في قوله : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن﴾[1] ، جعلنا عالي أرضهم وبلادهم سافلها بتقليبها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود معلّمة عند ربك وفي علمه ليس لها أن تخطىء هدفها الذي رميت لأجل إصابته .

وذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم والإمطار بالسجيل عذّب به الغائبون منهم . وقيل : إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرئيل ليخسفها . وقيل : إنما أمطرت عليهم الحجارة بعدما قلبت قريتهم تغليظاً في العقوبة . والأقوال جميعاً من التحكم من غير دليل من اللفظ .

وفي قوله تعالى في غير هذا الموضع : ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾[2] ، فقد كان هناك قلب وصيحة وإمطار بالحجارة ومن الممكن أن يكون ذلك بحدوث بركان من البراكين بالقرب من بلادهم وتحدث به زلزلة في أرضهم وانفجار أرضي بصيحة توجب قلب مدنهم ، ويمطر البركان عليهم من قطعات الحجارة التي يثيرها ويرميها ، والله أعلم .

قوله تعالى : **﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾** قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل مكة أو المشركون من قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والكلام مسوق للتهديد ، والمعنى وليست هذه الحجارة من ظالمي مكة ببعيد أو المعنى : ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة والشام ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾[3] ، وقال : ﴿وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾[4] .

---

(١) يس : ٨٣ .
(٢) الحجر : ٧٣ .
(٣) الحجر : ٧٦ .
(٤) الصافات : ١٣٨ .

ويؤيده العدول من سياق التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿مسوّمة عند ربك﴾ فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا : مسوّمة عندنا ، إلى هذا التعبير ليتعرض لقومه ﷺ بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسّهم ليكون أقوى تأثيراً في الحجاج عليهم .

وربما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين والمراد أنه ليست الحجارة أي إمطارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين ومنهم قوم لوط الظالمون ببعيد ، ويكون وجه الالتفات في قوله : ﴿عند ربك﴾ أيضاً التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن زكريا بن محمد [عن أبيه] عن عمرو عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله فطلبهم إبليس الطلب الشديد ، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا خرّب إبليس ما يعملون .

فقالوا بعضهم لبعض : تعالوا نرصد هذا الذي يخرّب متاعنا فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا له : أنت الذي تخرّب متاعنا مرة بعد أخرى ، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيّتوه عند رجل فلما كان الليل صاح له فقال له : مالك ؟ فقال : فإن أبي ينوّمني على بطنه فقال له : تعالى فنم على بطني .

قال : فلم يزل يدلك الرجل حتى علمه أن يفعل بنفسه فأولاً علمه إبليس والثاني علمه هو ثم انسل يفر منهم ، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعجبهم منه وهم لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم حتى تنكّب مدينتهم الناس ثم تركوا نساءهم وأقبلوا عل الغلمان .

فلما رآى أنه قد أحكم أمره في الرجال جاء إلى النساء فصيّر نفسه امرأة فقال لهنّ : إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض ؟ قلن : نعم رأينا ذلك وكل ذلك

يعظهم لوط ويوصيهم وإبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء .

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية فمروا بلوط وهو يحرث . قال : أين تريدون ؟ ما رأيت أجمل منكم قط . فقالوا : إنا رسل سيدنا إلى رب هذه البلدة . قال : أولم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه القرية ؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم . قالوا : أمرنا سيدنا أن نمر وسطها . قال : فلي إليكم حاجة . قالوا : وما هي ؟ قال : تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام .

قال : فجلسوا . قال : فبعث ابنته . قال : فجيئي لهم بخبز وجيئي لهم بماء في القرعة وجيئي لهم بعباء يتغطون بها من البرد فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر والوادي فقال لوط : الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال : قوموا حتى نمضي ، وجعل لوط يمشي في أصل الحائط ، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق . قال : يا بني امشوا ههنا فقالوا : أمرنا سيدنا أن نمر في وسطها وكان لوط يستغنم الظلام .

ومر إبليس فأخذ من حجر امرأة صبياً فطرحه في البئر فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط فلما أن نظروا إلى الغلمان في منزل لوط قالوا : يا لوط قد دخلت في عملنا ؟ فقال : هؤلاء ضيفي فلا تفضحون في ضيفي . قالوا : هم ثلاثة خذ واحداً وأعطنا اثنين . قال : وأدخلهم الحجرة وقال : لو أن لي أهل بيت تمنعوني منكم .

قال : وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً فقال له جبرئيل : إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأخذ كفاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال : شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط : يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم ؟ قالوا : أمرنا أن نأخذهم بالسحر . قال : فلي إليكم حاجة . قالوا : وما حاجتك ؟ قال : تأخذوهم الساعة فإني أخاف أن يبدوا لربي فيهم . فقالوا : يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك .

فقال أبو جعفر عليه السلام : رحم الله لوطاً لو علم من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث يقول : ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي ركن أشد

من جبرئيل معه في الحجرة ؟ فقال عز وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ من ظالمي أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من ألحّ في وطي الرجال لم يمت حتى يدعو الرجال إلى نفسه .

أقول : والرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة ، وفي بعض الروايات ـ كالرواية المذكورة في الباب السابق عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام أنهم كانوا أربعة بزيادة كروبيل ، وفي بعض الروايات من طرق أهل السنّة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل وميكائيل ورفائيل ، والظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط : ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ الخ خطاباً منه للملائكة لا للقوم ، وقد تقدمت الإشارة إليه في بيان الآيات .

وقوله عليه السلام : رحم الله لوطاً لو علم «الخ» في معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ على ما روي عنه ـ رحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

وقوله عليه السلام : فقال عزّ وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الخ إشارة إلى ما تقدم من احتمال كون الآية ، مسوقاً لتهديد قريش .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ قال : ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلا رماه الله جندلة من تلك الحجارة تكون منيته فيه ولكن الخلق لا يرونه .

أقول : وروى في الكافي بإسناده عن ميمون البان عنه عليه السلام مثله . وفيه من بات مصرّاً على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته ولا يراه أحد ، وفي الحديثين إشعار بكون قوله : ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ غير خاص بقريش ، وإشعار بكون العذاب المذكور روحانياً غير مادي .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام في قول لوط : ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ قال : عرض عليهم التزويج .

وفي التهذيب عن الرضا عليه السلام : عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال : أحلتها آية من كتاب الله عز وجل : قول لوط : ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ قد علم أنهم لا يريدون الفرج .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب

فقال : عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته إنه إن كفّ يده عنهم كف يداً واحدة ، وكفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية : ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ .

قال علي رضي الله عنه : والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه .

أقول : وآخر الرواية مروي من طرق أهل السنّة والشيعة .

وفي الكافي ـ في حديث أبي يزيد الحمّار عن أبي جعفر عليه السلام المنقول في البحث الروائي السابق ـ قال : فأتوا يعني الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمون فلما رأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم : المنزل فقالوا : نعم فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال : أي شيء صنعت ؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم ؟ فقال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . قال جبرئيل : لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات . فقال جبرئيل : هذه واحدة فمشى ساعة ثم التفت إليهم فقال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبرئيل : هذه ثنتان . ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم ثم قال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرئيل : هذه الثالثة ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله .

فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب فنزلت إليهم فقالت : عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة فجاءوا إلى الباب ليدخلوا .

فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم : يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ؟ ثم قال : هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا : ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، فقال لهم : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، فقال جبرئيل : لو يعلم أي قوة له .

فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال : يا لوط دعهم

يدخلون فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل : ﴿فطمسنا أعينهم﴾ ثم ناداه جبرئيل فقال له : إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل . وقال له جبرئيل : إنا بعثنا في إهلاكهم فقال : يا جبرئيل عجّل فقال : إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .

فأمره يتحمل ومن معه إلا امرأته ثم اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب وصراخ الديوك ثم قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة بحجارة من سجيل .

أقول : وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وصراخ ديوكهم أمر خارق للعادة ، وهو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنه مما لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد .

على أن السنّة الإلهية جارية على أن تقتفي في الكرامات والمعجزات الحكمة وأي حكمة في رفعهم إلى هذا الحد ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده ؟ .

وقول بعض أهل الكلام : من الجائز أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة لطفاً من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقرِّباً للمؤمنين إلى الطاعة مبعّداً لهم من المعصية كلام مدخول فإن خلق الأُمور العظيمة المعجبة والحوادث الخارقة للعادة ليتأكد بها إيمان المؤمنين ويعتبر بها المعتبرون وإن كان لا يخلو من لطف إلا أنه إنما يكون لطفاً فيما كان بلوغه لهم من طريق الحسّ أو أي طريق علمي آخر ، وأما رواية واحدة أو ضعيفة وهي خالية عن الحجّية لا يعبأ بها فلا معنى لإيجاد الأُمور الخارقة والحوادث العجيبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها ، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنّة الجهّال من طغاة البشر وجبابرتهم .

قال صاحب المنار في تفسيره : وفي خرافات المفسّرين المروية عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلباً مستوياً فجعل عاليها سافلها .

وهذا تصوّر مبني على اعتقاد متصوره أن الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان ويبقون أحياء ، وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها أن الطيارات والمناطيد التي تحلق في الجو تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها ، وهم يصنعون أنواعاً منها يصنعون فيها من اكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها .

وقد أُشير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر عن عسر التنفس بقوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء﴾ .

فإن قيل : إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصحّ أن يجعل تصديقه موقوفاً على ما عرف من سنن الكائنات .

قلت : نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علّة على الأقل ، ولم يذكر في كتاب الله تعالى ، ولم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيّه ﷺ ، ولا تظهر حكمة الله فيه ، وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة . ولا شك أنه من الإسرائيليات .

ومما قالوه فيها : أن عدد أهلها كان أربعة آلاف وبلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد ، فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع ؟ انتهى .

والذي ذكره أن الحديث إنما روي عن التابعين دون الصحابة فإنه أن هذا المعنى مرويّ عن ابن عباس وعن الحذيفة بن اليمان ، ففي رواية ابن عباس ـ كما في الدرّ المنثور عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحّاك عنه ـ ﴿فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها فحواها وطواها ثم قلعها من تخوم الثرى

ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلى السماء الدنيا فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير والنساء والرجال من تحت جناح جبرئيل ثم أرسلها منكوسة ثم أتبعها بالحجارة ، وكانت الحجارة للرعاة والتجار ومن كان خارجاً عن مدائنهم» الحديث .

وفي رواية حذيفة بن اليمان ـ على ما في الدر المنثور عن عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ـ «فاستأذن جبرئيل في هلاكهم فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها ، وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم وأوقد تحتهم ناراً ثم قلبها بهم فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم فالتفتت فأصابها العذاب ، وتبعت سفارهم الحجارة» الحديث .

وأما من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي صالح ومحمد بن كعب القرظيّ وعن السدّيّ ما هو أغلظ من ذلك قال : «لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض» الحديث .

وأما ما ذكره من أنه «يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة» فمسألة أُصولية ، والذي استقر عليه النظر اليوم في المسألة أن الخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرينة قطعية فلا ريب في حجّيّتها ، وأما غير ذلك فلا حجّيّة فيه إلا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثوق الصدور بالظنّ النوعيّ فإن لها حجّيّة .

وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلائية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والأمور الاعتقادية لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علماً وتعبيد الناس بذلك ، والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلا الكليات وليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الأُصول .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

أقول : مقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور ، وظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه وبين قومه أن لوطاً إنما كان يتمنى أنصاراً أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقوله : ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ يريد به أنصاراً من غير القوم من عشيرة أو أخلّاء وأصدقاء في الله ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ولذلك لبّوه من غير فصل وقالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك .

ولم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربه وأن كل النصر من عنده حتى ينساه ويتمنى ناصراً غيره ، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم وقد قال الله تعالى في حقه : ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ إلى أن قال ﴿وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾[1] .

فقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إن كان ليأوى إلى ركن شديد» معناه أن معه جبرئيل وسائر الملائكة وهو لا يعلم بذلك ، وليس معناه أن معه الله سبحانه وهو جاهل بمقام ربه .

فما في بعض الروايات الناقلة للفظة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله تعالى . الحديث .

وكما عنه من طريق آخر قال : إن النبي ﷺ قال : «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد» ولعل فيه نقلاً بالمعنى وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : رحم الله لوطاً فغيّره الراوي إلى قوله : يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدباً من آداب العبودية أو أذنب ذنباً بجهله مقام ربه ونسيانه ما لم يكن له أن ينساه .

---

(١) الأنبياء : ٧٥ .

(كلام في قصة لوط وقومه في فصول)

١ ـ قصته وقصة قومه في القرآن : كان لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل ومن السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم عليه السلام آمن به وقال : إني مهاجر إلى ربي[1] فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين[2] فنزل في بعض بلادها (وهي مدينة سدوم على ما في التواريخ والتوراة وبعض الروايات) .

وكان أهل المدينة وما والاها من المدائن وقد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات[3] يعبدون الأصنام ، ويأتون بالفاحشة : اللواط ، وهم أول قوم شاع فيهم ذلك[4] حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار[5] ولم يزل تشيع الفاحشة فيهم حتى عادت سنة قومية ابتلت به عامتهم وتركوا النساء وقطعوا السبيل[6] .

فأرسل الله لوطاً إليهم[7] فدعاهم إلى تقوى الله وترك الفحشاء والرجوع إلى طريق الفطرة وأنذرهم وخوّفهم فلم يزدهم إلا عتواً ولم يكن جوابهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وهددوه بالإخراج من بلدتهم وقالوا له : لئن لم تنته لتكونن من المخرجين[8] وقالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون[9] .

٢ ـ عاقبة أمرهم : لم يزل لوط عليه السلام يدعوهم إلى سبيل الله وملازمة سنّة الفطرة وترك الفحشاء وهم يصرون على عملٍ الخبائث حتى استقر بهم الطغيان وحقت عليهم كلمة العذاب فبعث الله رسلاً من الملائكة المكرمين لإهلاكهم فنزلوا أولاً على إبراهيم عليه السلام وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجادلهم إبراهيم عليه السلام لعله يرد بذلك عنهم العذاب ، وذكرهم بأن فيهم لوطاً فردوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط وأهله ، وأنه قد جاء أمر الله وأن القوم آتيهم عذاب غير مردود[10] .

---

(١) العنكبوت : ٢٦ . (٤) الأعراف : ٨٠ . (٨) الشعراء : ١٦٧ .
(٢) الأنبياء : ٧١ . (٥ و٦) العنكبوت : ٢٩ . (٩) النمل : ٥٦ .
(٣) التوبة : ٧٠ . (٧) الشعراء : ١٦٢ . (١٠) العنكبوت : ٣٢ ، هود : ٧٦ .

فمضوا إلى لوط في صور غلمان مرد ودخلوا عليه ضيفاً فشق ذلك على لوط وضاق بهم ذرعاً لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرضون لهم وأنهم غير تاركيهم البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك وأقبلوا يهرعون إليه وهم يستبشرون وهجموا على داره فخرج إليهم وبالغ في وعظهم واستثارة فتوتهم ورشدهم حتى عرض عليهم بناته وقال : يا قوم إن هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ثم استغاث وقال : أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربة وأنهم غير تاركي أضيافه البتة حتى أيس لوط وقال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد[١] .

قالت الملائكة عند ذلك: يا لوط إنا رسل ربك طب نفساً إن القوم لن يصلوا إليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عمياناً يتخبطون وتفرقوا[٢] .

ثم أمروا لوطاً عليه السلام أن يسري بأهله من ليلته بقطع من الليل ويتبع أدبارهم ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبها ما أصابهم ، وأخبروه أنهم سيهلكون القوم مصبحين[٣] .

فأخذت الصيحة القوم مشرقين ، وأرسل الله عليهم حجارة من طين مسوّمة عند ربك للمسرفين ، وقلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط وترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (الذاريات : ٣٧ ـ وغيرها) .

وفي اختصاص الإيمان والإسلام بيت لوط عليه السلام ، وشمول العذاب لمدائنهم دلالة ـ أولاً ـ على أن القوم كانوا كفاراً غير مؤمنين و ـ ثانياً ـ على أن الفحشاء ما كانت شائعة فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك والنساء بريئات منها وكان لوط يدعو الناس إلى الرجوع إلى سبيل الفطرة وسنّة الخلقة التي هي مواصلة الرجال والنساء لاتّبعته عدّة من النساء واجتمعن حوله وآمنّ به طبعاً ، ولم يذكر من ذلك شيء في كلامه سبحانه .

وفي ذلك تصديق ما تقدم في الأخبار المأثورة أن الفحشاء شاعت بينهم ، واكتفى الرجال بالرجال باللواط ، والنساء بالنساء بالسحق .

---

(١) هود : ٨٠ . (٢) القمر : ٣٧ . (٣) هود : ٨١ ، الحجر : ٦٦ .

٣ ـ شخصية لوط المعنوية : كان ﷺ رسولاً من الله إلى أهل المؤتفكات وهي مدينة سدوم وما والاها من المدائن ـ ويقال : كانت أربع مداين : سدوم وعمورة وصوغر وصبوييم وقد أشركه في جميع المقامات الروحية التي وصف بها أنبياءه الكرام .

ومما وصفه به خاصة ما في قوله : ﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾[١] .

٤ ـ لوط وقومه في التوراة : ذكرت[٢] التوراة أن لوطاً كان ابن أخي أبرام ـ إبراهيم ـ هاران بن تارخ وكان هو وأبرام في بيت تارخ في أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصداً أرض الكنعانيين فأقام بلدة حاران ومعه أبرام ولوط ومات هناك .

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران ومعه لوط ولهما مال كثير وغلمان اكتسبا ذلك في حاران فأتى أرض كنعان ، وكان يرتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب ، ثم أتى مصر ، ثم صعد من هناك جنوباً نحو بيت إيل فأقام هناك .

ولوط السائر مع أبرام أيضاً كان له غنم وبقر وخيام ولم يحتملهما الأرض أن يسكنا ووقعت مخاصمة بين رعاة مواشيهما فتفرقا فأحذرا من وقوع النزاع والتشاجر فاختار لوط دائرة الأردن وسكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم ، وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً ، ونقل أبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون .

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم وعمورة وإدمة وصبوييم ، وصوغر من جانب وأربعة من جيرانهم من جانب ، انهزم فيها ملك سدوم ومن معه من الملوك ، وأخذ العدوّ جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ، وأسر لوط فيمن أسر وسبي جميع أمواله ، وانتهى الخبر إلى أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان ، وكانوا يزيدون على ثلاث مائة فحاربهم وهزمهم ، وأنجى لوطاً وجميع

---

(١) الأنبياء : ٧٥ .

(٢) الإصحاح الحادي عشر والثاني عشر من سفر التكوين .

أمواله من الأسر والسبي ، وردّه إلى مكانه الذي كان مقيماً فيه (ملخّص ما في التوراة من صدر قصة لوط) .

قالت التوراة[1] : وظهر له ـ لأبرام ـ الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار . فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه . فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض . وقال : يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك . ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت هذه الشجرة . فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال : أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً اعجني واصنعي خبز ملّة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيّداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم . وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

وقالوا له : أين سارة امرأتك ، فقال : ها هي في الخيمة ، فقال : إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه . وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعّم وسيّدي قد شاخ ؟ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت ؟ هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكن لسارة ابن ، فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ، لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت .

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم . فقال الرب : هل أخفي عن إبراهيم ما أنافاعله ؟ وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ، لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به .

فقال الرب : إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً : أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم . وانصرف

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين .

الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم . وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب .

فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البارّ مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارّاً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارّاً الذين فيه ؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البارّ مع الأثيم فيكون البارّ كالأثيم ، حاشاك . أديّان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟ فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين بارّاً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم .

فأجاب إبراهيم وقال : إني قد شرعت أُكلم المولى وأنا تراب ورماد ربما نقص الخمسون بارّاً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال الرب : لا أُهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون ، فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إني قد شرعت أُكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون ، فقال : لا أُهلك من أجل العشرين .

فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة ، فقال : لا أُهلك من أجل العشرة . وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه .

فجاء[1] الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض . وقال : يا سيّديّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، فقالا : لا بل في الساحة نبيت ، فألح عليهما جداً ، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا .

وقبل ما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها فنادوا لوطاً وقالوا له : أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما . فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه . وقال : لا تفعلوا شراً يا إخوتي . هوذا لي ابنتان لم يعرفا رجلاً أُخرجهما

(١) الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين .

إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم ، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي .

فقالوا : إبعد إلى هناك . ثم قالوا : جاء هذا الإنسان ليتغرّب وهو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شراً أكثر منهما . فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب .

وقال الرجلان للوط : من لك أيضاً ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكهم . فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال : قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة ، فكان كمازح في أعين أصهاره .

ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين : قم خذ امرأتك وابنتيك . الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة . ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه وضعاه خارج المدينة .

وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال : اهرب لحياتك . ولا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة . أهرب إلى الجبل لئلا تهلك فقال لهما لوط : لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي . وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر بدركني فأموت . هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها . وهي صغيرة أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي . فقال له : إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . أسرع أهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك ـ لذلك دعي اسم المدينة صوغر .

وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح .

وبكّر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة . ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم . وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط .

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلّم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي .نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً . وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما .

فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيّين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمّى وهو أبو بني عمّون إلى اليوم . انتهى .

هذا ما قصته التوراة في لوط وقومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصة ومن وجوه غيرها .

ففيها : كون الملك المرسل للبشرى والعذاب ملكين اثنين . وقد عبر القرآن بالرسل ـ بلفظ الجمع وأقله ثلاثة .

وفيها : أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه وقدمه إليهم ، والقرآن ينفي ذلك ويقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل إليه .

وفيها : إثبات بنتين للوط ، والقرآن يعبر بلفظ البنات. وفيها كيفية إخراج الملائكة لوطاً وكيفية تعذيب القوم وصيرورة المرأة عموداً من ملح وغير ذلك .

وفيها : نسبة التجسم صريحة إلى الله سبحانه ، وما ذكرته من قصة لوط مع بنتيه أخيراً ، والقرآن ينزّه ساحة الحق سبحانه عن التجسم ويبرىء أنبياءه ورسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحة قدسهم .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَيكُمْ بَخيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَآ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيٓ أَمْوَالِنَا مَا نَشَٰؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَيكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوآ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَيكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوآ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) .

(بيـان)

تـذكر الآيـات قصة شعيب عليه السلام وقـومه وهم أهـل مدين ، وكـانـوا يعبـدون الأصنام ، وكان قد شاع التطفيف في الكيل والـوزن عندهم واشتـد الفساد فيهم فأرسل الله سبحانه شعيباً عليه السلام إليهم فدعاهم إلى التوحيد وتوفية الميزان والمكيـال بالقسط وترك الفساد في الأرض ، وبشّرهم وأنذرهم وبالـغ في عظتهم وقـد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : كان شعيب خطيب الأنبياء .

فلم يجبـه القوم إلا بـالرد والعصيـان ، هددوه بـالـرجم والـطرد من بينهم وبالغوا في إيذائه وإيذاء شرذمة من الناس آمنوا به وصـدّهم عن سبيل الله ودامـوا على ذلك حتى سأل الله أن يقضي بينه وبينهم فأهلكهم الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿وإلى مدين أخـاهم شعيباً﴾ إلى آخـر الآية عـطف على ما تقـدمه من قصص الأنبيـاء وأممهم ، ومدين اسم مـدينة كـان يسكنها قـوم شعيب ففي نسبـة إرسال شعيب إلى مـدين وكان مـرسـلاً إلى أهله نـوع من المجـاز في الإسناد كقولنـا : جرى الميـزاب ، وفي عدّ شعيـب عليه السلام أخـاً لهم دلالة على أنـه كان ينتسب إليهم .

وقوله : ﴿قـال يا قـوم اعبدوا الله مـا لكم من إله غيـره﴾ تقدم تفسيـره في نظائره .

وقـوله : ﴿ولا تنقصـوا المكيال والميـزان﴾ المكيـال والميـزان اسمـا آلـة بمعنى مـا يكال بـه وما يـوزن به ، ولا يـوصفان بـالنقص وإنما يـوصف بـالنقص كـالزيـادة والمساواة المكيـل والموزون فنسبـة النقص إلى المكيـال والميـزان من المجاز العقلي .

وفي تخصيص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالـة على شيـوعه بينهم وإقبـالهم عليه وإفـراطهم فيـه بحيث ظهـر فسـاده وبـان شيء أثـره فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بـالذكـر

من بين المعاصي .

وقوله : ﴿إني أراكم بخير﴾ أي أشاهدكم في خير ، وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال والميزان ، واختلاس اليسير من أشياء الناس طمعاً في ذلك من غير سبيله المشروع وظلماً وعتوّاً ، وعلى هذا فقوله : ﴿إني أراكم بخير﴾ تعليل لقوله : ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ .

ويمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعناية الله معنيون بنعمة آتاكم عقلاً ورشداً ورزقكم رزقاً فلا مسوّغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشركوا به غيره ، وأن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال والميزان ، وعلى هذا يكون تعليلاً لما تقدمه من الجملتين أعني قوله : ﴿اعبدوا الله﴾ الخ ، وقوله : ﴿ولا تنقصوا﴾ الخ ، كما أن قوله : ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ كذلك .

فمحصل قوله : ﴿إني أراكم﴾ إلى آخر الآية أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصية الله : أحدهما : أنكم في خير ولا حاجة لكم إلى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها . وثانيهما : أن وراء مخالفة أمر الله يوماً محيطاً يخاف عذابه .

وليس من البعيد أن يراد بقوله : ﴿إني أراكم بخير﴾ أني أراكم برؤية خير أي أنظر إليكم نظر الناصح المشفق الذي لا يصاحب نظره إلا الخير ولا يريد بكم غير السعادة ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ كعطف التفسير بالنسبة إليه .

وقوله : ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ يشير به إلى يوم القيامة أو يوم نزول عذاب الاستئصال ومعنى كون اليوم ـ وهو يوم القضاء بالعذاب ـ محيطاً أنه لا مخرج منه ولا مفر ولا ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر ولا معين ، ولا ينفع فيه توبة ولا شفاعة ، ويؤول معنى الإحاطة إلى كون العذاب قطعياً لا مناص منه ، ومعنى الآية أن للكفر والفسوق عذاباً غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ الخ ، الإيفاء إعطاء الحق بتمامه والبخس النقص كرر القول في المكيال والميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغة في الاهتمام بأمر لا غنى

لمجتمعهم عنه ، وذلك أنه دعاهم أولاً إلى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال والميزان ، وعاد ثانياً فأمر بإيفاء المكيال والميزان ونهى عن بخس الناس أشياءهم إشارة إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه ـ وإنما نهى عنه أولاً لتكون معرفة إجمالية هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلاً ـ بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه ويعطياهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسوبة إلى الناس بالمعاملة حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم وردا إليهم مالهم على ما هو عليه .

وقوله : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ قال الراغب : العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يُقال في الفساد الذي يدرك حساً والعثي فيما يدرك حكماً يقال : عثي يعثى عثياً ، وعلى هذا ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ وعثا يعثو عثواً . انتهى .

وعلى هذا فقوله : ﴿مفسدين﴾ حال من ضمير ﴿لا تعثوا﴾ لإفادة التأكيد نظير ما يفيده قولنا : لا تفسدوا إفساداً .

والجملة أعني قوله : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهي مستأنف عن الفساد في الأرض من قتل أو جرح أو أي ظلم مالي أو جاهي أو عرضي لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجملة عطفاً تفسيرياً للنهي السابق فيكون نهياً تأكيدياً عن التطفيف ونقص المكيال والميزان لأنه من الفساد في الأرض .

بيان ذلك: إن الاجتماع المدني الدائر بين أفراد النوع الإنساني مبني على المبادلة حقيقة فما من مواصلة ومرابطة بين فردين من أفراد النوع إلا وفيه إعطاء وأخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شؤون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه ، ويدفع إليه نفعاً ليجذب منه إلى نفسه نفعاً وهو المعاملة والمبادلة .

ومن أظهر مصاديق هذه المبادلة المعاملات المالية وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سنّة المبادلة فيه .

فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشرى من أركان حياة الإنسان الاجتماعية يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه في حياته الضرورية بالكيل أو

لمجتمعهم عنه ، وذلك أنه دعاهم أولاً إلى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال والميزان ، وعاد ثانياً فأمر بإيفاء المكيال والميزان ونهى عن بخس الناس أشياءهم إشارة إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه ـ وإنما نهى عنه أولاً لتكون معرفة إجمالية هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلاً ـ بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه ويعطياهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسوبة إلى الناس بالمعاملة حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم وردا إليهم مالهم على ما هو عليه .

وقوله : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ قال الراغب : العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يُقال في الفساد الذي يدرك حساً والعثي فيما يدرك حكماً يقال : عثي يعثى عثياً ، وعلى هذا ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ وعثا يعثو عثواً . انتهى .

وعلى هذا فقوله : ﴿مفسدين﴾ حال من ضمير ﴿لا تعثوا﴾ لإفادة التأكيد نظير ما يفيده قولنا : لا تفسدوا إفساداً .

والجملة أعني قوله : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهي مستأنف عن الفساد في الأرض من قتل أو جرح أو أي ظلم مالي أو جاهي أو عرضي لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجملة عطفاً تفسيرياً للنهي السابق فيكون نهياً تأكيدياً عن التطفيف ونقص المكيال والميزان لأنه من الفساد في الأرض .

بيان ذلك: إن الاجتماع المدني الدائر بين أفراد النوع الإنساني مبني على المبادلة حقيقة فما من مواصلة ومرابطة بين فردين من أفراد النوع إلا وفيه إعطاء وأخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شؤون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه ، ويدفع إليه نفعاً ليجذب منه إلى نفسه نفعاً وهو المعاملة والمبادلة .

ومن أظهر مصاديق هذه المبادلة المعاملات المالية وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سنة المبادلة فيه .

فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشرى من أركان حياة الإنسان الاجتماعية يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه في حياته الضرورية بالكيل أو

الوزن ، وما يجب عليه أن يبذله في حذائه من الثمن ثم يسير في حياته بانياً لها على هذا التقدير والتدبير .

فإذا خانه معامله ونقص المكيال والميزان من حيث لا يشعر هو فقد أفسد تدبيره وأبطل تقديره ، واختل بذلك نظام معيشته من الجهتين معاً من جهة ما يقتنيه من لوازم الحياة بالاشتراء ومن جهة ما يبذله من الثمن الزائد الذي يتعب نفسه في تحصيله بالاكتساب فيسلب إصابة النظر وحسن التدبير في حياته ويتخبط في مسيرها خبط العشواء وهو الفساد .

وإذا شاع ذلك في مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم ولم يلبثوا دون أن يسلبوا الوثوق والاطمئنان واعتماد بعضهم على بعض ويرتحل بذلك الأمن العام من بينهم وهو النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح والمطفف والذي يوفي المكيال والميزان على حد سواء ، وعاد بذلك اجتماعهم اجتماعاً على المكر وإفساد الحياة لا اجتماعاً على التعاون لسعادتها ، قال تعالى : ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ البقية بمعنى الباقي والمراد به الربح الحاصل للبائع وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة فيضعه في سبيل حوائجه ، وذلك أن المبادلة وإن لم توضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح ، وإنما كان الواحد منهم يقتني شيئاً من متاع الحياة ، فإذا كان يزيد على ما يحتاج إليه بذّل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج إليه ولا يملكه ثم أخذت نفس التجارة وتبديل الأمتعة من الأثمان حرفة يكتسب بها المال وتقتنى بها الثروة فأخذ الواحد منهم متاعاً من نوع واحد أو أنواع شتى وعرضه على أرباب الحاجة للمبادلة ، وأضاف إلى رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع والعرض ورضي بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل أمر المبادلة عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته ويحوّل إليه ثروة يقتنيها ويقيم بها صلب حياته .

فالمراد أن الربح الذي هو بقية إلهية هداكم الله إليه من طريق فطرتكم هو

---

(١) الإسراء : ٣٥ .

خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف ونقص المكيال والميزان إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله إليه من طريق حله ، وأما غير ذلك مما لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه ولا حاجة له إليه .

وقيل : إن الاشتراط بالإيمان في قوله : ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ للدلالة على اشتراط الإيمان للعلم بذلك لا لأصله والمعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحة قولي : إن بقية الله خير لكم .

وقيل : معنى الآية ثواب طاعة الله ـ بكون البقية بمعنى ثواب الطاعة الباقي ـ خير لكم إن كنتم مؤمنين . وقيل غير ذلك .

وقوله : ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي وما يرجع إلى قدرتي شيء مما عندكم من نفس أو عمل أو طاعة أو رزق ونعمة فإنما أنا رسول ليس عليه إلا البلاغ ، لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم وخيركم أو تسقطوا في مهبط الهلكة من غير أن أقدر على جلب خير إليكم أو دفع شر منكم فهو كقوله تعالى : ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ إلى آخر الآية ، ردّ منهم لحجة شعيب عليه ، وهو من ألطف التركيب ، ومغزى مرادهم أنّا في حرية فيما نختاره لأنفسنا من دين أو نتصرف به في أموالنا من وجوه التصرف ولست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت أو تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شيء مما تشاهد منا بما تصلّي وتتقرب إلى ربك وأردت أن تأمر وتنهى فلا تتعدّ نفسك لأنك لا تملك إلا إياها .

وقد أدّوا مرادهم هذا في صورة بديعة مشوبة بالتهكم واللوم معاً ومسبوكة في قالب الاستفهام الإنكاري وهو أن الذي تريده منا من ترك عبادة الأصنام ، وترك ما شئنا من التصرف في أموالنا هو الذي بعثتك إليه صلاتك وشوهته في عينك فأمرتك به لما أنها ملكتك لكنك أردت منا ما أرادته منك صلاتك ولست تملكنا أنت ولا صلاتك لأننا أحرار في شعورنا وإرادتنا لنا أن نختار أي دين شئنا ونتصرف في أموالنا أي تصرف أردنا من غير حجر ولا منع ولم ننتحل إلا ديننا

---

(١) الأنعام : ١٠٤ .

الذي هو دين آبائنا ولم نتصرف إلا في أموالنا ولا حجر على ذي مال في ماله .

فما معنى أن تأمرك إياك صلاتك بشيء ونكون نحن الممتثلون لما أمرتك به ؟ وبعبارة أخرى ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك ؟ فهل هذا إلا سفهاً من الرأي ؟ وإنك لأنت الحليم الرشيد والحليم لا يعجل في زجر من يراه مسيئاً وانتقام من يراه مجرماً حتى ينجلي له وجه الصواب ، والرشيد لا يقدم على أمر فيه غيّ وضلال فكيف أقدمت على مثل هذا الأمر السفهي الذي لا صورة له إلا الجهالة والغي ؟ .

وقد ظهر بهذا البيان **أولاً** : أنهم إنما نسبوا الأمر إلى الصلاة لما فيها من البعث والدعوة إلى معارضة القوم في عبادتهم الأصنام ونقصهم المكيال والميزان ، وهذا هو السر في تعبيرهم عن ذلك بقولهم : ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك﴾ الخ ، دون أن يقولوا : أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ مع أن التعبير عن المنع بالنهي عن الفعل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك ولذلك عبّر عنه شعيب بالنهي في جوابه عن قولهم إذ قال : ﴿وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ ولم يقل إلى ما آمركم بتركه . والمراد ـ على أي حال ـ منعه إياهم عن عبادة الأصنام والتطفيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآية التي ملئت لطافة وحسناً .

وثانياً : أنهم إنما قالوا : ﴿أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ دون أن يقولوا : أن نترك آلهتنا أو أن نترك الأوثان ليشيروا بذلك إلى الحجة في ذلك وهي أن هذه الأصنام دام على عبادتها آباؤنا فهي سنّة قومية لنا ، ولا ضير في الجري على سنّة قومية ورثها الخلف من السلف ، ونشأ عليها الجيل بعد الجيل فإنا نعبد آلهتنا وندوم على ديننا وهو دين آبائنا ونحفظ رسماً مليّاً عن الضيعة .

وثالثاً : أنهم إنما قالوا : ﴿أن نفعل في أموالنا﴾ فذكروا الأموال مضافة إلى أنفسهم ليكون في ذلك إيماء إلى الحجة فإن الشيء إذا صار مالاً لأحد لم يشك ذو ريب في أن له أن يتصرف فيه وليس لغيره ممن يعترف بماليته له أن يعارضه في ذلك ، وللمرء أن يسير في مسير الحياة ويتدبّر في أمر المعيشة بما يستطيعه من الحذق والاحتيال ، ويهديه إليه الذكاء والكياسة .

ورابعاً : أن قولهم : ﴿أصلاتك تأمرك﴾ إلى قوله ﴿إنك لأنت الحليم

الرشيد﴾ مبنيٌ على التهكم والاستهزاء إلا أن التهكم في تعليقهم أمر الصلاة شعيباً على تركهم ما يعبد آباؤهم ، وكذا في نسبة الأمر إلى الصلاة لا غير ، وأما نسبة الحلم والرشد إليه فليس فيها تهكم واستهزاء ، ولذلك أكد قوله : **﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾** بإن واللام وإتيان الخبر جملة اسمية ليكون أقوى في إثبات الحلم والرشد له فيصير أبلغ في ملامته والإنكار عليه ، وأن الذي لا شك في حلمه ورشده قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهي ، وينتهض على سلب حرية الناس واستقلالهم في الشعور والإرادة .

وظهر بذلك أن ما ذكره كثير منهم أنهم وصفوه بالحلم والرشد على سبيل الاستهزاء يعنون به أنه موصوف بضدّهما وهو الجهالة والغيّ . ليس بصواب .

قوله تعالى : **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً﴾** إلى آخر الآية ، المراد بكونه على بيّنة من ربه كونه على آية بيّنة وهي آية النبوّة والمعجزة الدالة على صدق النبيّ في دعوى النبوّة ، والمراد بكونه رزق من الله رزقاً حسناً أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة المشتمل على أصول المعارف والشرائع ، وقد مرَّ توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدَّم .

والمعنى : أخبروني إن كنت رسولاً من الله إليكم وخصّني بوحي المعارف والشرائع وأيّدني بآية بيّنة يدلّ على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي ؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفيهة ؟ وهل في ذلك تحكّم مني عليكم أو سلب مني لحريتكم ؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء ولستم بأحرار بالنسبة إليه بل أنتم عباده يأمركم بما شاء ، وله الحكم وإليه ترجعون .

وقوله : **﴿وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾** تعدية المخالفة بإلى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالميل ونحوه ؟ والتقدير : أُخالفكم مائلاً إلى ما أنهاكم عنه أو أميل إلى ما أنهاكم عنه مخالفاً لكم .

والجملة جواب عن ما اتّهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحرية في أعمالهم ويستعبدهم ويتحكم عليهم ، ومحصّله أنه لو كان مريداً ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه، وهو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتّهموه به وإنما يريد الإصلاح ما استطاع .

توضيحه : إن الصنع الإلهي وإن أنشأ الإنسان مختاراً في فعله حرّاً في

عمله له أن يميل في مظانّ العمل إلى كل من جانبي الفعل والترك فله بحسب هذه النشأة حرية تامة بالقياس إلى بني نوعه الذين هم أمثاله وأشباهه في الخلقة لهم ما له وعليهم ما عليه فليس لأحد أن يتحكم على آخر عن هوى من نفسه .

إلا أنه أفطره على الاجتماع فلا تتم له الحياة إلا في مجتمع من أفراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختص كل منهم بما له من نصيب بمقدار ما له من الزنة الاجتماعية ، ومن البديهيّ أن الاجتماع لا يقوم على ساق إلا بسنن وقوانين تجري فيها ، وحكومة يتولاها بعضهم تحفظ النظم وتجري القوانين كل ذلك على حسب ما تدعو إليه مصالح المجتمع .

فلا مناص من أن يفدي المجتمعون بعض حريتهم قبال القانون والسنّة الجارية بالحرمان من الانطلاق والاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشتهياتهم وإحياء البعض الباقي من حريتهم .

فالإنسان الاجتماعي لا حرية له قبال المسائل الحيوية التي تدعو إليه مصالح المجتمع ومنافعه ، والذي يتحكمه الحكومة في ذلك من الأمر والنهي ليس من الاستعباد والاستكبار في شيء إذ إنها إنما يتحكم فيما لا حرية للإنسان الاجتماعي فيه ، وكذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع أو لا ينفع لإبطاله ركناً من أركان المصالح الأساسية فيها فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به ونهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكماً عن هوى النفس مستعبداً للأحرار المجتمعين من بني نوعه فإنه لا حرية لهم قبال المصالح العالية والأحكام اللازمة المراعاة في مجتمعهم ، وليس ما يلقيه إليهم من الأمر والنهي في هذا الباب أمراً أو نهياً له في الحقيقة بل كان أمراً ونهياً ناشئين عن دعوة المصالح المذكورة قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعة ، وإنما الواحد الذي يلقي إليهم الأمر والنهي بمنزلة لسان ناطق لا يزيد على ذلك .

وإمارة ذلك أن يأتمر هو نفسه بما يأمر به وينتهي هو نفسه عما ينهى عنه من غير أن يخالف قوله فعله ونظره عمله ، إذ الإنسان مطبوع على التحفظ على منافعه ورعاية مصالحه فلو كان فيما يدعو إليه غيره من العمل خير وهو مشترك بينهما لم يخالفه بشخصه ، ولم يترك لنفسه ما يستحسنه لغيره ، ولذلك قال عليه السلام

فيما ألقاه إليهم من الجواب : ﴿وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ وقال أيضاً كما حكاه الله تتميماً للفائدة ودفعاً لأي تهمة تتوجه إليه : ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾[1] .

فهو ﷺ يشير بقوله : ﴿وما أُريد أن أُخالفكم﴾ الخ ، إلى أن الذي ينهاهم عنه من الأمور التي فيه صلاح مجتمعهم الذي هو أحد أفراده ، ويجب على الجميع مراعاتها وملازمتها ، وليس اقتراحاً استعبادياً عن هوى من نفسه ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ .

وملخص المقام أنهم لما سمعوا من شعيب ﷺ الدعوة إلى ترك عبادة الأصنام والتطفيف ردوه بأن ذلك اقتراح منه مخالف لما هم عليه من الحرية الإنسانية التي تسوّغ لهم أن يعبدوا من شاءوا ويفعلوا في أموالهم ما شاءوا .

فرد عليهم شعيب ﷺ بأن الذي يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه حتى ينافي مسألتهم ذلك حريتهم ويبطل به استقلالهم في الشعور والإرادة بل هو رسول من ربهم إليهم وله على ذلك آية بينة ، والذي أتاهم به من عند الله الذي يملكهم ويملك كل شيء وهم عباده لا حرية لهم قباله ، ولا خيرة لهم فيما يريده منهم .

على أن الذي ألقاه إليهم من الأمور التي فيها صلاح مجتمعهم وسعادة أنفسهم في الدنيا والآخرة ، وإمارة ذلك أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه بل هو مثلهم في العمل به ، وإنما يريد الإصلاح ما استطاع ، ولا يريد منهم على ذلك أجراً إن أجره إلا على رب العالمين .

وقوله : ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب﴾ في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنه ﷺ لما ذكر لهم أنه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ما له من الاستطاعة وفي ضوئها أثبت لنفسه استطاعة وقدرة وليست للعبد باستقلاله وحيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص والقصور بقوله : ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني من تدبير أُمور مجتمعكم وتوفيق الأسباب بعضها ببعض

---

(١) الشعراء : ١٨٠ .

الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه ولا مخرج من إحاطته ولا استقلال في أمر دونه فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الاستطاعة ، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه وتوفيقي به .

بيّن عليه السلام هذه الحقيقة ، واعترف بأن توفيقه بالله ، وذلك من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكل نفس والحافظ عليها والقائم على كل نفس بما كسبت كما قال : ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾[١] ، وقال : ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾[٢] ، وقال : ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[٣] ، وقال : ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾[٤] ومحصله أنه تعالى هو الذي أبدع الأشياء وأعمالها والروابط التي بينها وأظهرها بالوجود ، وهو الذي قبض على كل شيء فأمسكه وأمسك آثاره والروابط التي بينها أن تزول وتغيب وراء ستر البطلان .

ولازم ذلك أنه تعالى وكيل كل شيء في تدبير أموره فهي منسوبة إليه تعالى في تحققها وتحقق الروابط التي بينها لما أنه محيط بها قاهر عليها ، ولها مع ذلك نسبة إلى ذلك الشيء بإذنه تعالى .

ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقة أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربه والإنابة والرجوع إليه ، ولذلك لما ذكر شعيب عليه السلام أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل والإنابة فقال : ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

(كلام في معنى حرية الإنسان في عمله)

الإنسان بحسب الخلقة موجود ذو شعور وإرادة له أن يختار لنفسه ما يشاء من الفعل وبعبارة أخرى له في كل فعل يقف عليه أن يختار جانب الفعل وله أن يختار جانب الترك فكل فعل من الأفعال الممكنة الإتيان إذا عرض عليه كان هو بحسب الطبع واقفاً بالنسبة إليه على نقطة يلتقي فيها طريقان : الفعل والترك فهو مضطر في التلبس والاتصاف بأصل الاختيار لكنه مختار في الأفعال المنتسبة إليه

---

(١) الفاطر : ١ .
(٢) السبأ : ٢١ .
(٣) الرعد : ٣٣ .
(٤) فاطر : ٤١ .

الصادرة عنه باختياره أي إنه مطلق العنان بالنسبة إلى الفعل والترك بحسب الفطرة غير مقيّد بشيء من الجانبين ولا مغلول ، وهو المراد بحرية الإنسان تكويناً .

ولازم هذه الحرية التكوينية حرية أُخرى تشريعية يتقلد بها في حياته الاجتماعية وهو أن له أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياة ويعمل بما شاء من العمل ، وليس لأحد من بني نوعه أن يستعلي عليه فيستعبده ويتملك إرادته وعمله فيحمل بهوى نفسه عليه ما يكرهه فإن أفراد النوع أمثال لكل منهم ما لغيره من الطبيعة الحرة ، قال تعالى : ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾[1] وقال : ﴿وما كان لبشر﴾ إلى أن قال ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾[2] .

هذا ما للإنسان بالقياس إلى أمثاله من بني نوعه ، وأما بالقياس إلى العلل والأسباب الكونية التي أوجدت الطبيعة الإنسانية فلا حرية له قبالها فإنها تملكه وتحيط به من جميع الجهات وتقلبه ظهراً لبطن ، وهي التي بإنشائها ونفوذ أمرها فعلت بالإنسان ما فعلت فأظهرته على ما هو عليه من البنيان والخواص من غير أن يكون له الخيرة من أمره فيقبل ما يحبه ويردّ ما يكرهه بل كان كما أُريد لا كما أراد حتى إن أعمال الإنسان الاختيارية وهي ميدان الحرية الإنسانية إنما تطيع الإنسان فيما أذنت فيه هذه العلل والأسباب فليس كل ما أحبه الإنسان وأراده بواقع ولا هو في كل ما اختاره لنفسه بموفق له ، وهو ظاهر .

وهذه العلل والأسباب هي التي جهزت الإنسان بجهازات تذكره حوائجه ونواقص وجوده ، وتبعثه إلى أعمال فيها سعادته وارتفاع نواقصه وحوائجه كالغاذية مثلاً التي تذكره الجوع والعطش وتهديه إلى الخبز والماء لتحصيل الشبع والري وهكذا سائر الجهازات التي في وجوده .

ثم إن هذه العلل والأسباب أوجبت إيجاباً تشريعياً على الإنسان الفرد أموراً ذات مصالح واقعية لا يسعه إنكارها ولا الاستنكاف بالاستغناء عنها كالأكل والشرب والإيواء والاتقاء من الحر والبرد والدفاع تجاه كل ما يضاد منافع وجوده .

ثم أفطرته بالحياة الاجتماعية فأذعن بوجوب تأسيس المجتمع المنزلي والمدني والسير في مسير التعاون والتعامل ، ويضطره ذلك إلى الحرمان عن

(١ و ٢) آل عمران : ٦٤ و ٧٩ .

موهبة الحرية من جهتين :

إحداهما : أن الاجتماع لا يتم من الفرد إلا بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقاً متقابلة محترمة عنده ليعطوه بإزائها حقوقاً يحترمونها وذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له ، وينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم ، ويحرم عن الانطلاق والاسترسال في العمل على حسب ما يحرمهم فليس له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بل هو حرّ فيما لا يزاحم حرية الآخرين ، وهذا حرمان عن بعض الحرية للحصول على بعضها .

وثانيتهما : أن المجتمع لا يقوم له صلب دون أن يجري فيها سنن وقوانين يتسلمها الأفراد المجتمعون أو أكثرهم تضمن تلك السنن والقوانين منافعهم العامة بحسب ما للاجتماع من الحياة الراقية أو المنحطة الردية ، ويستحفظ بها مصالحهم العالية الاجتماعية .

ومن المعلوم أن احترام السنن والقوانين يسلب الحرية عن المجتمعين في مواردها فالذي يستنّ سنّة أو يقنّن قانوناً سواء كان هو عامة المجتمعين أو المندوبين منهم أو السلطان أو كان هو الله ورسوله ـ على حسب اختلاف السنن والقوانين ـ يحرم الناس بعض حريتهم ليحفظ به البعض الآخر منها ، قال الله تعالى : ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾[2] .

فتلخص أن الإنسان إنما هو حر بالقياس إلى أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوى من أنفسهم ، وأما بالنسبة إلى ما تقتضيه مصالحه الملزمة وخاصة المصالح الاجتماعية العامة على ما تهديه إليها وإلى مقتضياتها العلل والأسباب فلا حرية له البتة ، ولا أن الدعوة إلى سنّة أو أي عمل يوافق المصالح الإنسانية من ناحية القانون أو من بيده إجراؤه أو الناصح المتبرع الذي يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر متمسكاً بحجة بيّنة ، من التحكم الباطل وسلب الحرية المشروعة في شيء .

ثم إن العلل والأسباب المذكورة وما تهدي إليه من المصالح مصاديق

(١) القصص : ٦٨ . (٢) الأحزاب : ٣٦ .

لإرادة الله سبحانه أو إذنه ـ على ما يهدي إليه ويبيّنه تعليم التوحيد في الإسلام ـ فهو سبحانه المالك على الاطلاق ، وليس لغيره إلا المملوكية من كل جهة ، ولا للإنسان إلا العبودية محضاً فمالكيته المطلقة تسلب أي حرية متوهمة للإنسان بالنسبة إلى ربه كما أنها هي تعطيه الحرية بالقياس إلى سائر بني نوعه كما قال تعالى : ﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾(١) .

فهو سبحانه الحاكم على الإطلاق والمطاع من غير قيد وشرط كما قال : ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وقد أعطى حق الأمر والنهي والطاعة لرسله ولأولي الأمر وللمؤمنين من الأمة الإسلامية فلا حرية لأحد قبال كلمة الحق التي يأتون به ويدعون إليه ، قال تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾ الجرم بالفتح فالسكون ـ على ما ذكره الراغب ـ قطع الثمرة عن الشجر وقد استعير لكل اكتساب مكروه ، والشقاق المخالفة والمعاداة . والمعنى : احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي ومعاداتي بسبب ما أدعوكم إليه إصابة مصيبة مثل مصيبة قوم نوح وهي الغرق ﴿أو قوم هود﴾ وهي الريح العقيم ﴿أو قوم صالح﴾ وهي الصيحة والرجفة .

وقوله : ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ أي لا فصل كثيراً بين زمانهم وزمانكم وقد كانت الفاصلة الزمانية بين القومين أقل من ثلاثة قرون ، وقد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليهما السلام وشعيب معاصراً لموسى عليهما السلام .

وقيل : المراد به نفي البعد المكانيّ ، والإشارة إلى أن بلادهم الخربة قريبة منكم لقرب مدين من سدوم وهو بالأرض المقدسة ، فالمعنى : وما مكان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفة وآثارهم الباقية الظاهرة . والسياق لا يساعد عليه والتقدير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل .

قوله تعالى : ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾ قد تقدم الكلام في معنى قوله : ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروا الله

---

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) النساء : ٥٩ . (٣) التوبة : ٧١ .

من ذنوبكم وارجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله إن الله ذو رحمة ومودّة يرحم المستغفرين التائبين ويحبّهم .

وقد قال أولاً : ﴿استغفروا ربكم﴾ فأضاف الربّ إليهم ثم قال في مقام تعليله : ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ ولعل الوجه فيه أنه ذكر في مرحلة الأمر بالاستغفار والتوبة من الله سبحانه صفة ربوبيته لأنها الصفة التي ترتبط بها العبادة ومنها الاستغفار والتوبة ، وأضاف ربوبيته إليهم بقوله : ﴿ربكم﴾ لتأكيد الارتباط وللإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الأرباب من دون الله .

وكان من حق الكلام أن يقول في تعليله : إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه ، وقد أثبت سابقاً أنه رب القوم أضافه ثانياً إلى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى أن ربكم وربي رحيم ودود .

على أن في هذه الإضافة معنى المعرفة والخبرة فتفيد تأييداً لصحة القول فإنه في معنى أنه تعالى رحيم ودود وكيف لا ؟ وهو ربي أعرفه بهذين الوصفين .

والودود من أسماء الله تعالى ، وهو فعول من الودّ بمعنى الحب إلا أن المستفاد من موارد استعماله أنه نوع خاص من المحبة وهو الحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة كالإلفة والمراودة والإحسان ، قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1] .

والله سبحانه يحب عباده ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2] فهو تعالى ودود لهم .

قوله تعالى : ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ إلى آخر الآية ، الفقه أبلغ من الفهم وأقوى ، ورهط الرجل عشيرته وقومه ، وقيل : إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة وعلى هذا ففي قولهم : رهطك ، إشارة إلى قلّتهم وهوان أمرهم ، والرجم هو الرمي بالحجارة .

لما حاجّهم شعيب عليه السلام وأعياهم بحجته لم يجدوا سبيلاً دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجة فذكروا له :

أولاً : إن كثيراً مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له ،

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) إبراهيم : ٣٤ .

وهذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه .

ثم عقبوه بقولهم : ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي لا نفهم ما تقول ولست قوياً فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه ، والسمع والقبول له فإنا لا نراك فينا إلا ضعيفاً لا يعبأ بأمره ولا يلتفت إلى قوله .

ثم هدّدوه بقولهم : ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي ولولا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعي جانبهم فيك ، وفي تقليل العشيرة إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوماً قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته ، وإنما كفّهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته .

ثم عقبوه بقولهم : ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ تأكيداً لقولهم : ﴿لولا رهطك لرجمناك﴾ أي لست بقوي منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشرّ القتل ، وإنما يمنعنا رعاية جانب رهطك . فمحصل قولهم إهانة شعيب وأنهم لا يعبؤن به ولا بما قال ، وإنما يراعون في ترك التعرض له جانب رهطه .

قوله تعالى : ﴿قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريّاً﴾ الظهري نسبة إلى الظهر بفتح الظاء المعجمة وإنما غيّر بالنسب وهو الشيء الذي وراء الظهر فيترك نسياً منسياً يقال : اتخذه وراءه ظهريّاً أي نسيه ولم يذكره ولم يعتن به .

وهذا نقض من شعيب لقولهم : ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي كيف تعزّزون رهطي وتحترمون جانبهم ، ولا تعززون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإني أنا الذي أدعوكم إليه من جانبه ؟ فهل رهطي أعزّ عليكم من الله ؟ وقد جعلتموه نسياً منسياً وليس لكم ذلك وما كان لكم أن تفعلوه إن ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطة بكل شيء وجوداً وعلماً وقدرة . وفي الآية طعن في رأيهم بالسفه كما طعنوا في الآية السابقة في رأيه بالهوان .

قوله تعالى : ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ إلى آخر الآية . قال في المجمع : المكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل . انتهى وهو في الأصل ـ كما قيل ـ من مكن مكانة كضخم ضخامة إذا قوي على العمل كل القوة ويُقال ـ تمكن من كذا أي أحاط به قوة .

وهذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بأنه على وثوق مما

يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوة والتمكن فلهم عملهم وله عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب . هم أو هو؟ ويعلمون من هو كاذب ؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم .

قوله تعالى : **﴿ولما جاء أمرنا نجّينا شعيباً﴾ إلى قوله ﴿جاثمين﴾** تقدم ما يتضح به معنى الآية .

قوله تعالى : **﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾** غني في المكان إذا أقام فيه . وقوله : ﴿ألا بعداً لمدين﴾ الخ . فيه لعنهم كما لعنت ثمود ، وقد تقدم بعض الكلام فيه في القصص السابقة .

(بحث روائي)

في تفسير القمي قال : قال : بعث الله شعيباً إلى مدين وهي قرية على طريق الشام فلم يؤمنوا به .

وفي تفسير العياشي عن أحمد بن محمد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله : ﴿إني أراكم بخير﴾ قال : كان سعرهم رخيصاً .

وفيه عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه‌السلام قال : سألته عن انتظار الفرج فقال : أو ليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج ؟ ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ .

أقول : قوله : ليس تعلم بمعنى لا تعلم وهي لغة مولدة .

وفي المعاني بإسناده عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : قلت : فقوله عز وجل : ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وقوله عز وجل : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ ؟ فقال : إذا فعل العبد ما أمر الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجل وسمي العبد موفقاً ، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ، ومتى خلى بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يتركها فقد خذله

ولم ينصره ولم يوفقه .

أقول : محصّل بيانه عليه السلام أن توفيقه تعالى وخذلانه من صفاته الفعلية فالتوفيق هو نظمه الأسباب بحيث تؤدي العبد إلى العمل الصالح أو عدم إيجاده بعض الأسباب التي يستعان بها على المعصية . والخذلان خلاف ذلك . وعلى ذلك فمتعلق التوفيق الأسباب لأنه إيجاد التوافق بينها وهي المتصفة بها ، وأما توصيف العبد به فمن قبيل الوصف بحال المتعلّق .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : قل : ربي الله ثم استقم . قلت : ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . قال : ليهنئك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً .

أقول : وقد تقدمت الإشارة إلى نبذة من معنى الجملة .

وفيه أخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره ، وأوحى الله إليه : يا شعيب ما هذا البكاء ؟ أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار ؟ فقال : لا ولكن اعتقدت حبك بقلبي ، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي ؟ فأوحى الله إليه : يا شعيب إن يكن ذلك حقاً فهنيئاً لك لقائي ، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي .

أقول : المراد بالنظر إليه تعالى هو النظر القلبي دون النظر الحسّي المستلزم للجسمية ، تعالى عن ذلك ، وقد تقدم توضيحه في تفسير قوله تعالى : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾[1] في الجزء الثامن من الكتاب .

وفيه أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب : ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال : كان مكفوفاً فنسبوه إلى الضعف . ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ قال عليّ : فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة .

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول)

١ ـ هو عليه السلام ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن وهم هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام ذكر الله تعالى طرفاً من قصصه في سور الأعراف وهود والشعراء والقصص والعنكبوت .

كان عليه السلام من أهل مدين ـ مدينة في طريق الشام من الجزيرة ـ وكان معاصراً لموسى عليه السلام، وقد زوّجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج وإن أتم عشراً فمن عنده[1] فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه وسار بأهله إلى مصر .

وكان قومه من أهل مدين يعبدون الأصنام وكانوا قوماً منعمين بالأمن والرفاهية والخصب ورخص الأسعار فشاع الفساد بينهم والتطفيف بنقص المكيال والميزان (هود : ٨٤ وغيرها) فأرسل الله إليهم شعيباً وأمره أن ينهاهم عن عبادة الأصنام بالإنذار والتبشير وذكّرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط .

وبالغ عليه السلام في الاحتجاج عليهم وعظتهم فلم يزدهم إلا طغياناً وكفراً وفسوقاً (الأعراف وهود وغيرهما من السور) ولم يؤمنوا به إلا عدة قليلة منهم فأخذوا في إيذائهم والسخرية بهم وتهديدهم عن اتباع شعيب عليه السلام، وكانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدّون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً[2] .

وأخذوا يرمونه عليه السلام بأنه مسحور وأنه كاذب[3] وأخافوه بالرجم ، وهددوه والذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودنّ في ملّتهم[4] ولم يزالوا به حتى أيأسوه من إيمانهم فتركهم وأنفسهم[5] ودعا الله بالفتح قال : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

فأرسل الله إليهم عذاب يوم الظلّة[6] وقد كانوا يستهزئون به أن أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين وأخذتهم الصيحة[7] والرجفة[8] فأصبحوا

---

(١) القصص : ٢٧ .
(٢) الأعراف : ٨٦ .
(٣) الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .
(٥) هود : ٩٣ .
(٦) الشعراء: ١٨٩ .
(٧) هود : ٩٤ .
(٨) الأعراف : ٩١ ، العنكبوت : ٣٧ .

في ديارهم جاثمين ، ونجّى شعيباً ومن معه من المؤمنين[١] فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين[٢] .

٢ ـ شخصيته المعنوية ، كان ﷺ من زمرة الرسل المكرمين وقد أشركه الله تعالى فيما أثناهم به من الثناء الجميل في كتابه ، وقد حكى عنه فيما كلم به قومه وخاصة في سور الأعراف وهود والشعراء شيئاً كثيراً من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع مع ربه ومع الناس .

وقد سمى نفسه الرسول الأمين[٣] ومصلحاً[٤] وأنه من الصالحين[٥] فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء ، وقد خدمه الكليم موسى بن عمران ﷺ زهاء عشر سنين سلام الله عليه .

٣ ـ ذكره في التوراة ، لم تقصّ التوراة قصته مع قومه ، وإنما أشارت إليه في ضمن ما ذكرت قصة قتل موسى القبطي وفراره من مصر إلى مديان (القصة فسمّته «رعوئيل كاهن مديان»[٦] .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) .

(بيـــان)

إشارة إلى قصة موسى ـ الكليم ـ ﷺ ، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن ذكر باسمه في مائة ونيّف وثلاثين موضعاً منه في بضع وثلاثين سورة وقد اعتني

---

(١) هود : ٩٤ .
(٢) الأعراف : ٩٣ .
(٣) الشعراء : ١٧٨ .
(٤) هود : ٨٨ .
(٥) الشعراء : ٢٧ .
(٦) الإصحاح الثاني من سفر الخروج من التوراة .

بتفصيل قصته أكثر من غيره غير أنه تعالى أجمل القول فيها في هذه السورة فاكتفى بالإشارة الإجمالية إليها .

قوله تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين**﴾ الباء في قوله بآياتنا للمصاحبة أي ولقد أرسلنا موسى مصحوباً لآياتنا وذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء والرسل وأيدهم بالآيات المعجزة طائفتان منهم من أوتي الآية المعجزة على حسب ما اقترحه قومه كصالح عليه السلام المؤيد بآية الناقة ، وطائفة أيدوا بآية من الآيات في بدء بعثتهم كموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، كما قال تعالى خطاباً لموسى عليه السلام : ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾[1] ، وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ الخ[2] ، وقال في محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾[3] ، والهدى القرآن بدليل قوله : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿واتّبعوا النور الذي أُنزل معه﴾[5] .

فموسى عليه السلام مرسل مع آيات وسلطان مبين ، وظاهر أن المراد بهذه الآيات الأمور الخارقة التي كانت تجري على يده ، ويدل على ذلك سياق قصصه عليه السلام في القرآن الكريم .

وأما السلطان وهو البرهان والحجة القاطعة التي تتسلط على العقول والأفهام فيعم الآية المعجزة والحجة العقلية ، وعلى تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ .

وليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون ذلك الجبار الطاغي الذي ما ابتلي بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السلام لكنّ الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه وجنوده ونجى بني إسرائيل بيده ، ويشعر بهذا المعنى قوله : ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[6] ، وقوله لموسى عليه السلام : ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾[7] .

---

(١) طه : ٤٢ .
(٢) آل عمران : ٤٩ .
(٣) الصف : ٩ .
(٤) البقرة : ٢ .
(٥) الأعراف : ١٥٧ .
(٦) طه : ٤٦ .
(٧) طه : ٦٨ .

وفي هذه الآية ونظائرها دلالة واضحة على أن رسالة موسى عليه السلام ما كانت تختصّ بقومه من بني إسرائيل بل كانت تعمّهم وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿إلى فرعون وملإه فاتّبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ نسبة رسالته إلى فرعون وملئه ـ والملأ هم أشراف القوم وعظماؤهم الذين يملؤن القلوب هيبة ـ دون جميع قومه لعلها للإشارة إلى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعاً لا رأي لهم إلا ما رآه لهم عظماؤهم .

وقوله : ﴿فاتّبعوا أمر فرعون﴾ الخ ، الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول والفعل كما حكى الله عن فرعون في قوله : ﴿قال فرعون ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[1] ، فينطبق على السنّة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر بها . وكأن الآية محاذاة لقول فرعون هذا فكذّبه الله تعالى بقوله : ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ .

والرشيد فعيل من الرشد خلاف الغيّ أي وما أمر فرعون بذي رشد حتى يهدي إلى الحق بل كان ذا غيّ وجهالة ، وقيل : الرشيد بمعنى المرشد .

وفي الجملة أعني قوله : ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والأصل ﴿أمره﴾ ولعل الفائدة فيه ما يفيده اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتة .

قوله تعالى : ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ أي يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماماً لهم من أئمة الضلال ، قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾[2] .

وقوله : ﴿فأوردهم النار﴾ تفريع على سابقه أي يقدمهم فيوردهم النار ، والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع ، وربما قيل : تفريع على قوله : ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي اتبعوه فأوردهم الإتباع النار ، وقد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله : ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[3] حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا ، ولا يخفى أن الآيات ظاهرة في خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها في العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوّاً وعشيّاً ، وفي

(١) غافر : ٢٩ .　(٢) القصص : ٤١ .　(٣) غافر : ٤٦ .

يوم القيامة بالدخول في أشد العذاب الذي سجل فيها أنه النار .

وقوله : ﴿وبئس الورد المورود﴾ الورد هو الماء الذي يرده العطاش من الحيوان والإنسان للشرب ، قال الراغب في المفردات : الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال : وردت الماء أرد وروداً فأنا وارد والماء مورود . وقد أوردت الإبل الماء قال : ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ والورد الماء المرشح للورود . انتهى .

وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعيه المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده ، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقية تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هي الورد الذي يردونه ، وبئس الورد المورود ، لأن الورد هو الذي يخمد لهيب الصدر ويروي الحشا العطشان وهو عذب الماء ونعم المنهل السائغ وأما إذا تبدل إلى عذاب النار فبئس الورد المورود .

قوله تعالى : ﴿فأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ أي هم اتبعوا أمر فرعون فأتبعتهم لعنة من الله في هذه الدنيا وإبعاد من رحمته وطرد من ساحة قربه ، ومصداق اللعن الذي أُتبعوه هو الغرق ، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمة المكتوب في صحائف أعمالهم الذي من آثاره الغرق وعذاب الآخرة .

وقوله : ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ الرفد هو العطية والأصل في معناه العون ، وسميت العطية رفداً ومرفوداً لأنه عون للآخذ على حوائجه ، والمعنى وبئس الرفد رفدهم يوم القيامة وهو النار التي يسجرون فيها ، والآية نظيرة قوله في موضع آخر: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾[1] .

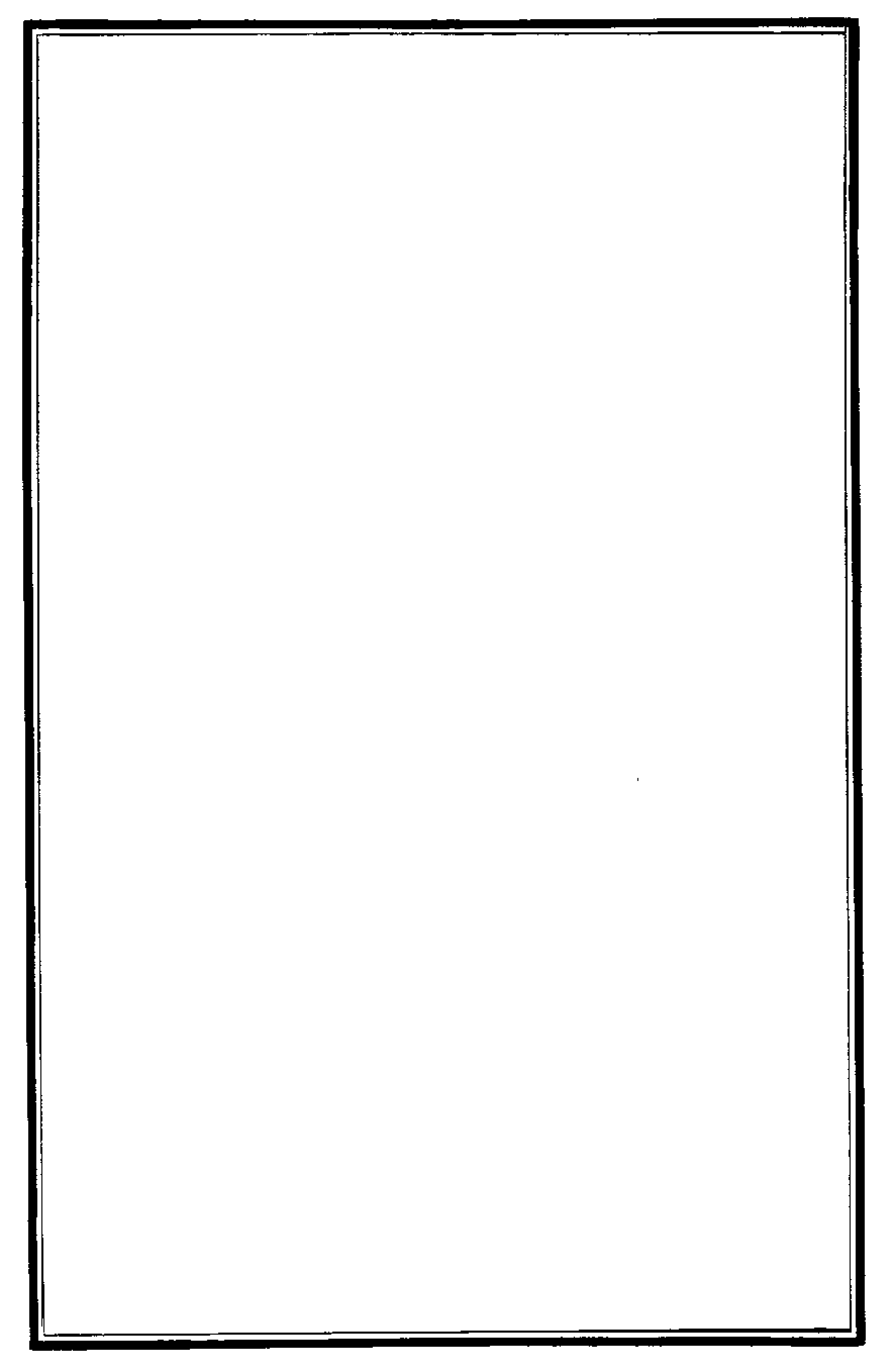
وربما أُخذ : ﴿يوم القيامة﴾ ظرفاً فالآية متعلقاً بقوله : ﴿أُتبعوا﴾ أو بقوله : ﴿لعنة﴾ نظير قوله : ﴿في هذه﴾ ، والمعنى : وأتبعهم الله في الدنيا

---

(١) القصص : ٤٢ .

والآخرة لعنة أو فـأتبعهم الله لعنة الـدنيا والآخـرة ثم استؤنف فقيل : بئس الـرفد المرفود اللعن الذي اتبعوه أو الإتباع باللعن .

تمَّ والحمد لله



فهرس بعض المواضع المبحوث عنها في هذا الجزء